الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي
في عصر الخلافة
(٣١٦ - ٣٩٩ هـ)

عميد كلية الدراسات العليا

نادية صالح راشد أبو عودة

إشـــراف

الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية.

(نيسان ١٩٩٥)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ...١٨/٤/١٩٩٥م... وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيـــع
١- الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة	(مشرفاً)	....
٢- الدكتورة عصمة غوشة	(عضواً)	....
٣- الدكتور صلاح جرار	(عضواً)	....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى من كنت أرجو أن يكون معي

وقد غدا الحلم حقيقة

والدي

إلى من تكابد عناء السنين

وتحترق لتشعل شموع الآخرين

والدتي

إلى شمعة عمري

أخي جميل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

بكل تقدير وعرفان أشكر مشرفي الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة لتمسكه بالإشراف على رسالتي بعد تركه الجامعة، ورغم مشاغله الكثيرة، ولأنه كان دائماً يغمرني بحنان الأبوة، ويزودني بما يؤهلني لمواجهة الحياة، قبل تزويده إياي بما يعينني على كتابةالرسالة، وأتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء هيئة المناقشة الدكتورة عصمة غوشة، والدكتور صلاح جرار، على تفضلهما بمناقشة الرسالة، وأخص بالذكر الدكتور صلاح جرار الذي كان يبث الأمل في نفسي ويغدق علي بالإجابة عن كل الأسئلة والتساؤلات التي كانت تتصارع في عقلي دون كلل أو تبرم، كما أشكر أستاذي الدكتور هاشم ياغي، الذي أحاطني برعايته ومنحني الكثير من توجيهاته ونصائحه، وخالص تقديري وشكري لكل من أعانني على كتابة هذه الرسالة: من أساتذتي في قسم اللغة العربية، ومن زملائي وزميلاتي في العمل والدراسة فقد كانت قلوبهم دائماً تنبض بروح التعاون.

وأخيراً أتقدم لعائلتي الكريمة التي قاست معي ليالي البحث الطويلة فصبرت معي وعلي، وهم راشد وعائد وعائدة وساند وجميل وماجد ورمزي وورولا ورنين وكفاية ونائلة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهـــــداء	جـ
الشكر والتقدير	د
قائمة المحتويات	هـ
الملخـــــص	ح
مقدمـــة	١
مدخـــل	٣
أولاً : الملامح الطبيعية والثقافية للأندلس في عصر الخلافة	٤
أ- الملامح الطبيعية للأندلس في عصر الخلافة	٤
ب- الملامح الثقافية للأندلس في عصر الخلافة	٦
ثانياً : بواعث شعر الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر الخلافة	١١
أ- جمال الطبيعة	١١
ب- كثرة الأزهار في الأندلس	١٤
جـ- ملامح المجتمع الأندلسي	١٥
د- تشجيع الخلفاء والأمراء	١٧
هـ- الرخاء الاقتصادي	٢١
الفصل الأول : الطبيعة الصامتة	٢٥
أولاً : مجال الفضاء	٢٦
ثانياً : مجال الأرض	٣٦
أ- وصف الرياض والربيع	٣٦
ب- وصف الورود	٤١
جـ- وصف النوريات	٥٠
١- السوسن	٥٠
٢- البهار	٥٣
٣- النرجس	٥٥
٤- النيلوفر	٥٦
٥- الخيري (النمام)	٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة

٦- الخيري الأصفر ٥٩
٧- الترنجان ٥٩
٨- الياسمين ٦٠
٩- الريحان ٦٠
١٠- زهر الرمان (الجلنار) ٦٠
ء- وصف الثمريات والخضر ٦٢
الفصل الثاني : الطبيعة الصامتة ٦٦
أولاً : وصف الحيوان ٦٨
أ- وصف الخيل ٦٨
ب- وصف الإبل ٧٧
جـ وصف كلاب الصيد ٨٠
ثانياً : وصف الطيور ٨٣
أ- وصف الحمام ٨٣
ب- وصف البازي والدستبان ٩٠
جـ - وصف القمري ٩٢
د- وصف أم الحسن ٩٣
هـ - وصف الغراب ٩٤
الفصل الثالث : الطبيعة في أغراض الشعر المختلفة ٩٥
أولاً : الطبيعة في الغزل ٩٦
ثانياً : الطبيعة في المدح ١٠٨
ثالثاً : الطبيعة في الحروب وأدواتها ١٢٠
رابعاً : الطبيعة في الخمريات ١٣٣
الفصل الأخير : الخصائص الفنية لشعر الطبيعة في عصر الخلافة ١٣٨
أ- الخصائص اللغوية ١٣٩
ب- الصورة الفنيـة ١٤٩
أولاً : التصوير الحسي ١٥٠
ثانياً : النظرة التجزيئيـة ١٥٣
ثالثاً : الاندماج العاطفي ١٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة

رابعاً: الإشارات الدينية ١٥٩
خامساً : التأثر بالمشارقة ١٦١
سادساً : الابتكار والتجديد ١٦٦
خاتمة ١٧١
قائمة المصادر والمراجع ١٧٣
خارطة الأندلس في عصر الخلافة ١٨٢
الملخص باللغة الإنجليزية ١٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخــص

وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر الخلافة (٣١٦ - ٣٩٩ هـ)

نادية صالح راشد أبو عودة

إشـــراف

الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة

شعر وصف الطبيعة فن أصيل ارتبط بالشعر العربي منذ نشأته، فالطبيعـة كـانت دائماً مصدر وحي وإلهام للشعراء، فما إن يمثلوا أمامها حتـى تتسـلل أوصافهـا مـن بـين شفاههم رقيقة عذبة، وقد اكتنفت الشاعر الأندلسي في عصر الخلافة بيئة تفيض سـحراً وجمالاً، فوصفها بشعر ينم عن تفاعله معها تفاعلاً قد يصل إلى درجة التوحـد في بعـض الأحيان، وقد امتاز شعر الطبيعة في هذه الفترة بظهوره مستقلاً حيث لا يكون الوصـف في القطعة أو القصيدة جزءا من أوصاف أخرى، وهذا لا يعني اختفاء شـعر الطبيعـة مـن فنون الشعر الأخرى.

لقد كرست هذه الدراسة المتواضعة للبحث في شعر وصـف الطبيعـة وعناصرهـا التي وقف عندها الشعراء سواء أكانت عنـاصر الطبيعـة الصامتـة ومـا تضمـه مـن مجـالي الأرض والسماء وما بينهما، أم كانت عناصر الطبيعة الصائتة الـتي تمشـي في الأرض، أو تحلق في سمائها، مبينة الأثر الكبير للبيئة الأندلسية في تلوين هذا الأدب بلون خاص رغـم سيره في ركاب شقيقه المشرقي، كما أخذت بعين الاعتبار ذلـك الـترف الشـديد الـذي عاشه الأندلسيون، وكـان لـه دور كبير في تطـور شـعر وصـف الطبيعـة، فقـد كـثرت معايشهم للأزاهير والورود والبساتين والرياض الجميلة، ومجالس الأنس والخمر والغـزل، وكلها بيئات خصبة ترعرع بها هذا الشعر وازدهر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان من الطرافة بمكان أن لاحظتُ أن حذف الطبيعة كانت تتسلل إلى فنون أخرى غريبة عنه ليعانقها، فوجدته في قصائد المدح والحرب وأدواتها والشكوى، وقد تناولتُ ذلك كله بالدراسة والتحليل، وكان لابد لي بعد هذه الجولة السريعة بين أحضان الطبيعة وأوصافها أن أتوقف عند شعر وصف الطبيعة في فترة الخلافة لدراسته دراسة لغوية وفنية، وقد تمخضت الدراسة عن شعر غزير قد لا تعني كثرته تفوقه على نظيره في المشرق، إلا أنه يبقى ظاهرة مميزة في الأدب الأندلسي، حيث استطاع شعراء تلك الفترة أن يبدعوا ويبتكروا صوراً جديدة لم يطرقها أحد من قبلهم، وقد جاءت صورهم بوجه عام متحررة من معاني البداوة والقساوة ومتسمة بمعاني البهجة والنشوة، حيث كانت نفوسهم مفعمة بمشاعر الرضى والتفاؤل، مما انعكس على رؤيتهم للطبيعة، وبالتالي شعرهم في وصفها.

أرجو أن تنال هذه الرسالة إعجاب المتخصصين والمهتمين، وأن تكون مرجعاً لأي دارس وباحث عن وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر الخلافة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمـــة

لقد كانت بداية تفكيري بموضوع البحث وليدة المناقشات التي كانت تـدور بيننا وبين أستاذنا الدكتور عبـد الكريـم خليفـة، في مـادة الأدب الأندلسـي، وقـد استثارني شعر الطبيعة، بما فيه من جمال الوصف، ورقة التعبـير عـن مظـاهر الطبيعـة الخلابة في الشعر الأندلسي.

ولعل غياب دراسـات أكاديميـة لهـذا الشـعر، في فـترة القـرن الرابـع الهجـري (عصر الخلافة) دفعني إلى اختيار هذا الموضوع، إذ إن الحديث عن هذا الشـعر جـاء في كتب تحدثت عن الأدب الأندلسي بصورة عامة، وقد تحدثت دراسة واحدة عـن هذا الشعر حديثاً في فترة عصر ملوك الطوائف وهي رسالة ماجستير بعنوان "الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر المرابطين" مقدمـة مـن الطـالب "حمـدي محمـود نـاجي منصور".

وقد أفادت هذه الدراسة من معظم المصادر الأندلسية، وأبرزها "الذخـيرة في محاسـن أهـل الجزيـرة" لابـن بسـام الشـنتريني و"نفـح الطيـب مـن غصـن الأندلـس الرطيب" للمقّـري و"التشبيهات مـن أشـعار أهـل الأندلـس" للكتـاني و"البديـع في وصف الربيع" للحميري، و "يتيمة الدهر" للثعـالبي، و"الحلـة السـيراء" لابـن الأبـار، ومجموعة من دواوين شعراء هذه الفترة، أبرزها ديوان "الرمادي"، و "ابن عبد ربه"، و"ابن دراج القسطلي"، و "تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ".

كما أفادت من بعض المراجع وأهمهـا "ملامـح الشـعر الأندلسـي" للدكتـور عمر الدقاق، و "النوريات في الشعر الأندلسـي" للدكتـور مقـداد رحيـم، و"الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه" للدكتور مصطفى الشكعة.

وقد جاءت هذه الرسالة في أربعة فصول، مُهدت بمدخل للدراسـة، يتحـدث عن الملامح الطبيعية والثقافية للأندلس في عصر الخلافة وبواعث شعر الطبيعة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الفصل الأول، فقد جاء في الطبيعة الصامتة، بمجاليها في وصف الأرض، ووصف السماء، وما يدخل ضمن هذين المجالين، وقد خصصت الفصل الثاني لدراسة الطبيعة الصائتة وما ضمته من خيل وإبل وكلاب صيد وطيور.

والفصل الثالث يبين مدى تغلغل الطبيعة في أغراض الشعر المختلفة، كالغزل المرأة، ووصف الحروب وأدواتها، والمدح، ووصف الخمر.

وقد جاءت الدراسة الفنية لهذا الشعر في الفصل الرابع، الذي حاول التركيز على دراسة الخصائص اللغوية والصور الفنية، وتناولها من عدة جوانب، باحثا عن الدلالات التي يحملها كل جانب منها، من حيث تأثرهم بالمشارقة، والابتكار والتجديد، والاندماج العاطفي والنظرة التجزيئية والإشارات الدينية، والنظرة الحسية.

وفي النهاية أرجو أن تلقى هذه الدراسة المتواضعة قبولاً عند المختصين بالأدب الأندلسي، والدارسين له، والله الموفق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخـــل :

أولا : الملامح الطبيعية والثقافية للأندلس في عصر الخلافة.

أ- الملامح الطبيعية للأندلس في عصر الخلافة.

ب- الملامح الثقافية للأندلس في عصر الخلافة.

ثانياً : بواعث شعر الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر الخلافة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: الملامح الطبيعية والثقافية للأندلس في عصر الخلافة :

أ- الملامح الطبيعية للأندلس في عصر الخلافة :

قال صاعد الأندلسي[١] : "أما حدود الأندلس، فإن حدّها الجنوبي منها الخليج الرومي، ما يقابل طنجة في موضع يعرف بالزقاق[٢] ، سعته اثنا عشر ميلاً، ثم ينتهي إلى مدينة صور، وحداها الشمالي والغربي البحر الأعظم أقيانوس[٣] المعروف عندنا ببحر الظلمات، وحدها الشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة [٤] الواصل بين البحرين، بحر الروم والبحر الأعظم ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل ثلاث مراحل، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس."[٥]

ويتكون سطح شبه الجزيرة الأندلسية من عدة هضاب، تتخللها بعض المناطق السهلية، والوديان المنخفضة، وبعض المرتفعات الجبلية، شبكة من الأنهار الغزيرة التي تسهم في اغتناء طبيعتها الجميلة، وزيادة خضرتها ورونقها، وقد تحدث الشيخ

---

(١) صاعد بن الحسن اللغوي، هو صاعد بن الحسن الربعي اللغوي أبو العلاء، البغدادي، هاجر إلى الأندلس، قربه المنصور بن أبي عامر، وكان شاعراً عارفاً باستخراج الأموال، إلا أنه اتهم بالكذب في شؤون اللغة، توفي في صقلية سنة ٤١٧ هـ- انظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥، قسم ع ج، ص٢-٣٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ،بيروت، ١٩٧٥، ج٢، ص١٨١، الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق محمد بن تاويت الطبخي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العربي، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٢١.

(٢) هو مضيق جبل طارق، انظر الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية باللغتين الإسبانية والعربية عمل محمد عبدالله عنان، مطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧٦، خارطة (إسبانية المسلمة) الأندلس.

(٣) هو المحيط الأطلسي، وكان يعرف ببحر الظلمات، انظر المصدر السابق، خارطة (إسبانية المسلمة)، وانظر المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٩٨٦، ج١، ص١٣٢.

(٤) يقصد جبال إلبرت التي تفصل إسبانيا عن فرنسا، انظر الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية، خارطة (إسبانيا المسلمة) الأندلس، وانظر الخريطة المرفقة طياً ص ١٨٢.

(٥) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧٢، ص١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحمد بن محمد بن موسى الرازي عن جغرافيتها، فقال : "بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجناب، منبجس الأنهار الغزار والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السموم، معتدل الهواء والجو والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال، وسطة من الحال". (١)

وقال : "الأندلس أندلسان في اختلاف رياحها، ومواقع أمطارها وجريان أنهارها: أندلس غربي، وأندلس شرقي، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى المحيط الغربي، وتمطر بالرياح الغربية، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة من الجوف الى بلد شنتمرية (٢) طالعاً الى حوز إغريطة المجاورة لطليطلة مائلاً إلى الغرب ومجاوراً للبحر المتوسط المعروف بالأندلس الأقصى، وتجري أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية، وهو من حد جبل البشكنش، هابطاً مع وادي إبرة إلى بلد شنتمرية، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط، وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام، وهو البحر المسمى ببحر تيران، ومعناه الذي يشق دائرة الأرض، ويسمى البحر الكبير".(٣)

أما المسعودي فقال : "بلاد الأندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين، ولهم من المدن المرصودة نحو أربعين مدينة".(٤)

(وللأندلس المدن الحصينة، والمعاقل المنيعة، والقلاع الحريزة، والمصانع الجليلة، ولها البر والبحر، والسهل والوعر، وشكلها مثلث، وهي معتمدة على ثلاثة أركان، الأول: هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس، ومنه يخرج البحر المتوسط الشامي بقبلي الأندلس، والركن الثاني هو بشرقي الأندلس بين مدينة

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٣٠-١٣١.

(٢) شنتمرية: مدينة في الأندلس من مدن اكشبونة، وهي أول الحصون التي تُعدُّ لبنبلونة، وهي أتقن حصون بنبلونة بنياناً، صفة جزيرة الأندلس، ص١١٤.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٣١-١٣٢.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، ١٩٧٣، ج١، ص١٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بربونة ومدينة برذيل بأيدي الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتي ميورقة ومنورقة بمجاورة من البحرين البحر المحيط والبحر المتوسط، وبينهما البرّ الذي يعرف بالأبواب، وهو المدخل إلى بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة، ومسافته بين البحرين مسيرة يومين، ومدينة بربونة تقابل البحر المحيط، والركن الثالث منها هو ما بين الجوف والغرب من حيز جلّيقة، حيث الجليل الموفى على البحر، وفيها الصنم العالي المشبه بصنم قادس، وهو الطالع على بلد برطانية. (١)

ب- الملامح الثقافية للأندلس في عصر الخلافة :

نهضت الثقافة الأندلسية في فترة الخلافة نهضة شاملة، كان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس، بل قوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير. وساعدت على هذه النهضة ظروف الأندلس في تلك الفترة، فالوحدة والاستقلال والتحضر والرقي، والأمن والرخاء، كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة، ويساعد على مستوى علميّ رفيع.

وقد أتيح للأندلس في فترة الخلافة، خليفتان وفّرا للناس وحدةً واستقراراً، وحققا لهم أمناً ورخاء، ومكناهم من تحضر ورقي، وأتاحا لهم كل ما من شأنه أن ينهض بثقافتهم، ويرقى بعلمهم، و لم يكتفيا بتهيئة الجو بالثقافة والعلم، وإنما دفعا بالأندلس دفعاً إلى نهضتها الثقافية الشاملة، وذلك بتشجيع القادمين إلى الأندلس من علماء المشرق، وجلب الكتب القيمة من شتى الأقاليم، والحث على البحث والتأليف في شتى الفنون. ومن ذلك على سبيل المثال رحيل أبي علي القالي صاحب

---

(١) المقري، نفح الطيب، ص١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كتاب "الأمالي" من بغداد إلى الأندلس بدعوة من الخليفة عبدالرحمن الناصر حيث لقي عنده كل إكرام، واختص بابنه الحكم المستنصر وأورث أهل الأندلس علمه.[١]

وكان أبو علي القالي أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين، وله التصانيف الحسان "كالأمالي" و "البارع" وطاف البلاد، وسافر إلى بغداد سنة ٣٠٣ هـ [٢] ، وكان القالي قد قرأ على ابن دُرَستَويه كتاب سيبويه، ودقق النظر، وانتصر للبصريين، وأملى شيئاً من حفظه ككتاب "النوادر"، و"الأمالي"، و"المقصور والممدود"، و"الإبل"، و"الخيل"، و"البارع في اللغة" نحو خمسة آلاف ورقة، ولم يصنف مثله في الإحاطة والجمع، ورتب كتاب "المقصور والممدود" على التفعيل ومخارج الحروف في الحلق مستقصى في بابه لا يشذ منه شيء، وكتاب "مقاتل الفرسان" و "تفسير السبع الطوال".[٣]

وقد حمل القالي إلى الأندلس كثيراً من علم المشرق وأدبه، إذ نقل مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين[٤] مثل دواوين امريء القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، والخنساء، وديوان ابن أبي ربيعة، وجميل وغيرهم. هذا بالإضافة إلى كثير من كتب الأخبار واللغة مما أمد الحياة الثقافية الأندلسية في هذه الفترة بشحنة عظيمة من العلم والثقافة.

ومن الذين تلقوا دعوة للحضور إلى الأندلس أيضاً أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي، عالم اللغة والأدب والأخبار، وأصله من الموصل، ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر، عزم المنصور على أن يقتضي به أثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية فما وجد عنده ما يرتضيه، وأعرض عنه أهل

---

(١) المقري، المصدر السابق، ج١، ص٣٦٩.

(٢) نفسه ، ج٤، ص٧٣.

(٣) نفسه، ج٤، ص ٧٥،٧٦.

(٤) انظر فيما حمله القالي الى الأندلس: الفهرسة لابن خير ، الإشبيلي، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ط٢، ١٩٦٣، المجلد الأول ص ٣٩٥، وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلم، وقدحوا في علمه وعقله ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلة الثقة به، وكان ألف كتاباً سمّاه "الفصوص" فدحضوه ورفضوه ونبذوه في النهر.

أما الحكم بن عبدالرحمن المعروف بالمستنصر فقد ثبت أنه لم يولع خليفة بالكتب مثلما أولع، ولم يجمع أمير منها مثل الذي جمع وقد اشتهر بمكتبته الغنية التي بلغت أربعمائة ألف مجلد[١] ، وكان يحرص على جمع الكتب لها، ويدفع فيها أغلى الأثمان، كما فعل مع أبي فرج الأصفهاني، حين وجّه إليه ألف دينار ليرسل له نسخة من كتاب الأغاني، فبعث إليه بنسخة من كتابه قبل أن يظهر في بغداد[٢].

وليس أدل على نهضة الأندلس العلمية في فترة الخلافة، من وفرة العلماء والمؤلفات في أغلب فروع المعرفة، تلك الوفرة التي لم تعرفها الأندلس من قبل، إذ اتضحت معها الشخصية العلمية الأندلسية إلى حد كبير.

ففي الميدان اللغوي، نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس، وذلك بعد قدوم أبي علي القالي الذي وفد على الأندلس سنة ٣٤٠هـ/ ٩٤٠م، وقد ألف كثيراً من الدراسات اللغوية، وأملى على طلبته الأندلسيين كتابه "الأمالي"، وفي هذه الفترة برز عدد من الأندلسيين في الدراسات اللغوية مثل : أبي بكر الزبيدي[٣] ، الذي عمل "مختصر كتاب العين" وألف كتاب "طبقات النحويين

---

(١) صاعد البغدادي، طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م، ص٦٦.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٣٦٩.

(٣) أبو بكر الزبيدي: هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبدالله (٣٠٦هـ/ ٩١٨م -٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) رجل جاد، كان مؤدباً للخليفة هشام المؤيد في صباه، فكان الذي علّمه الحساب والعربية ونفعه نفعاً كبيراً، وألف في النحو والتاريخ كتباً لها قدرها، وكان شاعراً يميل في شعره إلى الحكمة والزهد فيذكر الخوف من الله، وخلود الروح، وثواب الآخرة وعقابها، وله كذلك نسيب يصور آلام بعد الحبيب على نحو لطيف رقيق. انظر السيوطي، بغية الوعاة رقم ١٣٦؛ الضبي، بغية الملتمس، ص٥٦؛ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ص٣٨٣، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٦، ص٥١٨، شمس الدين الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، الطبقة الحادية والعشرون، رقم (٣٥٣٣).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واللغويين " وكتاب "لحن العامة" وكتاب "الواضح في العربية"، وكان مؤدباً للأمير هشام بن الخليفة الحكم المستنصر . (١) ٤٥٧١٥٦

ومن الأندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية في فترة الخلافة أيضاً أبو بكر ابن القوطية الذي ألف كتاب "تصاريف الأفعال" وكتاب "المقصور والممدود" وكان من كبار علماء الأندلس في فروع علمية أخرى وخاصة التاريخ.(٢)

وفي الحقل التاريخي، ظهر من علماء الأندلس في فترة الخلافة، أحمد بن محمد ابن موسى الرازي(٣) ، الذي كان يلقب بالتاريخي، ومما ألفه كتاب في أخبار ملوك الأندلس، وآخر في مشاهير أهل الأندلس، في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتب الأنساب وأوسعها، وثالث عن كبار الموالي الأندلسيين، ورابع في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها. وقد ضاعت هذه الكتب كلها، ولم يصل إلينا من مؤلفاته إلا قطعة في صفة الأندلس مترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان (Cronica del Moro Rasis) أي تاريخ المغربي الرازي وهذه القطعة من تاريخ الرازي هي المعروفة "بالكرونيكا" (التاريخ)(٤).

كذلك كان من مؤرخي هذه الفترة، أبو بكر بن القوطية الذي سبقت الإشارة إليه، وقد خلّف لنا في التاريخ كتابه المشهور "تاريخ افتتاح الأندلس"، وهو يتناول تاريخ الأندلس من بداية فتحه إلى نهاية إمارة الأمير عبدا لله بن محمد، أي إلى سنة ٢٩٩هـ/ ٩١٢م، وروح الكتاب تتفق مع روح ابن القوطية حفيداً للقوط

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٧٥.

(٢) المقري، المصدر نفسه، ج٤، ص٧٥.

(٣) احمد بن محمد بن موسى الرازي: كان أديباً وخطيباً مفوّهاً وشاعراً، وكان مولده في ذي الحجة ٢٧٤هـ/ ٨٨٨م، توفي في سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م، وكان والده شرقياً وفد إلى الأندلس سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٤م وسكن قرطبة، وقد اشتغل بالتأليف في تاريخ الأندلس، بيد أنه لم يبق لدينا مما ألفه إلا قطع متناثرة من كتاب "الرايات" نجدها في الكتب الظر المقري، نفح الطيب، ج٤، ص١٥٩، ص١٦٩.

(٤) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط١، النهضة، القاهرة، ١٩٥٥م، ص١٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً، ومولى لبني أمية ثانياً، فقد كان الرجل فقيهاً مالكياً لين العريكة، لا يميل بطبعه وأصله إلى التعصب لفريق دون فريق، وهو بسبب ولائه لبني أمية -إذ كان جده مولى لعمر بن عبدالعزيز- يتفق مع "الأخبار المجموعة" عن موسى ولذريق وبني أمية، ولكن انتسابه إلى سارة القوطية جعله يدخل في رواياته عنصراً قومياً أندلسياً، وهي ظاهرة على جانب كبير من الأهمية[١].

ومن مؤرخي تلك الفترة عريب بن سعد[٢] الذي كان يعمل في خدمة الحكم المستنصر، وقد كتب هذا المؤرخ مختصراً "لتاريخ الطبري" اختصر فيه تاريخ الطبري في ما يتصل بأخبار المشرق من سنة ٢٨٩هـ إلى ٣١٩هـ أي من ٩٠٢م إلى ٩٣٢م، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس، وكان هذا المؤرخ الأندلسي طبيباً، ومن آثاره كتاب "خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود"[٣].

أما أبو عامر بن شهيد[٤] الذي كان شاعراً وصديقاً للمنصور بن أبي عامر، فقد كتب تاريخاً كبيراً كان يقع في أكثر من مائة جزء جعله على طريقة الحوليات، وروى فيه الحوادث سنة سنة من عام أربعين للهجرة -أي من وفاة علي ابن أبي طالب- إلى أيامه[٥].

---

(١) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٠٣.

(٢) عريب بن سعد: قرطبي من أصل نصراني، وقد أسلم آباؤه واستعربوا، طبيب مؤرخ من أهل قرطبة، دخل في خدمة الدولة، استعمله الناصر سنة ٣٣١هـ على كورة أشبونة، واستكتبه المستنصر (الحكم) وارتفعت منزلته عند الحاجب المنصور (أبي عامر) فسماه "خازن السلاح". انظر، بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٠٦، ٤٨٩، المراكشي، الذيل والتكملة المخطوطة والمطبوعة، وهو فيها عريب بن سعد، الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٢٢٧.

(٣) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٠٦، ص٢٠٧.

(٤) أبو عامر بن شهيد توفي سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م، هو عبد الملك بن أحمد بن عبدالملك بن شهيد القرطبي، وزير من أعلام الأندلس ومؤرخيها ونداماء ملوكها، ولد ومات بقرطبة. انظر، ابن شكوال، الصلة (٣٤٩)، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج١، ص١٨٩. وكثيراً ما يخلط الناس بينه وبين أبي عامر أحمد بن مروان بن شهيد وهو حفيده المولود في ٣٨٢هـ والمتوفى سنة ٤٢٦هـ وهو صاحب كتاب التوابع والزوابع.

(٥) بالنثيا، تاريخ الفكر الإسلامي، ص٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً : بواعث شعر الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر الخلافة

أ- جمال الطبيعة :

الأندلس بلاد جميلة، منحها الله من طيب الخيرات ما حرمه الكثير من الأقطار، ففيها الأشجار الخضراء والحدائق الفيحاء والبساتين الغناء، وفيها الأنهار الدائمة الجريان، والسماء الصافية الأديم والمناخ الملائم.

وقد أضفت الحضارة الجديدة الوافدة عليها من الرقيّ ما جعل سكانها يحافظون على روح الجمال الطبيعي في بلدهم وينمونه ويزيدون فيه، فأصبحت الأندلس أغنية عذبة في فم الشاعر ينشدها وهو بين ظهرانيها، وأنشودة ساحرة يرددها إذا لوّعه شوق الاغتراب عنها.

وهي بقعة كريمة طيبة، كثيرة الفواكه، والخيرات فيها دائمة[١]، فلا ترى فيها إلا مياهها تتفرع، ولا تسمع إلا أطيارها تسجع، ولا تستنشق إلا أزهارها تتفتح[٢].

"وفي الأندلس من الغزال والإبل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما يوجد في غيرها... وبها من الطيور والجوارح وغيرها مما يكثر ذكره ويطول... وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها، ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز المعدومان في الأقاليم الباردة، ولا يعدم منها إلا التمر، ولها من الفواكه ما يعدم في غيرها، أو يقل كالتين القوطي والتين الشعري بإشبيلية"[٣].

وأما البساتين والجنات والأنهار، فلا تكاد تحصى من كثرة، في المدن والجهات الأندلسية جميعاً، ويكفي مثالاً أن الجنات في مدينة "جيان" كانت تتخذ

---

(١) محمد بن عبدالمنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، صفة جزيرة الأندلس، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص٣٢.

(٢) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٢، ج٢، ص٩٧، ٢٩٨.

(٣) المقرى، نفح الطيب، ج١، ص١٩٨-٢٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بظهور البيوت[١] ، وأن البساتين العريضة المستخلصة، والأرواح كانت تحف غرناطة فيصير سوارها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة، ولا تخلو من الجنات جهة من جهاتها[٢] ، مما حدا بلسان الدين بن الخطيب أن يقول فيها :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره

فكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره[٣]

ولا عجب أن يكون ذكر الرياض والبساتين والجنات والأنهار شائعاً غير منقطع في كلام الجغرافيين عن المدن الأندلسية كلها في كتبهم ومؤلفاتهم، مما يدل على كثرتها بالأندلس، بل العجب أن يقرأ المرء في كتاب "الروض المعطار" للحميري كلامه عن موضع "أشكونية" ما نصه : "ومن الغرائب أن من أراد أن يتخذ فيه جناناً صرف إلى الموضع العناية بالتدمين والعمارة والسقي من النهر، فتنبت الأرض هناك بطبعها شجر التفاح والكمثرى والتين والرمان وضروب الفواكه حاشا شجر التوت، من غير غراسة ولا اعتمال!"[٤].

وقد دلتنا جملة من تراجم الأندلسيين على أنهم يبالغون في الاهتمام بالرياض في منازلهم[٥]. كما كان لطبيعة الأندلس بالغ الأثر في نفوس الأندلسيين فبثوها مشاعرهم وصاغوا من الألفاظ درراً في وصف رياضها ومباهج جنانها، وها هو ذا الوزير لسان الدين بن الخطيب يصفها فيقول: "خص الله تعالى بلاد الأندلس من الريع، وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة

---

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ١٨٣.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، الشركة المصرية للطباعة ١٩٧٣، ط٢، ص١١٥.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، المرجع السابق، ص١١٥.

(٤) نفسه، ص٦٠-٦١.

(٥) انظر مثلاً الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦م، بالتحديد ترجمة محمد بن اليسع، ص٩٧، وترجمة أبي حفص التدميري، ص٣٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وفنون الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتمار، بما حرمه كثير من الأقطار مما سواها"(١).

إن هذه الأرض الكريمة جمعت من المشاهد ما هز المشاعر وشحذ القرائح لتجود بالإبداع، فقد رسم الأندلسيون لها أبدع الصور، واستلهموا من حسنها وبهائها أعذب الألحان، فها هو ذا الشاعر ابن خفاجة يخفق قلبه بذكرى وطنه، ويشتعل فيه الشوق والحنين إذا ما هبت ريح آتية من بلاده، فينشد قائلاً :

إنّ للجنة بالأندلس ... مجتلى حسن وريّا نفسِ
فسنا صبحتها من شنبٍ ... ودجى ليلتها من لعسِ
وإذا ما هبّت الريح صباً ... صحت واشوقي إلى الأندلس(٢)

ومن أحسن ما نظم في وصف الأندلس قول ابن سفر المريني حيث قال :

في أرضِ أندلس تلتذُّ نعماءُ ... ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفعٌ ... ولا تقوم بحق الأنس صهباء
وأينُ يعدل عن أرضٍ تحض بها ... على المدامة أمواه وأفياءُ
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها ... وكل روض بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضة، والمسك تربتها ... والخز روضتها، والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرقّ به ... من لا يرق، وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ... ولا انتشار لآلي الطل أندداء
وإنما أرج الندّ استثار بها ... في ماء وردٍ فطابت منه أرجاء(٣)

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٢٧-١٢٨.
(٢) المقري، المصدر السابق، ج١، ص١٦١.
(٣) نفسه، ج١، ص ١٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالحديث عن جمال الأندلس وطبيعتها حديث طويل إذ "إن بـأرض الأندلـس من الخصب والنضرة، وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا ما لا يوجد بمجموعه غالباً في غيرها"(١) : وقد أحس الأندلسيون بجمال بلادهم، وآتتهم طبيعة الأندلس خير أكلها وأحسن زينتها، فكان لذلك أثره في نفوسهم وآثاره في أشعارهم وفنونهم وبديع تأليفهم.

ب- كثرة الأزهار في الأندلس:

حظيت بلاد الأندلس بأنواع كثيرة من الأزهـار الجميلة التي تسترق النظر وتستوقفه للتأمل في روعة أشكالها وبهاء ألوانها، وكثرتها في بلاد الأندلسيين بشكل طبيعي... لذا فإن شعراء الأندلس عشقوا الأزهار وأولعوا بها، فعبروا عن افتتانهم بها بأبيات رقيقة عذبة أنشدوها، وتغنوا بها... وأصبحت الأزهار جزءاً مهماً في حياتهم، فهم يتهادون بها ويحاورونها ويشكون إليها حبهم وعشقهم وسقمهم من ظلم الحبيب، ويتخيلونها تحزن لحزنهم وتبهج لفرحهم، كما فضلوا بعضها على الآخر وقارنوا بينها، ولولا أشعار الأندلسيين وزهرياتهم لما عرفنا أنواع الأزهار المختلفة التي كانت تتفتح في الأندلس، ولا عجب أن تعرف أن جبال الأندلس تنبت أنواعاً من الزهور دون زراعة ولا اعتناء فجبل "شقورة ينبت الورد الذكي المعطّر"(٢) ، وجبل "شتية ينبت ضروب النواوير وأصناف الأزاهير، وأجناس الأفاويه والعقاقير، وتدوم غضارة نوره، وتتصل بهجة نبته باعتدال هوائه، وكثرة أندائه، فيقطف النرجس فيه غضاً في زمن الورد..."(٣). أما جبل "شنترة، ففيه ينبت

---

(١) الأمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثر الأندلسية، دار الحياة، بيروت، ١٣٥٥هـ، ج١، ص٢٢٩.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص٣٤٩.

(٣) الحميري، المصدر نفسه، ص٣٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البنفسج بطبعه"[١]، وفي "قرطبة جبل الورد الذي بلغ الريع منه مرات إلى ربع درهم، وصار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه"[٢].

إن غنى الأندلس بالورود والأزهار والرياحين أدى إلى وجود منتخبات شعرية عن الورود، وهذا لم نكن نلحظه في الشعر الجاهلي، ولعل السبب قلة الأزهار في شبه الجزيرة العربية التي تتسم بطبيعة صحراوية جافة قلما تنبت فيها الأزهار.

جـ- ملامح المجتمع الأندلسي :

الأندلسيون ميالون إلى البساطة والتحرر "والسهولة في كل شيء، والتخفف من الأمور حتى الدينية منها، والابتعاد ما أمكن عن التعقيد والإبهام والتفلسف"[٣]، ولذلك، لم تلق الفلسفة عندهم رواجاً حتى وقت متأخر، وعلم الفلسفة "علم ممقوت في الأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره، فلذلك تخفى تصانيفه"[٤] ، حتى إن أهل الأندلس "كانوا يحسبون الكلام الجدّي الخالي من المزاح والهزل فلسفة"[٥] ، لما عرف عنهم من ميل شديد إلى وسائل المتعة واللّهو وأهل إشبيلية بالتحديد هم "أكثر العالم طنزاً وتهكّماً، فقد طبعوا على ذلك، وكان المعتمد بن عباد كثيراً ما يتستر ويشاركهم في واديهم وفي مظان مجتمعاتهم ومزاحهم، ويصقل صدأ خاطره بما يصدر عنهم.."[٦]، وليس مستغرباً بعد ذلك أن

---

(١) الحميري، المصدر نفسه، ص٣٤٩.

(٢) ابن حزم، ابن سعيد والشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، نشرها وقدم لها د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٥٥.

(٣) د. محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠، ص٢٩٠، ٢٩١.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٤، تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم، ص١٧٩.

(٥) أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، مطبعة الاعتماد، مصر، ط٢، ١٩٣٨، ص١٨٣.

(٦) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٢٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تصبح مجالس الأنس بما تحتوي من أسباب المتعة والخيال، ظاهرة عامة لا يخلو منها قصر أو منزل أو متنزه، ولا يستثنيها حديث، وأن تكون الأندلس العربية دار غناء كبيرة، وأن تنال المرأة العربية في الأندلس من الحرية والانفتاح ما لم تنله مثيلاتها في المشرق، ويدلنا على ذلك هذا العدد الكبير من الشاعرات البارزات المجيدات(١).

وبما أن الأدب والشعر من الفنون التي تعبر دائماً عن طبيعة كتابها وطبيعة مجتمعاتهم، فقد عبرت في العصر الأندلسي عن روح هذا الشعب الميالة إلى طابع التسلية والترفيه، على أن هذا الاتجاه كان خطاً بارزاً في الشعر العربي في المشرق، منذ القرن الثاني الهجري(٢)، كما كان في الأدب عموماً(٣).

إن إهمال الأندلسيين للفلسفة جعل بعض الباحثين يصف الشعر الأندلسي بفقره من الناحية الذهنية(٤)، وعدم احتوائه على المعاني الدقيقة، لما للفلسفة والمنطق من أثر في توليد المعاني. وتوسيع الخيال، وحسن توجيهه وترتيبه(٥)، ويُتّهم الأندلسيون بأنهم لم يظهروا "براعة ذات بال في الشعر السياسي أو الجمالي، و لم يوفقوا كثيراً في شعر الحكمة والتهذيب"(٦)، وأنهم لم يقبلوا "على الدراسات النقدية إقبال المشارقة عليها"(٧).

---

(١) انظر، محمد المنتصر الريسوني، الشعر النسوي في الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م؛ وانظر كتاب د. مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٦، من ص١١٩-ص٢٣٦.

(٢) انظر، مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣، ص١٩٣.

(٣) انظر، آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، القاهرة، ط٣، ١٩٥٧، ص٤٥٤.

(٤) انظر، إميليو غارسية غومس، الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه ترجمة عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٦٩، ص٢٥.

(٥) انظر، بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار الكشوف، دار الثقافة، بيروت، ط٦، ١٩٨٦، ص٣٩، ٤٠.

(٦) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٦.

(٧) د. إسماعيل شلبي، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن هذه الأحكام بحاجة إلى إعادة نظر، إذ كيف لنا أن نتجاهل دقة الوصف ونحن نرى شعراء الأندلس يصفون الطبيعة من حولهم بكل دقة وتفصيل؟ يصفون الزهرة فلا يدعون فيها جمالاً إلا وقفوا عنده حتى يخال المستمع الزهرة أمام ناظريه، يستشعرها بشكلها ولونها ورشاقتها ورائحتها وأوراقها، حتى النّدى الذي عليها، بل لا نستبعد أن يخالها تتراقص أمام عينيه إذا ما رسمها له الشاعر ماثلةً بين يدي الريح تعبث بها، وكيف لا نستشعر سعة الخيال، وقد سافر بهم هذا الخيال إلى الآفاق، فأصبحوا يتخيلون البرق ابتسامة والياسمين دراهم؟، كما عدّوا الروض مملكة تتنافس الأزهار والورود فيها لتحتل مرتبة الملك، وعدّ قسم منهم الورد، في حين عدّ القسم الآخر البهار هو الملك[1]، وأطلق كل منهم خياله للريح ليثبت صحة ما يقول، وقد أغنى هذا الاهتمام البالغ، وهذه المنافسة الصريحة الشعر الأندلسي بأبيات كلها دقة في الوصف وسعة في الخيال، واعتبار للمنطق فلم يحدث أن ابتكروا صوراً غير منطقية وبالتالي غير جيملة، بل كانت صورهم تعبق بالخيال الذي لا يبتعد عن المنطق، على الرغم من تباعد نسبي بين المشبه والمشبه به أحياناً، كما سبّينه في خصائص الشعر الأندلسي في الفصل الأخير من هذا البحث إن شاء الله.

د- تشجيع الخلفاء والأمراء:

لاشك أن اهتمام علية القوم ورؤساء المجتمع بفنّ من الفنون وتشجيعهم على الاهتمام به، ومكافأة المبدعين فيه، يعد عاملاً من أهم العوامل التي تساعد على انتشاره وازدهاره ونموه وتطوره، وهذا ما حدث بالفعل في عصر الخلافة (٣١٦-٣٩٩هـ) حيث كانت الطبيعة محط اهتمام الخلفاء والملوك والرؤساء

---

(١) انظر، الحميري، البديع في وصف الربيع، نشره وصححه عن النسخة الوحيدة بمكتبة الإسكوريال، الأستاذ هنري بيريس، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، ١٩٤٠، ص٧٠، ٧١ وما بعدهما.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأمراء والوزراء حتى أصحاب الشرطة..، فقد اهتموا جميعاً بطبيعة الأندلس خاصة الرياض والبساتين والأزهار التي تزينها، واهتموا في الوقت نفسه بالعمران والبنيان حتى أصبحت الأندلس مليئة بالمدن الجميلة المتحضرة، فقد بنى الناصر مدينة الزهراء وجعلها آية من آيات الفن المعماري، وكانت كما وصفها الإدريسي: "مدينة عظيمة مدرجة البنيان، مدينة فوق مدينة، سطح الثلث الأعلى يوازي على الجزء الأوسط وسطح الثلث الأوسط يوازي على الثلث الأسفل، وكل ثلث منها له سور، فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها، والجزء الأوسط بساتين وروضات، والجزء الثالث فيه الديار والجامع"(١).

كما أصبحت مدينة قرطبة في عهد الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) من أعظم مدن العالم بهاء وعظمة، وبلغت الحضارة الأندلسية ذروة مجدها.

كما كانت الأعمال العمرانية في عهد المنصور بن أبي عامر كثيرة أيضاً، وأبرز هذه الأعمال مدينة الزاهرة (سنة ٣٧٠هـ)، فقد أقام فيها القصور والمنتزهات الجميلة، وتوسع مع الأيام في تشييد أبنيتها حتى كملت أحسن كمال، وجاءته في نهاية الجمال، تفاوت بناء، وسعة فناء، واعتدال هواء رقّ أديمه، وصقالة جوّ اعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان(٢).

ومما يدل على اهتمام علية القوم بالطبيعة الحيّة المتجسّدة في الرياض والبساتين، أن المنصور بن أبي عامر كان قد سمى بناته بأسماء الزهور، فنظم الشعراء في وصف الزهور قصائد تبين فصيلة كل نوع منها، وهم في هذا يحكون خصائص بنات المنصور نفسه، قال ابن بسام: "ومن شعر الجزيري ما اندرج له أثناء مدحه

---

(١) الإدريسي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، إعداد وتعليق عبدالقادر محداد -دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠، ص٢١٢.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي ملح فيه مخاطبته للمنصور على ألسنة أسماء كرائمه بزهر رياضه، حيث قال على لسان بهار العامرية :

حدق الحسان تقرّ لي وتغار ... وتضل في وصفي النُّهى وتحار
طلعت على قضبي عيون نمائمي ... مثل العيون تحفها الأشفار
وأخصّ شيءٍ بي إذا شبهته ... در تمنطق سلكه دينار
أهدى له قضب الزمرد ساقه ... وحباه أنفس عطره العطّار
أنا نرجس، حقاً بهرت عقولهم ... ببديع تركيبي فقيل بهار!! (١)

أما المظفر عبدالملك بن أبي عامر بن أبي منصور (توفي ٣٩٩هـ) فقد عبر عن اهتمامه بشعر الزهريات والنوريات حين اقترح على شعرائه في بعض أوقات الربيع من دولته قطعاً نورية في المنثور وهو الخيري وفي الزهر وغير ذلك من أنواع النوار، وكان شديد الإعجاب بذلك، كثير الطلب لأنواعه في مظانه وأحب أن يدخلها قيانه في أغانيهن، واكتتب الناس كثيراً منه في وقته لحسنه وغرابته(٢).

أما المبارزات الشعرية التي كانت تدور بين الشعراء في وصف أنواع من الأزهار والأنوار التي يقترحها بعض ملوك الأندلس في قصورهم المكتظة بها(٣)، فقد كان لها الدور الأكبر في ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس، إذ شجّع الأمراء والوزراء الشعراء فقربوهم وأغرقوهم بالصلات والأموال والجرايات، وأعلوا منازلهم في قصور السلطة والخلافة.

---

(١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٤، ص٣٣، وانظر نفح الطيب، ج٥، ص٢٠٨.

(٢) محمد (أو أحمد) بن محمد بن عذاري المراكشي (توفي نحو ٦٩٥ هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان، و ا. ليفي بروفنسال، مطبعة دار الثقافة بدون تاريخ، ج٣، ص١٨.

(٣) انظر مثلاً، ما حدث بين صاعد وابن العريف في حضرة المنصور بن أبي عامر في كتاب الحميري، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٦٦، ص١٩٤ وما بعدها. وانظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، نشره د. أحمد فريد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٣٨م، ج١٠، ص١٨٥ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء أنفسهم يسهمون في النوريات ويولعون بنظمها، فمن الملوك والأمراء: عبدالملك بن جهور[١]، وعبدا لله بن الملك الناصر[٢]، وأبو القاسم محمد بن عباد[٣]، صاحب إشبيلية وابنه المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية من بعده، ثم المعتمد على ا لله[٤]، والأمير أبو الربيع سليمان بن عبدا لله الموحد [٥]، وغيرهم.

---

(١) عبدالملك بن جهور: ولاه عبدالرحمن الناصر الخزانة عندما عزل عنها قاسماً بن وليد عام ٣٠٠هـ ثم أسند إليه منصب الكتابة، ولم تطل فيه مدته حتى عزله عنها وعاد فردها إليه (٣٠٤هـ)، ولا يمكن أن نستوضح شخصية عبدالملك بن جهور دون دراسة دوره في الحياة السياسية بقرطبة أيام الناصر وعلاقاته بغيره من رجال الدولة، انظر ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص٢٤٣؛ الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس، ص٩؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص٣٦٤، ٣٦٥؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص٤٤٦؛ الضبي، بغية الملتمس رقم (١٠٦١)؛ الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٣.

(٢) عبدا لله بن الملك الناصر: أمير، كان من نجباء أبناء الخلفاء في الأندلس، أبو عبدالرحمن الناصر، كان محباً للعلم والعلماء. له تصانيف منها كتاب "العليل والقتيل" في أخبار بني العباس، بلغ حكم الراضي بن المقتدر والمسكتفي في فضائل بقي بن المخلد وله شعر، اتهمه أبوه بالعمل على خلعه فقتله (٣٣٩هـ)، انظر ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص١٠٥؛ طبقات السبكي، الشافعية الكبرى، ج٢، ص٢٣٠، ابن الأبار، التكملة، ص٤٣٦، ابن سعيد الأندلسي، المغرب من حلى المغرب، ج١، ص١٨٢.

(٣) أبو القاسم محمد بن عباد: مؤسس الدولة العبادية في إشبيلية بالأندلس، كان له اطلاع على الأدب، يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك الوسائل، توفي سنة (٤٣٣)هـ؛ انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١، الطبقة الثالثة والعشرون؛ الضبي، بغية الملتمس، ص١٠٧، المراكشي، البيان المغرب، ج٣، ص١٩٤، ٣١٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٧، في ترجمة حفيده المعتمد بن عباد.

(٤) المعتمد على ا لله: صاحب إشبيلية وقرطبة وما حولهما، وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزماً وضبطاً للأمور، ولد في باجة بالأندلس، كان فصيحاً وكاتباً مترسلاً، بديع التوقيع، له ديوان شعر، ولي إشبيلية بعد وفاة أبيه سنة (٤٦١هـ) وامتلك قرطبة، وكثيراً من المملكة الأندلسية، واتسع سلطانه إلى أن بلغ مدينة مرسية، وأصبح محط الرحال، يقصده العلماء والشعراء والأمراء، وما اجتمع في باب أحدٍ من ملوك عصره ما كان يجتمع في بابه من أعيان الأدب. انظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٧-٣٥، ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص١١-٢٢، المقري، نفح الطيب، ج١، ص٩٩، ابن سعيد، البيان المغرب، ج٣، ص٢٤٤، ص٢٤٧.

(٥) الأمير أبو الربيع سليمان بن عبدا لله بن عبدالمؤمن بن علي: من أمراء بني عبدالمؤمن، كان فصيحاً بالعربية والبربرية، له شعر في "ديوان-خ" صغير بخزانة الرباط، ج٢، ص١٩، جمعه بأمره كاتبه محمد بن عبدالحق العشاني، وسماه "نظم العقود ورقم الخلل والبرود"، وطبع مؤخراً في تطوان، وصنف "مختصر الأغاني-خ" الجزء الأول منه، في القرويين بفاس، ويعد في أدبه من مفاخر بني عبدالمؤمن، وكان يشير على العلماء بتأليف بعض الكتب ومنهم ابن بشكوال: صنف كتاباً في "شيوخ ابن وهب ومناقبه-خ" بطلب منه، وابن رشد: صنف "شرح القبة لابن سينا-خ" في الطب، باقتراحه النظر المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٧٤٠، وفيه نماذج من شعره، المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٢٩٩، الزركلي، الأعلام، ج٣، ص١٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ- الرخاء الاقتصادي :

كانت كل ملامح الحضارة بالأندلس تعكس ما تمتعت به تلك البلاد من الرخاء والرفاهية، ولا عجب، فقد ملأت الخيرات ظاهر أرضها وباطنها، أما الذي عليها فكثير من الخيرات والبساتين والرياض المليئة بالأشجار التي تحمل أطيب الثمار، ومما يلفت النظر أن فواكه الأندلس "تتصل طول الزمان، فلا تكاد تعدم، لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكوره، كما أن الثغر وجهاته والجبال التي يخصها برد الهواء وكثافة الجو تستأخر بما فيها من ذلك، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان، فمادة الخيرات فيها متصلة كل أوان"(١).

أما الذي في باطنها، فكثير من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والكبريت الأحمر والأصفر، والكثير من الأحجار الكريمة المتلألئة مثل حجر اللازورد الجيد، ومعدن البلور، وحجر النحادي، والياقوت الأحمر وحجراليهودي والشاذية وحجر المرقيشينا الذهبية(٢)، وفيها الكثير من "الشّب والتوتيا والزاج والطفل"(٣).

كما أن في بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيران السبعة وهي: الرصاص من زحل، والقصدير الأبيض من المشتري، والحديد من قسم المريخ والذهب من قسم الشمس، والنحاس من الزهرة، والزئبق من عطارد، والفضة من القمر"(٤).

وإذا كان هناك مؤشر أكيد على مدى الرخاء والرفاهية التي نعمت بها بلاد الأندلس فهو بلا شك "خراج الأندلس الذي كان يؤدى إلى ملوك بني أمية قديماً،

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٤٠.

(٢) انظر، المصدر السابق، ص١٤١، ١٤٢.

(٣) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٢.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثلاثمائة ألف دينار أندلسية كل سنة قوانين، وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم، فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار، وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤن أهليهم مائة ألف دينار، ويدخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار" (١).

ومن يتطلع إلى ما تحويه كل مدينة من مدنها، وكل قرية من قراها، من خيرات ومصادر اقتصادية، يوقن أن الأندلسيين، كانوا أناساً ذوي حظوة بما أنعم الله عليهم من نعم.

وغرناطة (٢) مثلاً، " بلد ليس تعرى في جنباته من الكروم والجنات جهة، إلا ما لا عبرة به مقدار غلوة: أما ما حازه السفل من جوفيه، فهي عظيمة الخطر، متناهية القيم، يضيق جده من عدا أهل الملك، عن الوفاء بأثمانها، منها ما يُغِلّ في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب، قد غُصّت الدكاكين بالخُضر الناعمة والفواكه الطيبة والأثمار المدخرة، يختص منها بمستخلص السلطان، والمرور طوقاً على ترائب بلده ما يناهز مئة، منها الجنة المعروفة بفدان الميسة، والجنة المعروفة بفدان عصام، والجنة المعروفة بالمعروي، .... ولأهل الحضرة بهذه الجنات كلف، ولذوي البطالة فوق نهره أريك من دمث الرمل، وحجال من ملتف الدوح..."(٣).

---

(١) المقري، المصدر السابق، ج١، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) غرناطة: دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس، ولم تخل من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض من نهر شنتيل لكفاها. انظر المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٤٤-١٤٦، انظر الخريطة المرفقة طياً ص ١٨٢.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص١١٥-١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما مدينة بسطة [١]، ففيها "تجارات، وفعلة بضروب الصناعات، وشجر التوت فيها كثير، وعلى قدر ذلك غلة الحرير، والزيتون وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة"[٢]. وأما جيان[٣] فهي "كثيرة الخصب رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل..."[٤]، وفي مدينة قبرة[٥] ذات المياه السائحة من عيون شتى، جبل ينبت أجناس الأفاويه والعقاقير[٦]. وأما مدينة شنترة[٧]، "أكثر البلاد تفاحاً، ويجل عندهم حتى يبلغ أربعة أشبار، وكذلك الكمثرى... ويخرج من شنترة عنبر جيد"[٨].

---

(١) بسطة: مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش، وهي متوسطة المقدار، حسنة الموضع، عامرة، آهلة حصينة، ذات أسواق وأرضها غذاة كثيرة الريع، وبها من طرز الوطاء البسطي الذي لا يعلم له نظير، انظر، صفة جزيرة الأندلس، ص٤٤، ٤٥، وانظر موقعها على الخريطة المرفقة طياً في ص ١٨٢.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص١١٣.

(٣) جيان: مدينة بالأندلس- لها زائد على ثلاثة آلاف قرية، كلها يربى فيها دود الحرير، وبها جنات وبساتين ومزارع وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب، وعلى بعد ميل منها نهر بلون وهو نهر كبير عليه أرحاء كثيرة جداً، وبها مسجد جامع وعلماء جلة. انظر صفة جزيرة الأندلس، ص٧٠، وانظر الخريطة ص١٨٢.

(٤) الحميري، الروض المعطار، ص١٨٣.

(٥) قبرة: مدينة بالأندلس، ذات مياه سائحة من عيون شتى، منها العين التي عليها، والنهر الذي هناك مخرجه من ناحية جبل شيبة، عليه أرحاء كثيرة، وهذا الجبل شامخ ينبت ضروب النواوير وأصناف الأزاهير، وتدوم غضارة نواره، فتتصل بهجة نبته باعتدال هوائه وكثرة أندائه، فيقطف النرجس فيه غضاً في زمن الورد. انظر صفة جزيرة الأندلس، ص١٤٩، وانظر الخريطة.

(٦) الحميري، الروض المعطار، ص٣٤٩.

(٧) شنترة: من مدائن الأشبونة بالاندلس على مقربة من البحر، يغشاها ضباب دائم لا ينقطع، وهي صحيحة الهوى، تطول أعمار أهلها، وهي أكثر البلاد تفاحاً، ويجل عندهم حتى يبلغ أربعة أشبار، ويجبل شنترة ينبت البنفسج بطبعه، ويخرج من شنترة عنبر جيد، ويخرج أيضاً في شذونه من بلاد الأندلس. انظر صفة جزيرة الأندلس ص٥٩، وانظر الخريطة.

(٨) الحميري، الروض المعطار، ص٣٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد خُصت بلنسية [١] بالنسيج البلنسي الذي يُسفّر لأقطار المغرب"[٢]. وأما مدينة طليطلة [٣]، ففيها "الغلال تبقى في مطاميرها سبعين سنة لا تتغير..."، وهكذا في سائر الجهات الأندلسية.

إن هذا الرخاء الاقتصادي الذي نعم به الأندلسيون كان له أثرٌ واضح في ازدهار شعر الطبيعة وتطوره، فقد أصبحوا قادرين على مواجهة حياتهم متفائلين مبتسمين، و لم يشغلوا تفكيرهم في الجري وراء لقمة العيش وكيفية الحصول عليها، فالرخاء الذي نعموا به ساعدهم على تجاوز مثل هذه الهموم، وصرفهم إلى التأمل والتفكر بالطبيعة الجميلة من حولهم، وتفحص جزئيات الجمال فيها والوقوف على مجاليها (الأرض والفضاء) ليصفوها بكل دقة وتفصيل.

---

(١) بلنسية: في شرق الأندلس، مدينة سهلية، وقاعدة من قواعد الأندلس في مستوى من الأرض، عامرة القطر، كثيرة التجارات، بها أسواق وحط وإقلاع، وهي على نهر جارٍ ينتفع به، ويسقي المزارع، ولها عليه بساتين وجنات، وعمارات متصلة، وسورها مبني بالحجر والطوابي، ولها أربعة أبواب، وهي من أمصار الأندلس الموصوفة، وحواضرها المقدمة، ولأهلها حسن زيّ، وكرم طباع، وهي كثيرة الثمار الفواكه. انظر صفة جزيرة الأندلس. ص٤٧، وانظر الخريطة ص ١٨٢.

(٢) ابن حزم وابن سعيد والشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص٥٩.

(٣) طليطلة: مدينة بالأندلس، وهي مركز لجميع بلاد الأندلس، لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل، وهي مدينة عظيمة القطر، كثيرة البشر، وكانت دار الملك في الأندلس حين دخلها طارق، وهي حصينة لها أسوار حسنة، وقصبة حصينة، وهي أزلية من بناء العمالة، وهي على ضفة النهر الكبير، بها بساتين محدقة، وأنهار مخترقة، ودواليب دائرة، وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثل، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، وقلاع منيعة، وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المعروف بالشارات. انظر صفة جزيرة الأندلس. ص١٣٠، ١٣١، وانظر الخريطة ١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الطبيعة الصامتة

أولا : مجال الفضـــاء

ثانيا : مجـــال الأرض

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً : مجال الفضاء

وقف الشاعر الأندلسي على أرض بلاده يمتّع نظره بروعة طبيعتها، لكنه في الوقت ذاته لم يفته أبداً أن يقلّب السماء بعينيه لتأخذا نصيبهما من متعة مشاهدة انبلاج الصبح، أو إشراق الشمس، أو وميض البرق، أو تلألؤ البدر، أو لمعان النجم في كبد السماء.

لقد استرعت مواضع الجمال هذه انتباه شعراء عصر الخلافة فقالوا مقطوعات شعرية متعددة، يصفون بها السماء، بما فيها من مباهج ومفاتن تجتذب النظر، ومن ذلك قول يحيى بن هذيل[١] في الهلال :

يحكي من الحاجب المقرون شقرته ... فانظر إليه فما أخطا ولا كادا

لو التقى لحكى حجلاً ولو قطعوا ... من دارة الحجل ما أربى ولا زادا[٢]

وقول سعيد بن عمرون[٣] الذي يتخيل الهلال بدراً طُوي طرفاه فكأنه الزورق في عرض البحر إذ يقول :

والبدر في جو السماء قد انطوى ... طرفاه حتى عاد مثل الزورق

فتراه من تحت المحاق كأنما ... غرق الجميع وبعضه لم يغرق [٤]

---

(١) يحيى بن هذيل: هو يحيى بن هذيل التميمي القرطبي ولد سنة ٣٠٠هـ، دفعه حبه للشهرة للاهتمام بالشعر، عندما عرف أن الشعر هو السبب في شهرة ابن عبدربه الذي احتشد في جنازته عدد كبير من الناس، فشابر وجد واجتهد حتى أصبح شاعر عصره دون منازع توفي سنة ٣٨٩هـ أو كما قال الحميري سنة ٣٨٦هـ، انظر الجذوة ص٣٥٨، وبغية الملتمس رقم (١٩٤٥) وابن الفرضي ج٢، ص١٩٣، نكت الهميان ص٣٠٧، وله شعر في اليتيمة ج٢، ص١٤.

(٢) أبو عبدا لله محمد بن الكتاني، التشبيهات في أشعار أهل الأندلس، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م، ص٢٠.

(٣) سعيد بن عمرون: كنيته أبو عثمان وقال الحميدي: لقد اختلف في نسبه فقيل سعيد بن محمد (وهكذا ورد اسمه في النفح، ج٥ ص١٣٠، واليتيمة ج٢، ص٤٥)، وقيل سعيد بن مروان ترجم الحميري وابن سعيد له تحت اسم "سعيد بن عثمان بن مروان" كان من نبهاء المروانيين، أدرك الدولة العامرية وله مدائح في المنصور ابن أبي عامر، انظر الجذوة ص٢١٤، والمغرب ج١، ص١٩٢.

(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٥٤، انظر المقري، نفح الطيب، ج٥، ص١٣٠. ، وانظر الكتاني ص ١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا جعفر بن عثمان المصحفي يصف الثريا ويتمنى أن تكون منزلته في حياته كمنزلة الثريا في عرض السماء فيقول :

سألت نجوم الليل هل ينقضي الدجى ... فخطت جواباً بالثريا كخط "لا"

وما عن جوىً سامرتها غير أنني ... أنافسها المجرى إلى رتب العلا[١]

وقال فيها أيضاً :

صف الثريا بمثلها صفةً ... فقلت : قسط فصوله العنبر

سماؤها في اعتدال خضرتها ... زمرّدٌ والنجوم كالجوهر[٢]

وهذا طاهر بن محمد الملقب بالمهند، يذكر الليل والسماء والنجوم والكواكب ويسميها بأسماء حيث يقول:

وليل بت أكلؤه بهيمٍ ... كأن على مفارقه غرابا

كأن سماءه بحر خضمٌّ ... كساه الموج ملتطماً حبابا

كأن نجومه الزهر الهوادي ... وجوه أخضلت تبغي الثوابا

كأن المستسرة في ذراه ... كمائن غارة رقبت نهابا

كأن النجم معترضاً وشاةٌ ... تسارق فيه لحظاً مسترابا

كأن كواكب الجوزاء شرب ... تعاطيهم ولائدهم شرابا

كأن الفرقدين ذوا عتابٍ ... أطالا طول ليلهما العتابا

كأن المشتري لما تعالى ... طليعة عسكرٍ خنسوا ارتقابا

كأن الأحمر المريخ مغضٍ ... على حنق يشب به شهابا

كأن بقية القمر المولّيٌ ... كئيب مدنفٌ يشكو اجتنابا[٣]

---

(١) جعفر بن عثمان المصحفي: أبو الحسن المصحفي بربري الأصل، تقلد المناصب في أيام الحكم المستنصر، ثم أصبح حاجباً لابنه هشام، فتغلب عليه منافسه ابن أبي عامر، ورماه في السجن، إلى أن مات فيه سنة (٣٧٢)هـ، وله شعر كثير مدون انظر الحلة السيراء، ج٢، ص٢٥٧، والجذوة ص١٧٠.

(٢) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص٢٥٩.

(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف يوسف بن هارون الرمادي [١] السماء ونجومها وصفاً يشف عما تمتع به الإنسان الأندلسي من رفاهية ورخاء حتى غدت السماء في ناظريه بساط زمرد عليه دنانير مفروشة جاهزة للصرف إذ يقول :

وآنسني فيك النجوم برعيها ... فدرّيها حلي وبدر الدجى إلفي

كأن سماء الأرض نِطْعُ زُمردٍ ... وقد فُرشت فيها الدنانير للصرفِ[٢]

ومن قول سعيد بن عمرون في النجوم أبيات يشبه فيها السماء بروضة نرجسٍ تفتر في روضٍ من النمام حيث يقول :

وكأنها في الحسن روضة نرجسٍ ... تفتر في روضٍ من النمام

وكأنما أعلى البروج هياكل ... محفوفة بمصابح الإظلام

وكأنما صغرى النجوم يواقتٌ ... يجرى بهن عباب بحرٍ طام[٣]

ولأحمد بن دراج القسطلي[٤] أبيات يصف فيها النجوم في السماء، فهي عنده كواعب حور يتجولن في حديقة خضراء غناء، أما دوران النجوم في السماء فكأنها كؤوس من البلور يدور بها الساقي على الندماء، أما زهرة المجرة فيراها القسطلي في خياله كأنها السيف الذي يلمع في ظلام دامس إذ يقول :

---

(١) يوسف بن هارون الرمادي: في تلقيبه بالرمادي رأيان أحدهما أنه كان يلقب بالإسبانية بأبي جنيش كما يقول ابن بشكوال فعرب هذا اللقب إلى الرمادي، والثاني أن هناك قرية تسمى رمادة علّقها ابن سعيد من قرى شلب رجح الحميدي أن يكون أحد آبائه منها، عاش أكثر أيامه في قرطبة، ذكر ابن حيان أنه توفي سنة (٤٠٣ هـ)، وهو مؤرخ ثقة عاصر الرمادي، اكتسب صناعة الشعر عن شيخه أبي بكر بن هذيل الكفيف، عالم أدباء الأندلس في زمانه، انظر الجذوة، ص٣٤٦، والصلة ص٦٣٧، واليتيمة ج٢، ص١٢.

(٢) شعر الرمادي يوسف بن هارون، جمعه وقدمه ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٩١؛ الكتاني، التشبيهات، ص٢٢، ٢٣.

(٣) الكتاني، المرجع السابق، ص٢٤.

(٤) ابن دراج القسطلي: شاعر الأندلس أيام العامريين، أدرك الفتنة وصُلي بنارها، أخذ ينتقل مادحاً حتى استقر به الطواف في سرقسطة، وفيها توفي سنة (٤٢١)هـ، نشر ديوانه الدكتور محمود علي مكي وقدم له بمقدمة مفيدة جامعة، انظر الذخيرة، ج١، ص٤٣، والجذوة ص١٠٢، والصلة ص٤٤، والمغرب ج٢، ص٦٠ واليتيمة ج١، ص٤٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حوّمتْ زُهر النجوم كأنهـا كواعبُ في خضر الحدائق حورُ
ودارت نجوم القُطب حتى كأنها كؤوس مهاً وافى بهـنَّ مديـر[١]

وشاعر الخلافة الأموية في الأندلس لم يفته أن يعبر عما أثارتـه الريـح في نفسـه التي تسبح بين السماء والأرض بمقطوعات تدل على رهافة الحس وشفافية المشاعر، ومن ذلك قول الحسن بن حسان:[٢]

فجبت بساط الأرض لم أك سامعاً به عند شدو الجن هتفاً إلى هتـف
كـأن حنـين الريـح في جنباتـه حنين المثانـي والمثالث في العزف[٣]

وتتجسد الريح عند ابن هذيل في صورة النشوان الذي يترنح من كثرة الشراب، وكأنها إذا اقتربت من الأرض عاشق خضع ذلاً للحبيب، حيث عبّر عن ذلك بقوله :

ودنت في هبوبها مشية النـش وان حيران بالمدام الشمـول
لصقت بالثرى كما يخضع العـا شق ذلاً إلى الحبيب المطـول
ولقد خلت أن بينهمـا عش قاً فصـارا للضـم والتقبيـل
واختفت عن فواطن الخلق حتى شبهوهـا ضآلـةً بنحـول [٤]

وله فيها صورة أخرى حيث شبّهها وهي تنسم على الروض جيئة ورواحاً بمرسال غرام يحاول جاهداً إعادة الوصل بين عاشقين تخاصما :

للصبا منةٌ على الروض هادتـه بطيب الحبيب أي ذمـام
وجرت بينه رواحاً ليرتا ح ويبقى على رضىً والتئام
كالشفيق الذي يؤلف ما بيـن حبيبين بعد قطع الكـلام [٥]

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق د. محمود علي مكي، دمشق، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٦١، ص٢٥٢.
(٢) الحسن بن حسان: كنيته أبو علي ويعرف بالسناط، كان شاعراً مقدماً مكثراً في أيام عبدالرحمن الناصر.
انظر جذوة المقتبس ص١٧٩، واليتيمة ج٢، ص٨٦.
(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٢٧.
(٤) الكتاني، المصدر السابق، ص٢٨.
(٥) نفسه، ص٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أكثر المشاهد روعة وجمالاً مشهد انبلاج الصبح فهو مشهد طالما استوقف الكثير من الشعراء على مر الأزمنة والعصور، يقول الرمادي في هذا المشهد البديع :

وكم ليلة قد جمعتنا وأدبرت ... تنوح على تفريقنا وتلهف

إلى أن بدا وجه الصباح كأنما ... تحمل لقمان[١] وأقبل يوسف[٢]

أما الشاعر احمد بن عبدربه،[٣] فيصف انبلاج الصبح كأنه غرة تبدو على وجه الفرس حيث يقول:

حتى إذا ما الليل قو ... وض راحلاً عند الغلسْ

وبدا الصباح كغرةٍ ... تبدو على وجه فرسْ[٤]

ويتخيل يحيى بن هذيل أن ريح الصبا حين تهب على قضبان الرياض كأنها تتعانق، وكأن لها خدوداً تلتقي مع بعضها البعض بفعل الريح فإذا تجمعت حبات الندى عليها تتمايل أعناقها وقدودها فيقول :

هبت لنا ريح الصبا فتعانقتْ ... فذكرتُ جيدك في العناق وجيدي

وإذا تألف في أعاليها الندى ... مالت بأعناقٍ ولطف قدود

وإذا ألتقت بالريح لم تبصر بها ... إلا خدوداً تلتقي بخدود

فكأن عذرة[٥] بينها تحكي لنا ... صفة الخضوع وحالة المعمود[٦]

---

(١) ذكر لقمان لطول العمر والسواد فشبه بذلك الليل، وذكر يوسف لجماله وقرن به طلوع الصبح، انظر التشبيهات، ص٢٥.

(٢) شعر الرمادي، ص٨٨؛ الكتاني، التشبيهات، ص٢٥.

(٣) أحمد بن عبدربه: لم يكن في عصره من شأى شاوه في الشعر، ولكن المشارقة اهتموا بكتابه "العقد" أكثر من اهتمامهم بشعره، أغتنى بعد فقر وساد بعد خمول، كان متصاوناً متديناً آخذاً بحظه من المتع المباحة، وكان حاد الطبع، سريعاً إلى الهجاء، انظر الجذوة ص٩٤، ووفيات الأعيان رقم (٤٥)، وبغية الوعاة ص١٦١،ج١

(٤) ديوان أحمد بن عبدربه، جمعه وحققه د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٧، ص١١٣.

(٥) عذرة: يعني قبيلة عذرة المنسوب إليها الحب العذري.

(٦) المعمود : الذي عمده الحب أي أنحله وأمرضه. انظر لسان العرب، مادة عمد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في تاجها طلّ وفي أعناقها ... منه نظام قلائد وعقود
فترشّني منه الصبا فكأنه ... من ماء ورد ليس للتصعيد
فكأنما فيها لطيمة[١] عاطرٍ ... فتثير ناراً في مجامر عود
شغلت بها الأنداء حتى خلتها ... يسطن أندية بها للصيد[٢]
وتجلببت زهراً فخلت بأنها ... فوقي نثائر نادف مجهود[٣]

ويتفاعل الشاعر أحمد بن فرج الجياني[٤] مع الريح ويشعر بها تمتزج بنفسه كما يمتزج الماء بالخمر الزلال، فتروي الشوق المتأجج، كالذي وجد ظلاً بعد عناء فاستظل به:

وربت ريحٍ امتزجت بنفسي ... مزاج الماء بالراح الزلال
وجدت لها وبي للشوق ما بي ... كما وجد المهجّر بالظلال
وبات ثرى العقيق ينمّ عنها ... إلي بمثل أنفاس الغوالي
فقل في نشوةٍ من نفح ريحٍ ... سقيت بها الشمول من الشمال
سرى في نار أشواقي سراها ... إلى جدب الثرى بحيا العزالي[٥]

ومن المشاهد التي استثارت شعراء الأندلس في عصر الخلافة مشهد البرق والرعد، فقد انعكس هذا المشهد بما فيه من الحركة السريعة والمتقطعة على مقطوعاتهم فامتلأت صورها الشعرية بالحركة والحيوية، يقول يوسف بن هارون:

---

(١) اللطيمة: العطر، عنبرة لطت بالمسك. انظر لسان العرب مادة لطم.

(٢) الصيد: جمع صيد وهو النعاج والأصل فيه أن عنقه مائلة تيهاً ويوصف بذلك الملوك والسادة. انظر لسان العرب مادة صيد.

(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٤٤-٤٥.

(٤) أحمد بن فرج الجياني: هو أشهر أبناء محمد بن فرج، وأبعدهم صيتاً في الشعر والتأليف وقد عرف بكتاب "الحدائق" الذي ألفه للحكم المستنصر في أزهار الأندلسيين معارضاً به كتاب "الزهرة" لابن داود، هناك اختلاف في تاريخ وفاته بين حوالي ٣٦٠ و٣٦٦. انظر الجذوة، ص٩٧، المغرب ج٢، ص٥٦، واليتيمة ج٢، ص١٦.

(٥) الكتاني، التشبيهات، ص٢٩، ٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأن اندفاع البرق بيـــن رعـــوده تطاير نارٍ لاصطكـــاك جنـــادلِ
أو اسد الشرى في مذهبات سلاسلٍ إذا هي دارت نهنهت في السلاسل
كأن بنات الزنـــج فيـــها مشيـــرة إلى الأرض عن أكمام حمر الغلائل[1]

أما أحمد بن فرج الجياني فيقول :

وليلتنـــا بالغـــور أومـــض بـــارقٌ حثيث الجناح مثل ما نبض العرقُ
سرى مثلما يسري الهوى في جوانحي بثنيتن من أحوالـه النـــار والخفـقُ
ولاح كأمثـــال البـــرى خطمـــت به من الغيم في ليل السرى أينق ورقُ
وباتت دياجي الليل منـــه كأنهـــا أحابيشُ في أيديهمُ الأسلُ الـــزرقُ[2]

وهذا هو طاهر بن محمد[3] يحتار كيف يصف وميض البرق، فلديه الكثير من الصور التي تتوارد إلى ذهنه لمجرد رؤيته البرق، فهل البرق الذي أمامه قلـوب عشـاق تخفق أم عروق تنبض أم ماذا؟ إنه يقول في ذلك:

أقلوب العشـــاق ذاك الوميـــض أم عروقٌ يجول فيها نُبـــوضُ
أم جنود دكنّ السرابيل سلـــت للقاء فيها سيوفٌ بيـــــضُ
نشأت مثلما جرى الماء من شت تى فغصّت-لما تلاقى-الأروضُ
وأضاءت والرعـد فيها كما أجـ لب موج فلاح فيه وميـــض[4]

ويصف يحيى بن هذيل البرق بصورة طريفة يشبه فيها لمعان البرق في السـماء بضحكة زنجي يكشف عن أسنانه البيضاء، فيقول :

ولقد شفـــني فأسهـــر طـــرفي لـــمع بـــرق يـرف في لمعانه

---

(١) شعر الرمادي، يوسف بن هارون، ص١٠٥، الكتاني، التشبيهات، ص٣٠.

(٢) الكتاني، المصدر السابق، ص٣١.

(٣) طاهر بن محمد : يعرف بالمهند البغدادي ويكنى أبا العباس وصل إلى الأندلس من بغدادي في جمادي الأول سنة ٣٤٠ وعمره حوالي الخامسة والعشرين، مدح الخلفاء، وكسب المال بمدائحه، وفي آخر عمره تزهد واعتزل حياة المدينة. أنظر الجذوة : ٢٢٩، والبغية رقم : ٨٥٩، وتاريخ علماء الأندلس ١:٢٤٥.

(٤) الكتاني، المصدر السابق، ص٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شمتـــه والظـــلام يفترّ عنه كافترار الزنجـي عن أسنانه(١)

أما صورة البرق في الأبيات التالية فيغلب عليها عنصر الحركة والحيوية، فمشهد البرق أصبح مصدر إلهام للشاعر، حيث أوحى له بلوحة جميلة رسمها بكلماته قائلاً:

كلّفتها طـول السهـاد فراقبـت برقا يلوح وتـارة يتستـر
وكأن ليلـي فـارس في كفـه رمح يقلبه، عليـه مغفـر
تبدو له شعـب، تطيـر أمامهـا شعل، تطير لها القلوب وتذعر
ويروغ عن قبض السحاب وميضه فكأنه فـرس معـار أشقـر(٢)

السحب بشائر الخير ... والمطر هو الخير المنتظر، وعيون الأندلسي تتلألأ فرحة بقدوم السحب، فتجود قرائح الشعراء بصور يعبرون فيها عن مشاعرهم إذا ما رأوا السحب المحملة بالمطر، كأنها دلاء مملوءة تفرغها على الأرض فتحيلها جنة خضراء، يقول الشاعر يوسف بن هارون:

ومشتمةٍ(٣) للأرض حتى كأنها تقصُّ محولاً في البطاح المواحـل
فجنت كما جنّ الظلام وأفرغت علينا كإفراغ الدلاء الحوافـل
أطلت غديراً في الهـواء كأنـه هو البحر يجري بالسفين الحوامل
فلو أنها صبت جميعـاً لغرقـت ولكنما أرواحهـا كالمناخـل
كـأن غديـر السماء بين حبابه وبين شخوص قمن مثل الأنامـل
مساميـر درّ تعتلـي برؤوسهـا مراراً، وطوراً تعتلي بالأسافـل(٤)

وله أيضاً تشبيه طريف في جريان السحب في السماء كأنها السفن تسوقها الرياح:

وجاريةٍ جري السفين تسوقها الـ رياح ولكن في الهـواء غديرها

---

(١) الثعالبي، اليتيمة، ج٢، ص١٤، الكتاني، التشبيهات، ص٣٢.
(٢) الكتاني، المصدر السابق، ص٣٢، ٣٣.
(٣) المشتمة : التي تكاد تلامس الأرض، أنظر لسان العرب، مادة شمّ.
(٤) شعر الرمادي، يوسف بن هارون، ص٩٩، الكتاني، التشبيهات، ص٣٦ - ٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأيت بأحشـــاء البحـــور سفينهـا وتلك سفين في حشاهـا بحورها[١]

ويبدو أن منظر جريان السحب قـد أثـار في نفس الرمـادي صـوراً ومعـاني كثيرة فيقول :

وساريةٍ كالليل لكن نجومهـــــا على إثر ما يطلعـن فيهـــا غوائـر
فلما استدارت في الهواء كأنهـــا عقاب، متى ما يخفق البرق، كاسر
وشمت دوانيهـا الربـى بأنوفهـا كما شمّ أكفال العـذارى الضفائر
هوت مثلما تهوي العقاب كأنمـا تخاف فوات المحل فهـي تبـــادر
كأن انتثار القطر فيه ضوابـــط تدار على الغـدران منـه دوائر[٢]

وها هي ذي السحب تغدو ركباً من قوافل الإبل، وأصوات الحجيـج تصبـح رعوداً في ذهن الشاعر محمد بن مطرف بن شخيص[٣] فيقول :

فكأن السحاب في الأفق ركـبٌ زمَّ أحداجه وصـفٌّ قطـارهْ
يذكر الغيث والرعود حجيجـاً عجَّ أصواته وبـــثٌ جمـارهْ[٤]

أما أحمد بن فرج الجياني، فيخاطب الغيـم، ويطلـب منـه أن يـروي الـروض المتعطّش لرشفة منه تلبسه من الربيع ثوباً مرصعاً بالأزهار التي تعلوها قطرات النـدى كأنها أعشار مصحف، فيقول :

ياغيـــم أكبر حاجتـــــي سقي الحمى إن كنـت تُسعفْ
رشّفْ صـــداه فطالمـــــا روّى الصـــدى فيـه الترشفْ
واخلع عليه من الربيـــــــ ع ووشيه ثوبـــاً مصنـــفْ
حتـــى تـــرى أنهـــــاءه وكأنها أعشـــار مصحـــفْ
وتخال مرفـض النـــــدى في روضه شكـلاً وأحـــرفْ[٥]

---

(١) شعر الرمادي، يوسف بن هارون، ص٧٢، الكتاني، التشبيهات، ص٣٨.

(٢) شعر الرمادي، يوسف بن هارون، ص٧١، ٧٢؛ الكتاني، التشبيهات، ص٣٨، ٣٩.

(٣) محمد بن شخيص: هو محمد بن مطرف بن شخيص، أبو عبد الله ينتمي إلى بيت رفيع بقرطبة، وقد كان من الشعراء البارزين أيام الحكم المستنظر، يقوم في المناسبات العيدية والاستقبالية بقصائد المدح، شهد عصر المنصور بن أبي عامر، ثم عهد ابنه المظفر، توفي قبل المئة الرابعة للهجرة. انظر الجذوة ص ٨٤، وبغية الملتمس رقم (٧٦).

(٤) الكتاني، المصدر السابق، ص ٣٨.

(٥) نفسه ، ص٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتجسد السحابة في خيال ابن هذيل امرأة مبتسمة تزفها ريح الصبا فتتهادى كما الحورية بين وصائفها:

وحنّانةٍ في الجوّ كدراء أقبلت ... تبسّم عن ومضٍ من البرق خاطف
تزف بها ريح الصبا، غير أنها ... تهادى تهادي الخود بين الوصائف[1]

الشاعر محمد بن هانيء[2] يذهب إلى مثل ما ذهب إليه ابن هذيل، فقد جعل السحاب الممتليء بالماء غانية تمشي متمايلة، فلما تمايل السحاب في سبحه في الهواء عدل عن البيد معرضاً عنها وملأ الرياض بسجل مملوء بالماء، حيث يقول :

ولما تهادى نكب البيد معرضاً ... وأتاق سجْلاً للريـاض فطفّحـا

ويتابع وصفه للسحاب فيقول :

تدلّى فخلت الدُّكن مـن عذباتـه ... كواسـر فتخـاً في خفافيه جنّحا
لتغـد غواديه بمنعـرج اللـوى ... موائح رقراقٍ مـن الـري متّحـا
سقته فمجت صائك المسك حفلاً ... تسح وأذرت لؤلؤ النظم نضّحـا
فلم تبق في تلك الأجارع أجرعاً ... ولم تبق من تلك الأباطح أبطحـا[3]

ولابن هانيء قصيدة يصف في مطلعها قطرات المطر والسحاب، والريح والغمائم والربيع مجتمعة لترسم الأبيات في أذهاننا لوحة رائعة مليئة بالحيوية حيث يقول :

ألؤلؤ دمع هذا الغيـث أم نقـط ... ما كان أحسنه لو كان يلتقـط

---

(١) الكتاني، المرجع السابق، ص٣٧، ٣٨.

(٢) محمد بن هانيء الأندلسي: محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون الأندلسي، وهو أشعر شعراء المغرب على الإطلاق من المتقدمين والمتأخرين، ولأجل ذلك يقال له متنبي المغرب، ولد بقرية سكون من قرى مدينة اشبيلية في سنة (٣٢٠) هـ وفي سنة (٣٢٦)هـ، اتصل بصاحب اشبيلية فأعزّه وأكرمه ولكنه فارقه بسبب فتنة وقعت بينهما، اتهمه الناس بمذهب الفلاسفة حتى همّوا بقتله، انظر الإحاطة ج٢، ص٢١٢، وانظر وفيات الأعيان ج٢، ص٥، وقد اعتبرته من شعراء عصر الخلافة لأنه كتب معظم أشعاره في الأندلس حتى قصائده في مدح المعز فقد كانت جاهزة قبل وصوله عنده.

(٣) د. زاهد علي، تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء الأندلسي المغربي، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٣٥٢هـ، ١٩٣٢م، ص١٦٣-١٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين السحاب وبين الريح ملحمة … قعاقع وظبـــىً في الجـو تخترط
كأنه ساخط يرضى على عجـل … فما يدوم رضىً منه ولا سخـط
أهدى الربيع إلينا روضةً أنفـــاً … كما تنفس عن كافوره السفـط
غمائم في نواحي الجو عاكفـــة … جعد تحدر منهـا وابـل سبــط
كأن تهتانها في كــــل ناحيـةٍ … مد من البحر يعلـــو ثـم ينهبط[1]

ثانياً: مجال الأرض

أ- وصف الرياض والربيع :

كل من يقف أمام روض جميـل تدهشه روعـة جمالـه، وتتسـرب إلى شـفتيه كلمات بسيطة لكنها تعبر عن شعوره بالمتعة أمام روعة الخالق، وإبداعه، هذه حـال الأندلسيين إذا وقفوا أمام الرياض الرائعة الجمال الموزعة بين أرجـاء بلادهـم، فمـاذا ستكون حال الشعراء منهم؟ لابد أنهـم يصبحـون رسامين محـترفين يصوغـون مـن الكلمات أزهاراً و وروداً، وألواناً متنوعة تجذب الأنظار فتصبـح المقطوعـة الشـعرية لوحة نضرة تخطف الأبصار، والشاعر في وصفه للريـاض أكثر احتياجـاً إلى التنويـع والتلوين، ففي الطبيعة اخضرارٌ واحمرارٌ، وفيها أوراق خضرة نضرة وأغصـان غضـة مياسة، وفيها نور وأزاهير، وشذى وعبير، وفيها حفيـف الغصـون وتغريـد الطيـور، وفيها مياه صافية فضية عند الضحى عسجدية عند الأصيل، لقد تمثل شـاعر الطبيعـة كل هذه المعاني، وكـانت أدواتـه في رسمهـا التشـبيه العـذب، والاسـتعارة الجميلـة، والصنعة الخفيفة حيناً، والمزدحمة حيناً آخر، واللفظ المؤثر والجرس الرقيق، والموسيقى المنسابة في رفقٍ وتؤدة.

---

(١) د. زاهد علي، المرجع السابق، ص٣٩٠-٣٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن جميل القول في وصف الرياض قول الشاعر عبيد الله بن إدريس[١] :

قد حلّيت بأزاهر من صوغها ... نور حكين لآلئاً بنحور

وأرتك أعين خردٍ مرموقةٍ ... خجلت وأعين آنساتٍ حور

بيضاء ترفل في ملابس خضرةٍ ... نظمت بأحسن نورها الممطور

فكأنها عذراء في إحلائها ... تهدى إلى جذلٍ بها مسرور

وكأنما صبغ الحيا أثوابها ... صبغ الحياء الخد بالتخفير [٢]

وهذا جعفر بن عثمان المصحفي يصف روضاً ترصعت في جنباته الورود والنواوير بمختلف أنواعها وأشكالها، فازدان بها بهياً زهيّا، وعبقت بين أرجائه روائح الطيب المنبعثة من كل زهرة، إنه يصف في مقطوعته هذه السوسان فيخاله عاشقاً مزّق ثيابه جزعاً على فراق محبوبه، وكأنما النرجس الغضّ الذكي محاجر أصابها التعب من كثرة الأرق والسهاد، وكأن لونه الأصفر هو لون المحب الذي يتنسم نكهة محبوبه، فيقول :

انظر إلى الروض الأريض تخاله ... كالوشي نمق أحسن التنميق

وكأنما السوسان صب مدنف ... لعبت يداه بجيبه المشقوق

يوم الوداع ومزقت أثوابه ... جزعاً عليه أيما تمزيق

يحكي لنا لون المحب بلونه ... وإذا تنسم نكهة المعشوق

وكأن دائرة الحديقة عندما ... جاد الغمام لها برشف الريق

فلك من الياقوت تسطع نوره ... فيه كواكب جوهر وعقيق [٣]

---

(١) عبيدا لله بن يحيى بن إدريس الوزير ابو عثمان، من أهل قرطبة، كان متفنناً في ضروب العلم، إلا أن الشعر غلب عليه، هذا مع حفظه للآثار والسنن والغريب والأمثال. وكان يجمع إلى علمه تواضعاً لم تخرجه عنه المصائب التي تولاها، توفي سنة (٣٥٢)هـ، انظر الجذوة ص٢٥٠، وبغية الملتمس رقم (٩٧٤)، واليتيمة، ج٢، ص١١.

(٢) الكتاني، التشبيهات، ص٤٥، ٤٦.

(٣) الحميري، البديع في وصف الربيع، ص٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما يوسف بن هارون، فيبني علاقة معينة في ذهنه بين السماء والأرض، إذ يرى أن السحب مثقلة بالأحزان تذرف دموعها مطراً يحيل الأرض خضرة ونضارة فتبدو أزهار الرياض والطلّ عليها كأنها وشي يحاك بلؤلؤ فيقول :

بكت السحاب على الرياض فحسنت ... منها غروساً من دموع ثكول
فكأنها والطلّ يشرق فوقها ... وشي يحاك بلؤلؤٍ مفصول[١]

وتبدو العلاقة التي يتخيلها الرمادي بين السماء والأرض أوضح ما يكون حين يقول:

كأن السحاب الجون أعرس بالثرى ... فلاح شوار[٢] الأرض في كل موضع
رياض يضاحكن الغزالة بعدما ... بكت فوقها عين السماء بأربع
كأن سرور الأرض حزن سحابها ... إذا ما بكت لاحت لنا في تصنع
حبائب لا يسمحن إلا بلحظة ... وشمة أنفٍ كالحبيب الممنع[٣]

وله في وصف الربيع ثلاثة أبيات يقول فيها :

كأن الربيع الطلق أقبل مهدياً ... بطلعة معشوقٍ إلى عين مغرم
تعجّبت من غوص الحيا في حشى الثرى ... فأفشى الذي فيه و لم يتكلم
كأن الذي يسقي الثرى صرف قهوة ... تنم عليه بالضمير المكتم[٤]

أما ابن عبدربه فيتراءى الربيع له إنساناً يتبختر فرحاً بلباسه وزينته معبراً عن ذلك بقوله:

وجه ربيع أتاك باكره ... يرفل في حليه وفي حلله
كأن أيامه ملبسة ... أثواب غض الشباب مقتبله[٥]

---

(١) شعر الرمادي، ص١٠٧؛ الكتاني، التشبيهات، ص٤٢.
(٢) الشوار: اللباس والهيئة، انظر لسان العرب مادة شور.
(٣) شعر الرمادي، ص١٢٢، الكتاني، التشبيهات، ص٤٣.
(٤) شعر الرمادي، ص١٢٢، الكتاني، التشبيهات، الأبيات ١، ٣، ٤، ص٤٢.
(٥) الكتاني، المرجع السابق، ص٤٦، لم يردا في ديوانه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وله عدة مقطوعات في وصف الرياض، ومنها قوله :

وروضــةٍ عقدت أيــدي الربيع بها ـــــ نــــوراً بنـورٍ[١] وتزويجاً بتزويج
بملقـحٍ من سواريهـــا وملقحــــةٍ ـــــ وناتـج من غواديهــا ومنتـــوج
توشحـــت بمـــلاة غـــير ملحمة ـــــ من نورها ورداء غير منســـوج[٢]

ويستعرض لنا ابن عبدربه بعض الأنواع الجميلة من الأزهار الموجودة في رياض الأندلسيين كالسوسن والبنفسج فيقول:

باكر الروض في رياض السـرور ـــــ بين نظم الربيـــع والمنثـــور
في رياضٍ من البنفسج يحكـــي ـــــ أثر العضّ في بياض الصدور
وترى السوسن المنعم يحكـــي ـــــ ذهباً نابتاً علـــى كافـــور[٣]

ولعل من أجمل ما وصفه ابن عبد ربه روضة جميلة وقد تألق الندى فيها على أزهار شقائق النعمان التي تتفتح في الليل، فتقيم أعناقها متفتحة وتميلها في النهار مغمضة، فهي إذا ضاحكتها الشمس وداعبتها بنورها مالت وأغلقت أجفانها، وتساقط الندى منها كما لو أنها تبكي، والجميل أن لون السماء ينعكس على مياه بركة في الروضة تطفو على سطحها الأزهار مشكلة منظراً بديعاً حدا بابن عبد ربه إلى تصويرها بصورة السماء المرصعة بالنجوم التي تزيدها ألقاً وروعة حيث عبر عن ذلك بقوله :-

وما روضة بالـحزن[٤]حاك لها الندى ـــــ برودا من الموشـي حمـــر الشقائـــق
يقيـــم الدجـــى أعناقهـــا ويميلهـــا ـــــ شعاع الضحى المستن[٥] في كل شارق

---

(١) النور: الزهر الأبيض، وهو قصد الزهر مطلقاً. انظر لسان العرب مادة نور.

(٢) ديوان ابن عبدربه، ص٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٣.

(٤) الحزن: المكان الغليظ، وهو الخشن، وجعل الشاعر الروضة في (حزن) من الأرض لتكون بعيدة عن الماء فلا ترعاها الشاء والحمر الوحشية، فتبقى ممرعة، نضرة، انظر لسان العرب، مادة : حزن.

(٥) المستن: يريد المشرق المتلألىء، ويقال استن السراب أي اضطرب (التمع في حركة) انظر لسان العرب، مادة سنّ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا ضاحكتها الشمس تبكي بأعيـنٍ مكللة الأجفان صفر الحمالـــــق[١]

حكت أرضها لون السماء، وزانهـا نجوم كأمثـال النجــوم الخوافــق

بأطيب نشراً مــن خلائقــه الـتي إذا خضعـت في الحسن زهر الخلائق[٢]

وهذه مقطوعة يشبه فيها ابن عبدربه البقيع[٣] بالرضيع الذي يرضع من ثدي أمه فيقول:

ربَّ بقيعٍ طامس المنهـــاج

رضيع كل أوطفٍ ثجـاج

حبابه كالنفخ في الزجـاج [٤]

أما ابن هانيء، ففي قصيدة له في مدح المعز لدين الله يصف روضةً خضـراء تفتر أزهارها وتتلألأ أنوارها كأن خطوط جبهـة الشـمس فيهـا قطـعٌ مسبوكة من فضة أو ذهب، وذلك من شدة إشراقها، فيقول :

ألم تريا الروض الأريض كأنــما أسرة نور الشمس فيها سبائك

كأن كؤوساً فيه تسري براحهـا إذا عللتها الساريات الحواشك

كأن الشقيق الغض يُكحل أعيناً ويسفك في لباته الدم سافــك

وما تطلع الدنيا شموساً تريكهــا ولا الرياض الزهر أيدٍ حوائك

ولكنما ضاحكتنا عن محاســنٍ جلتهن أيام المعز الضواحـــك[٥]

وهذا الوصف للروض مرتبط بمدح المعز، إذ يعتقد الشاعر أن الأشياء الحسـنة التي تأتي بها الدنيا في الوجود، والريـاض الضاحكـة الـتي تُنميهـا الأمطـار لم تظهـر محاسنها إلا ببركة دولة المعز الغراء.

---

(١) حملاق العين: ما غطته الأجفان من بياض المقلة، انظر لسان العرب، مادة حملق.

(٢) ديوان ابن عبدربه، ص١٣٣.

(٣) البقيع: هو مكان منخفض فيه من أروم الشجر أنواع شتى، انظر لسان العرب مادة بقع.

(٤) ديوان ابن عبدربه، ص٥١.

(٥) د. زاهد علي، تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء، ص٥٠٨، ٥٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمحلةٍ خضراء أفرغ حليها الذ هبي صاغة قطرهـا المسكوب
بسقت على شرف البلاد كأنما قامت إلى ما تحتهـا بخطيـب
والروض قد ألف الندى فكأنـه عيــن توقــف دمعها لرقيـب
متخالف الألوان يجمع شملـــه ريحان ريح صبا وريح جنوب
فكأنما الصفراء إذا تومي إلى الـ بيضاء صبٌ جانـحٌ لحبيـب (١)

أما طاهر بن محمد، فيصف روعة الله في خلقه، فالسماء تجود بالمطر ليشكل الأرض وروداً وأزهاراً ورياحين، كأنها الجواهر في الروض، وكأنما النبت بأشكاله سطور تفوقت في روعة خطها وحروفها التي فـك عجمتهـا الزهـر فكـان كالنقـاط عليها، هذه السطور تفوقت على أجمل الخطوط التي يرسمها أكفأ الخطاطين :

وكأن السماء تنشـــر لـــــلأر ض وتبدي طرائف الأنمــاط
وكأن الملوك أهدوا إليهـــــا غبـه أروائها نفيس الريــاط
وكــأن الجواهـــر انتجعتهـــا رغبة عن بواطن الأسفـــاط
في جميم كأنه جمــــمٌ(٢) بيـــ ـــن جعــادٍ ممشوطةٍ وسباط
فلها أسطر من الروض فاتــت باعتــدالٍ أنامل الخطـــاط
وحروف قد نقط الزهر منهـا كل مستعجـمٍ على النقاط(٣) (٤)

ب- وصف الورود والأزهار :

وصف الأندلسيون الورود والأزهار فقد كانت ماثلـة أمـام العامـة بـالحدائق والرياض والبساتين بألوانها الزاهية وأشكالها المتنوعة وعبيرها الذكي، لتكسب ثوب الطبيعة السندسي الأخضر، جمالاً وسحراً.

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص٤٩.

(٢) الأسفاط : جمع سفط وهو ما تصون فيه المرأة جواهرها، وهو الذي يُجلّى فيه الطيب. انظر لسان العرب مـادة سفط.

(٣) الجميم: النبت الذي طال بعض الطول ولم يتم، انظر لسان العرب، مادة جمّ.

(٤) الكتاني، التشبيهات، ص٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي وصف الأندلسيين للأزهار نجد أنهم وقفوا على وصف أنواع كثيرة منها، وقد بلغ عددها اثنين وثلاثين نوعاً بحسب ما تمخّض عنه البحث المتواصل، وسمحت به المصادر وهي : النور الأبيض، والورد الأحمر، والورد الأبيض، والبهار، والنرجس الأصفر، والنرجس الكبير"القدسي"، والأقحوان، والنيلوفر، والياسمين، والظيان، والخيري النمام، والخيري الأصفر، والسوسن والبنفسج، والنسرين، والقرنفل، وشقائق النعمان، والحزم، والمردقوش، والترنجان، والجلنار، ونور الرمان، ونور حب الملوك، ونور الريحان، ونور الكتان، ونور الآس، ونور اللوز، ونور النارنج، ونور الباقلاء، ونور الغالبة.

ولهذا دلالة على أن وصف النواوير لم يكن لدى الشعراء الأندلسيين شيئاً عابراً، بل هو فن من فنونهم، جعلوا له أسساً، وصاغوا له مذهباً، واتجهوا إليه، حتى كوّن لديهم ظاهرة من الظواهر التي استحقت الدرس.

فهذا عبدالرحمن بن عثمان الأصم [1] يشكر نيسان (شهر الربيع) لأنه حاك له من صنوف البدائع من الورود ما يتحف نظره ويمتعه فيقول :

شكرت لنيسانٍ صنيعة منعمٍ ... لما حاك عندي من صنوف البدائع
درانيك أفوافٍ[2] تجلّت رقومها ... بأحمر قانٍ بين أصفر فاقع
ورود تباهي الشمس في رونق الضحى ... بمطلّعاتٍ كالنجوم الطوالع
مضرجة أبشارهن كأنها ... خدود تجلت عن حسور البراقع [3]

وله قطعة حسنة في الورد أيضاً يصف فيها النواوير والأقاحي حيث يقول :

---

(١) عبدالرحمن بن عثمان بن الأصم: يكنى أبا المطرف ويعرف بالأطروش، وكان أصم، إذا أراد الإنسان أن يكلمه كتب له في الهواء ورمز بشفتيه، رحل إلى المشرق سنة (٣٠٤)هـ، كان بارعاً في النحو واللغة وشاعراً جزيلاً وأكثر شعره على مذاهب العرب، وله باع طويل في الأراجيز توفي سنة (٣٣٥)هـ، انظر الجذوة ص٢٥٧، وبغية الملتمس رقم (١٠٣٢).

(٢) أفواف: ضرب من عصب البرود، انظر لسان العرب مادة فوف.

(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغضيض من جنى الـــور | د حكـــى الصبـح انفجارا
وأكاليل أقاحــــــــي | يخالســــــن حــــذارا
مشرئبات إلى الشمــــ | س بأحـــــداقٍ حيـــاري
إن سقاها الطلّ في الســ | رّ تضاحكن جهــــــارا [(١)]

أما أبو عبدا لله بن الملك الطليـق[(٢)] فلـه مقطوعـة مـن قصيـدة مشـهورة لـه، حيث شبه الشاعر الورد بوجنة المعشوق، وهذا التشبيه كثـير، ولكـن الطليـق أبـدع بزيادة الندى ومقابلته بالعرق، إذ يقول :

وكأن الورد يعلـــوه النـــدى | وجنة المعشوق تندي عرقـا
يتفقـــى عـــن بهـــارٍ فاقـــع | خلته بالورد يطوي ومقــا
كالمحبين الوصوليـــن غـــدا | خجلا هذا وهذا فرقـــا
يا لهـــا مـــن أنجمٍ في روضـةٍ | قد ترقت من رباها أفقـــا
ودنت منها إلى شمس الضحـى | حدق للنّور تصبي الحدقـــا[(٣)]

أما عبيد ا لله بن إدريس فيشبه الورد بمحب ذاهب للقـاء حبيبـه الـذي تلوّن خده والعبير يتضوع منه :

أهـــدي إليـــك تحية من عنـده | زمن الربيع الطلق باكر ورده
يحكي الحبيب سرى لوعد محبه | في طيب نفحتـه وحمرة خـده[(٤)]

---

(١) الحميري، البديع في وصف الربيع، ص٣١، ٣٢، والأبيات نسبت لعبد الزكي بن عثمان الأصم، وأرجح أن يكون هو نفسه عبد الرحمن بن عثمان الأصم.

(٢) أبو عبدالملك الطليق: هو مروان بن عبدالرحمن بن مروان بن عبدالرحمن الناصر وكان يكنى أبا عبدالملك، وهي كنية اكتسبها منه فقط، عاش مروان ٤٨ عاماً وتوفي قريباً منه بسنة ٤٠٠ هـ، دخل السجن لأنه قتل أباه الذي استأثر بجارية كان الطليق يحبها كثيراً. وقد قال عنه ابن بسام في الذخيرة: "كان شاعراً مجراً جزل المقاطع، حسن المطالع، جيد الابتداع لطيف الاختراع، انظر الذخيرة ١/٢: ٧٩، الجذوة: ٨٦، ٣٢٢، الحلة ج: ١: ٢٢٠، ٢٢١.

(٣) الأبيات ٢، ٢، ٣، ٥، في كتاب ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص١١٦، والمقطوعة كاملة في الحميري، البديع في وصف الربيع، ص٣٣، ٣٤.

(٤) الكتاني، التشبيهات، ص٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللشاعر لب بن عبيد الله[١] بيتان في وصف الورد يقول فيهما :

صابحتها والروض يسطع مسكه ... فكأنه بالليل بات مغلفا

والورد يبدو في الغصون كأنما ... أضحى يقارف من نداه قرقفا[٢]

أما ابن هانيء فله عدة أبيات يخاطب بها جعفر بن علي الأندلسي وقد حضر في مجلس منادمته، وفيها جعل الورد معشقاً لكونه أحمر، والنرجس عاشقاً لكونه أصفر، وجعل الياسمين رقيباً لكونه أبيض حيث يقول :

وثلثة لم تجتمع في مجلس ... إلا لمثلك والأديب أريب

الورد في رامشنةٍ من نرجس ... والياسمين وكلهن غريب

فاحمر ذا واصفر ذا وابيض ذا ... فبدت دلائل أمرهن عجيب

فكأن هذا عاشق وكأن ذا ... ك معشق وكأن ذاك رقيب[٣]

وفي هذه الأبيات نلاحظ بوضوح كيف وظف شعراء عصر الخلافة الورود والأزهار للحديث عن العاشق والمعشوق وأوصافهما، وما يتعلق بهما من أشكال مستقلة وصور متنامية فجاءوا بما يستملح ويستظرف من الأوصاف والتشبيهات.

أما أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي حين نزل على بني أرقم بوادي آش[٤] قُدم إليه فيما أكرم به طبق وردٍ، وكان في فصل الشتاء فاستغربه ثم أخذ منه وردةً واحدةً، وقال بديهة :

ياخدود الحور في إخجالها ... قد علتها حمرة مكتسبهْ

واغتربنا أنت من بجانةٍ[٥] ... وأنا مغترب من قرطبهْ

---

(١) لب بن عبد الله بن أمية، أبو عيسى : يعرف أبوه بابن الشالية، وكان هذا الأب لان كبار الثوار أيام الأمير عبد الله بن محمد، وهو شاعرٌ حسن التصرف، وهو من الشعراء الذين اختار لهم صاحب كتاب التشبيهات جملة من أشعارهم انظر الحلة : ٢٣١،٢٣٢.

(٢) الكتاني، المصدر السابق، ص٥١، ابن الآبار، الحلة السيراء، ج١، ص٢٣٢.

(٣) د. زاهد علي، تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء، ص١١٩.

(٤) وادي آش : Guadix، في وادي جبل شلير على بعد ٥٣ كم إلى الشمال الشرقي من غرناطة، لافي بروفنسال، صفة جزيرة الأندلس، ص١١٢، انظر الخريطة المرفقة طياً، ص١٨٢.

(٥) بجانة: Peching، في شرق الأندلس، في منطقة أرش اليمن على بعد ١٠كم إلى الشمال من مرية Almeria. لافي بروفنسال، صفة جزيرة الأندلس، ص٣٧، وانظر الخريطة المرفقة طياً، ص ١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واجتمعنا عند إخوان صفـاً ... بالنـدى أموالـهم منتهبـه
عصبة إن سُئلت عن نسبـة ... فـإلى أرقمهـا منتسبـه
إن لثمي لـك قدامهـم ... ليـس فيه فعلـة مستغربـه
لاجتماع في اغتـراب بيننـا ... قبل المغتـرب المغتربـه [1]

ومن شدة اهتمام الشعراء الأندلسيين بالأزهار والورود، كان بعضهم يفضل نوعاً معيناً دون غيره، ويصر على أنه الأفضل، فيرسم له أبدع الصور ويستلهم من حسنه وبهائه أعذب الألحان، ومن ذلك تفضيل الرمادي الورد على سائر الورود، حيث يقول:

للآس والسوسن والياسميـن الغض والخيري فضـل شديدْ
سادت به الروض ومن بينهـا ... وبين فضل الورد بونٌ بعيـدْ
الورد إن يذبل ففي مائـه ... نسيم ضم الإلف بعد الصـدودْ
والسوء في السوسن عـام وفي ... ساعة سوء قد تزار اللحـودْ
والياسمين الياس في بدئـه ... فهو لمن يطمع هـم عتيـدْ
أخل بالخيري خلق كخلـق اللص يستيقظ بعد الهجـودْ
فالورد مولى الروض لكنـه ... في قدره عبد لورد الخـدودْ [2]

وقال في ذلك أيضاً :

انظر إلى روض ياسميـنٍ ... لم يرد الورد وهـو وارد
كأنه عـدةً ولونـاً ... أكـف حـورٍ بلا سواعـد [3]

كما قال يصف الورد والأقاحي :

وفي الورد غضا والأقاحي محاسنٌ ... سُرقن من الأحباب للمتشـوقِ

---

(١) شعر الرمادي، ص٥٣.
(٢) المرجع السابق ، ص٦٣، الكتاني، التشبيهات، ص٥١، ٥٢.
(٣) شعر الرمادي، ص٦٢،٦٣، انظر الحميري، البديع، ص٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خدود عذارى لو تقصى حياؤها وأفواه حورٍ لو سمحن بمنطق[(١)]

ولما كانت الورود أجمل ما يهدي شاعر إلى خليفته أو وزيره أو رئيسه، فقد قال ابن عبد ربه: وأهديت طبق ورد ومعه :

رياحين أهديها لريحانة المجد جنتها يد التخجيل من حمرة الخد
وورد به حييت غـرة ماجدٍ شمائله أذكى نسيما من الورد
ووشي ربيعٍ مشرق اللون ناضرٍ يلوح عليه ثوب وشيٍ من الحمد
بعثت بها زهراء من فوق زهرةٍ كتركيب معشوقين خداً على خدّ[(٢)]

وللشاعر يعلى بن أحمد بن يعلى[(٣)] وقد أهدى وردا إلى المنصور ابن أبي عامر أبيات لطيفة، يقول فيها :

بعثت من جنتي بـوردٍ غض له منظر بديع
قال أنـاس رأوه عندي أعجله عامنا المريع
قلت: أبـو عامرٍ المعلى أيامـه كلهـا ربيع [(٤)]

أما عبدا الله بن اسماعيل بن بدر[(٥)] فيهدي الورد إلى محبوبته التي تتهمه بسرقة ذلك الورد من وجنتيها، حيث يقول :

---

(١) شعر الرمادى، ص٩٤، انظر الحميري، البديع، ص٣٤.

(٢) ديوان ابن عبدربه، ص٦١.

(٣) يعلى بن أحمد بن يعلى: قائد أندلسي، من الشعراء، اشتهر في أيام المنصور بن أبي عامر. وتناقل مترجموه أبياتاً لطيفة أرسلها إلى المنصور. انظر الحلة السيراء ص١٥٨، جذوة المقتبس ص٣٦٣، والمغرب في حلى المغرب ج١، ص١٩٩، بغية الملتمس ص٥٠٠.

(٤) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣٨٦، انظر الحلة السيراء، ج١، ص٢٨٤.

(٥) عبدا الله بن إسماعيل بن بدر: هو ابن إسماعيل بن زياد أبو بكر القطربي، كان مولى نعمة لبني أمية، ومن أساتذته بقي من مخلد ومحمد بن عبدالسلام الخشني وابن وضاح، ولاه الناصر كتابته الخامسة سنة ثم ولاه سنة (٣٠٠)هـ إشبيلية، توفي سنة (٣٥١)هـ عن عمر مديد، غلبت عليه صناعة الشعر وكان مكثراً، وهو أحد شعراء "الحدائق" لابن فرج. انظر الجذوة ص١٥٣، والحلة السيراء، ج١، ص٢٥٤، وله شعر في اليتيمة، ج٢، ص٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كنت قد أهديت ورداً فادعت أنه من ورد خديها سـرق
ومشت عجلى إلى مرآتهـا فإذا ورد كوردٍ في الطبق![1]

وهذا محمد بن شخيص يستوقفه مشهد الطلّ على الورد فيقول فيه:

كأن انتثار الطلّ في الورد أدمع تبدي على زهر الخدود انتثارها[2]

أما أحمد بن دراج القسطلي، فيقول في وصفه للورد:

ضحك الزمان لنا فهاك وهاتـه أو ما رأيت الورد في شجراتـه؟
قد جاء بالنارنج مـن أغصانـه وبخجلة المعشوق من وجناتـه
وكساه مولانا غلائـل سيفـه يوماً يسربله دماء عداتـه
من بعدما نفخ الحيا من روحـه فيه وعرف المسك من نفحاتـه
إن كان أبدع واصف في وصفه ولقد تقاصر عن بديع صفاتـه[3]

ويجدر بنا أن نشير إلى تقليد اعتاده الأندلسيون، وهو ابتداء زمان النواوير بإهداء بواكيرها واستهدائها، والمهم في هذا التفكير هو وصف البواكير المهداة، إذ يغلب أن يصفوها بالكواعب الأبكار والأوانس العذراوات، محاولين إيجاد أوجه تشابه بين الفتاة البكر والزهرة التي لما تتفتح بعد، حيث يفضلون إهداءها وهي كذلك، ويستفيدون من هذه العلاقة بين الاثنتين لتوظيفها في وصفهم، وهذه رواية تدل على ذلك كله، فقد كان صاعد البغدادي يجلس يوما بمجلس المنصور حيث أحضرت إليه وردة في غير أو انها، لم يكمل فتح ورقها، فقال فيها صاعد مرتجلاً:

أتتك أبا عامـر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها

---

(١) جذوة المقتبس، ص ٢٦٨.

(٢) الكتاني ، التشبيهات، ص٥٢.

(٣) ديوان ابن دراج القسطلي: ص٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سر بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضراً فحسده، وجرى إلى مناقضته وقال للمنصور: هذان البيتان لغيره، وقد أنشدنيهما بعض البغداديين لنفسه بمصر وهما عندي على ظهر كتاب بخطه، فقال له المنصور: أرنيه، فخرج ابن العريف وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن بدر فقال هذه الأبيات، ودس فيها بيتي صاعد :

عشوت إلى قصر عباسةٍ وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها وهي في خدرها وقد صرع السكر أنّاسها
فقالت: أسار على هجعةٍ فقلت: بلا، فرمت كاسها
ومدت إلى وردة كفها يحاكي لك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها
وقالت: خف الله لا تفضحنّ في ابنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلةٍ وما خنت ناسي ولا ناسها

فطار ابن العريف بها وعلقها على ظهر كتاب بخط مصري ومداد أشقر ودخل بها على المنصور، فلما رآها، اشتد غيظه (على صاعد)[1] وقال للحاضرين غداً أمتحنه، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد، ولم يبق في موضع لي عليه سلطان، فلما أصبح أرسل إليه فأحضر، وحضر جميع الندماء والجلساء، فدخل بهم إلى مجلس قد أعد فيه طبقاً عظيماً فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير، ووضع على السقائف لعب من ياسمين في شكل الجواري، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقيت فيها اللآلئ مثل الحصباء، وفي البركة حية تسبح، فلما دخل صاعد، ورأى الطبق قال له المنصور: إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا وإما أن تشقى، لأنه زعم

(١) زيادة، من نفح الطيب، ج٤، ص٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هؤلاء القوم أن كل ما تأتي به دعوى، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملكٍ قبلي شكله، فصفه بجميع ما فيه، فقال له صاعد على البديهة:

أبا عامر هل غير جدواك واكف ... وهل غير من عاداك في الأرض خائف
يسوق إليك الدهر كل غريبةٍ ... وأعجب ما يلقاه عندك واصف
وشائع نورٍ صاغها هامر الحيا ... على حافتيها عبقر ورفارف
ولما تناهى الحسن فيها تقالبت ... عليها بأنواع الملاهي وصائف
وأعجب منها أنهن نواظر ... إلى بركةٍ ضمت إليها الطرائف
حصاها اللآلي سابح في عبابها ... من الرقش مسموم الثعابين زاحف
ترى ما تراه العين في جنباتها ... من الوحش حتى بينهن السلاحف

فاستغربوا له تلك البديهة في مثل ذلك الموضع، وكتبها المنصور بخطه وكان إلى ناحيته من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوار تحدف بمحاذيف من ذهب لم يرها صاعد فقال له المنصور : أحسنت إلا أنك أغفلت ذكر السفينة والجارية، فقال للوقت :

وأعجب منها غادة في سفينة ... مكللة تصبو إليها الهواتف
إذا راعها موج من الماء تتقي ... بسكانها ماهيجته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركبٍ ... تصرف في يمنى يديه المجادف
ولم ترعيني في البلاد حديقةً ... تنقلها في الراحتين الوصائف
ولا غرو أن أنشب معاليك روضةً ... وشتها أزاهير الربى والزخارف
فأنت امرؤ لو رمت نقل متالعٍ ... ورضوى ذرتها من سطاك نواسفُ
إذا قلت قولاً أو بدهت بديهةً ... فكلني له إني لمجدك واصف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب، ورتب له في كل شهرٍ ثلاثين ديناراً وألحقه بندمائه".(١)

جـ- وصف النوريات :

١- **السوسن** : هو نبات بري من الرياحين، وكان لهذا النور حظ وافر من الوصف، وذلك لروعة جماله وبهاء لونه، ففيه يقول جعفر بن عثمان المصحفي:

يا ربّ سوسنةٍ قد بت ألثمها ... وما لها غير طعم المسك من ريق

مصفرة الوسط مبيض جوانبها ... كأنها عاشق في حجر معشوق(٢)

وله بيتان فيهما شيء وافر من البراعة والإبداع والدقة والإتقان، فهو في هذين البيتين يستلهم صوراً وأفكاراً مستفيداً من عنصر المشابهة بين النوار الذي يصفه والصورة التي رسمها، أو من إمكانية وضعه في مجال المقارنة بها، إذ إن الوصف وسيلة لاكتشاف العلاقات بين الأشياء المختلفة، ويقارب بين المختلفين حتى يدني بهما إلى حال من الاتحاد، والشاعر هنا يشبه السوسن كأنه محب مزق ثوبه حزناً على فراق حبيبه، فيقول:

وكأنما السوسان(٣) صب مدنف ... لعبت يداه بجيبه المشقوق

يوم الوداع ومزقت أثوابه ... جزعاً عليه أيما تمزيق(٤)

---

(١) ياقوت الحموي (٦٢٦)هـ، معجم الأدباء، ج١٠، ص١٨٥-١٩٠، وقد روى المقري تفصيلات هذه الحكاية، انظر المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٧٩-٨٢.

(٢) ابن الآبار، الحلة السيراء، ج١، ص٢٦١.

(٣) نلاحظ في المقطوعتين السابقتين أن الشعراء كانوا يستخدمون كلمة "السوسن" وبعضهم يقول السوسان، وفي هاتين التسميتين قال الحميري "يقال سوسن وسوسان بالألف ودونهما وقد تكررت في الشعر اللغتان، وترددت التسميتان، انظر الحميري، انظر في وصف الربيع، ص ١٣٠.

(٤) الحميري، المصدر السابق، ص١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا أحمد بن فرج الجياني يستخدم السوسن هدية يعبر فيها عن محبة وتقدير لمن أحبهم، فيهديهم باقة من السوسن النضر الغض الذي تفوح رائحته فيقول:

بعثـــت بسوســـنٍ نضـرٍ ينم كحونـــة العطـــر
كأكـؤس فضـــةٍ فيهـــا بقايا شهلـــة الخمـــر
أو الوجنـــات منك دنـــت إلى وجناتـي الصفـــر[1]

أما الوزير الكاتب أبي مروان بن الجزيري، فله وصف جميل يقول فيه:

وملسن الطاقات أبيض ناصـــعٍ يزهى بأصفر من جناه فاقـــع
أعداد زهرته إذا حصلتهـــــا ست سوى عدد الرقيب السابع
سكنت قرارة حجره كلفاً بـه كالأم تكلف بالصغير الراضـع
صافي الأديم إذا تخلق صـــدره بخلوق أرؤسها الذكي المائـــع
أهدى الصبابة والهوى بنسيمـه وبديع منظره الأنيق الرائـــع
سموه بالسوسان ظلماً واسمـــه في ما خلا ساسان غير مدافـع[2]

ومن الطريف أن نجد بيتين للشاعر يحيى بن هذيل في وصف السوسن يتشابهان إلى حد كبير مع البيتين اللذين نظمهما جعفر بن عثمان المصفحي في نفس الغرض أيضاً، فقد وظف كل منهما زهرة السوسن للحديث عن العاشق والمعشوق وأوصافهما، حتى غدت الزهرة بين أيديهما محبوبة يلتقون بها، وينشقون عطرها، ويكلمونها، ويتسلمون رسائلها، ويبادلونها الشكوى، حيث يقول:

ورب سوسنةٍ قبلتها كلفـــاً وما لها غير نشر المسك منشوق
مصفرة الوسط مبيض جوانبها كأنها عاشق في حجر معشوق[3]

وله أيضاً في هذه الزهرة قبل أن تتفتح وصف يخالها فيه درّاً مكنوناً فيقول:

---

(١) الحميري، المصدر السابق، ص١٣٠.
(٢) نفسه، ص١٣٠.
(٣) نفسه ، ص١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأول ما يبدو فخلق سبيكـــةٍ مخلصةٍ بيضـــاء أتقنهـــا السبـــك
بنت نفسها فوق الزمرد واقفاً فلاحت كمثل الدرّ ضمنه السلك
جنى سوسنٍ لولا سنا بشراتــه لما زين الأفواه ثغر ولا ضحـــك(١)

وجميل الوصف ما قاله يوسف بن هارون الرمادي في السوسن، إذ وصف السوسن الأبيض كالسوالف البيض التي تلوح في رأس محب متيم شبيه الحب، أما السوسن الأصفر، فهو المحب الذي أصفرّ لونه من الحب والهيام، وهذان لهما ثالث ينوف، كواشٍ يحكي قصة حبهما للناس، يقول الرمادي:

سوسن كالسوالف البيض لاحت لمحب متيم، من حبيـــــب
قد أعارت عيوننا كل حســـنٍ وأعارت أنوفنا كل طيـــب
بعضها عاشق لبعضٍ فبعْـــض لمحبٍ والبعض للمحبـــوب
فالحبيب المبيضّ منهـــا إذا اصفر ر ســـواه اصفرار صبّ كئيب
لهما ثالث أنـــاف كـــواشٍ قام يحكي هواهما كالخطيـب
فهما وهو في جميـــع المعانـــي كحبيب وعاشقٍ ورقيـــب(٢)

أما أحمد بن دراج القسطلي، فله في السوسن مقطوعة يقول فيها :

إن كان وجه الربيع مبتسمـــاً فالسوسن المجتلى ثنايـــــاه
يا حسنه سنّ ضاحكٍ عبـــقٍ بطيب ريح الحبيب ريـــــاه
خاف عليه الحسود عاشقـــه فاشتق من ضدّه فسمــــاه
وهو إذا مغـــرم تنسمـــــه خلّى على الأنف منه سيمـــاه
كما يخلّي الحبيـــب غاليـــةً في عارضي إلفــه لذكـــــراه
يا حاجباً مذ براه خالقـــــه توجّه بالعلى وحـــــــلاه
إذا رآه الزمـــــان مبتسمـــاً فقد رأى كلّ ما تمنـــــــاه

---

(١) الحميري، المصدر السابق، ص١٣١، ١٣٢.

(٢) شعر الرمادي، ص٥٥، ٥٦، الأبيات من ١-٥، في البديع من أوصاف الربيع، ص١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن رآه الهلال مطلعـــــاً   يقول : ربّي وربّـــك الله(١)

وفي هذه المقطوعة، نجد أن الربيع تجسد عند ابن دراج وجهـاً مبتسـماً ثناياه نور السوسن العبق الذي يفوح منه عبير محب خاف على حبيبه من الحسـد، فاشتق من ضده فسماه.

٢- البهـار : يذهب الحميري إلى أن البهار هو النرجس لدى المشارقة في قوله "ويسمى البهار النرجس وأكثر أشعار المشرقيين اسمه فيها النرجس، وأما الأندلسيون فاستعملوا الاسمين وذكروا اللغتين"،(٢) وقد ذهب ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ)، والمقري(٣) (ت١٠٤١هـ) هذا المذهب أيضـاً، أمـا الرّعيـني (ت ٦٦٦ هـ)، فيـورد قطعة شعرية في النرجس الأندلسي ويقـول: "قلـت النرجس الأندلسـي، لأن الـذي وصفه أهل المشرق إنما هو البهار في بلدنا"(٤)، وبهذا يفرق بين الاثنين، وأرجـح أن يكون ما ذهب إليه الرعيني صحيحاً، إذ إن الحميري نفسه يورد قصائد فيها وصـف لجملة من النواوير من بينها البهار والنرجس في القصيدة الواحدة، كما هي الحال في قصيدة أبي عامر بن مسلمة(٥) التي يقول فيها :

وروضةٍ مشرقـــةٍ   بكل نورٍ مجتنـــى

فيها بهار باهـــر   ونرجس يشكو الضنى

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٣٦.

(٢) الحميري، البديع في وصف الربيع، ص٩٦.

(٣) ابو الخطاب عمر بن حسين بن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق ابراهيم الأبياري و د. حامد عبدالمجيد و د. احمد احمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥م، ص٣٦، وانظر ص١٢٧.

(٤) برنامج شيوخ الرعيني، أبو الحسن الإشبيلي، تحقيق إبراهيم شبّوح، وزارة الثقافة للإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٢م، انظر ص ١٩٩.

(٥) أبو عامر بن مسلمة: أديب عالم شاعر من بيت أدب ورياسة، سكن إشبيلية ، له كتاب سماه (متاب الارتياح بوصف الراح)، ذكر ما قيل فيها، وفي الرياض والبساتين والنواوير. انظر جلوة المقتبس، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ص ١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويا سميـــن أرضــه ونوره تلوّنـــــــــا
كالليل مخضراً ولـــــــــــــكن بالنجـــوم زينـــا
فاجتن ورداً وارداً وسوسنـــــاً ملسّنـــا
وحوله نيلوفـــــر فتنة رانٍ إن رنـــــا[1]

ويقول جعفر بن عثمـان المصحفـي في وصـف البهـار بألفـاظ رطبـة ومعـانٍ عذبة:

بنفسي وأهلي طالع خلت أنـــــه بأخلاق معشوق العلى يتخلـــق
حكى الفضة البيضاء والتبر منظراً ولكنه بالنفـــس ألطى وأعلـــق
فصيح إذا استنطقته عن زمانـــــه وما خلت أن النور من قبل ينطق
يبثك أنفاس الحبيب وإنهـــــــا لأذكى من المسك الذكي وأعبـق
أتانا على عهد الشتاء مبشـــــراً بعهدٍ يروق الناظرين ويونـــــق[2]

وفي هذه الأبيات، يتضح لنا تفاعل الشاعر مع الطبيعـة، إذ أصبحـت الـوردة التي تحاكي الفضة البيضاء والتبر في لونها إنساناً يتسم بالفصاحة لو سئل عـن زمانـه لأفصح بطريقته، فبث أنفاس الحبيب شذىً وعطراً أذكى من المسك وأعبق.

أما أحمد بن فرج الجياني، فيشبه النرجس بعـين تطـرف مـن النعـاس، وكأنـه عاشق مصفر من الحب واللوعة ويرتدي ثياب الحزن البيضاء:

ونرجسٍ تظرف أجفانه كمقلة قد دبّ فيها الوسن
كأنه من صفرةٍ عاشـقٍ يلبس للبين ثياب الحـزن[3]

---

(١) الحميري، البديع، ص٣٨.
(٢) الحميري، المصدر السابق ، ص٩٧.
(٣) نفسه، ص٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولأحمد بن دراج القسطلي مقطوعة يصف فيها البهار شكله ورائحته، فغصونه زمرد، وأوراقه فضة، ونواره ذهب، وتنم هذه المشبهات عن الحياة المرفهة التي تنعم بها الأندلسيون، حتى استرق بريق الذهب والفضة ولمعان الأحجار الكريمة عقلهم، فأصبحوا يشبهون الأشياء الجميلة بها:

وهذا بشير الربيع الجديد ... يبشّرنا أنه قد قرب
غصون الزبرجد قد أورقت ... وصنع بديعٍ وخلقٍ عجب
بهارٌ غصون الزبرجد قد أورقت ... لنا فضةً نوّرت بالذّهبْ [1]

وله أيضاً في وصف النرجس :

شكلان من راحٍ وروضة نرجسٍ ... يتنازعان الشبه وسط المجلس
متباهيين تلوّناً بتلونٍ ... متباريين تنفساً بتنفس
لكن هذي بين أحشاء الفتى ... نار، وهذه جنة للأنفس [2]

٣- **النرجس الأصفر** : وهو نبت تويجاته بيضاء، وقلبه دائرة من ورق أصفر صغير، وورقة شبيه بورق الكراث [3]، ويسمى عبهراً [4].

وفيه يقول أبو مروان عبدالملك بن جهور:

واصفرّ حتى كأن الإلف يهجره ... وطاب حتى كأن المسك ينشره
واخضر أسفله من تحت أصفره ... فراق منظره الباهي ومخبره
يا نرجساً ظلّ قدّامي تنم له ... ريح تذكرني شوقي فأذكره
زمرذ ماثلٌ من فوقه ذهبٌ ... معين نابه منه ومحجره

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٣٢، الحميري، البديع في وصف الربيع، ص١٠٠ وانظر كذلك ص٥١.

(٢) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٣٣، البيتان ١، ٢؛ الحميري، البديع في وصف الربيع، وقد ذكر إنها في وصف النرجس، انظر ص ١١٦.

(٣) الأزهار ومدلولاتها، مجلة التراث الشعبي، العدد ٣، ٤، ص١٣٨.

(٤) علم الملاحة في علم الفلاحة، ص١٥٧، انظر النبات للأصمعي، ص٣٢، والنبات، الدينوري، ص٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هيجت لي شجناً قد كان فارقني ذكّرتني بالذي مازلت أؤثره[١]

٤- **النيلوفر**: ويقال اللينوفر والبينوفر، ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة، وأزهاره جميلة كثيرة العقالات، تعوم على الماء، وهذا النبات ينمو ويزداد عند ارتفاع الشمس ويذبل ويضعف إذا غابت، ثم يعود إلى حاله في اليوم التالي. [٢]

ويصف الرمادي بكل براعة ودقة أوراق النيلوفر التي تنغلق في الليل وكأنها تطبق على زمردة يطمع اللصوص في سرقتها، وبينما تغلق هذه الزهرة أوراقها تمتنع الزنابير التي قضت نهارها في امتصاص رحيق هذه الزهرة من الخروج فتبقى في داخلها، ويشبه الشاعر أوراق هذه الزهرة بجفون محبوبته التي لا تستطيع أن تسهر لتفكر به كما يفكر بها، أو كأنها كؤوس فضة قيعانها مفروشة بالزمرد الأخضر، فمنظرها بديع يمتع النظر، ونكهتها وعبيرها فيها المخبر،فيقول:

إذا سقى الله روضةً مطراً فخصّ بالسقي كل نيلوفر

تستّر أوراقه زمردة ليلاً وعند النهار لا تستر

خافت عليه اللصوص فاشتملت عليه ليلاً من خوف أن يظهر

إذا الزنابير [٣] من مغالقه لم تتحفظ فبينها تقبر

كأن أجفانه جفون الذي أهواه لا تستطيع أن تسهر

كأنها كوس فضةٍ فرشت قيعانها بالزمرد الأخضر

تنعم في حسنه ونكهته فأنت في منظر وفي مخبر[٤]

---

(١) الحميري، البديع في وصف الربيع، ص١١٥.

(٢) زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ص٤٥٦؛ وانظر محمود مصطفى الدمياطي، معجم أسماء النباتات، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٥، ص١٢٥.

(٣) الزنابير: جمع زنبور وهي النحل، وإنما عنى بالبيت انغلاق أوراقه ليلاً وقصد النحل دون غيرها لأن النيلوفر سمي قاتل النحل لطلبها أبداً كل ما داخل أوراقه، فربما فعلت ذلك وقت انغلاقه، فامتنعت من الخروج.

(٤) شعر الرمادي، ص٦٧، ٦٨، انظر الحميري، البديع، ص١٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولابن دراج القسطلي أبيات تدل على شدة اهتمام الشعراء الأندلسيين بالنوّريات والزهريات بل دقتهم في وصف كل ما يميّزها من صفات، فمثلما عبّر الرمادي عن صفة تفتّح زهرة النيلوفر في النهار وانغلاقها بالليل، عبّر ابن الدراج القسطلي عنها حين شبّه تفتح أوراقها بالنهار بكف رجل كريم معطاء، دائماً مبسوطة تجود بما فيها، أما تلك الأوراق في الليل حين تنغلق كأنها كف رجل بخيل لا يبسط لغيره من رزقه شيئاً، حيث عبّر عن ذلك بقوله : -

ونيلوفرٍ قمنٍ بالذبول ... يروق فيذبل عمّا قليل

يلاقي الصباح بيمنى جوادٍ ... ويخفي الظلام بيمنى بخيل

يبيح الضحى ما حوى من نسيمٍ ... ويمنعه عند وقت الأفول[1]

أما أبو بكر الزبيدي، فيرى زهرة النيلوفر عاشقاً يقضي نهاره متأملاً في وجه محبوبته، حتى إذا دنا الليل ودنا النجم منه انصرف محبوبه خشية هذا النجم الرقيب عليهما، لينام فيطبق جفنيه عله يحظى بحلمه فيرى طيف من أحبه فيقول :

وبركةٍ أحيا بها ماؤها ... من زهرها كل نبات عجيب

كأن نيلوفرها عاشق ... نهاره يرقب وجه الحبيب

حتى إذا الليل بدا نجمه ... وانصرف المحبوب خوف الرقيب

أطبق جفنيه عسى بالكرى ... يبصر من فارقه عن قريب[2]

٥- **الخيريّ (النمّام)** : وهو نبت له بزر كالريحان قوي الرائحة سميّ بذلك لسطوع رائحته فينمّ على حامله[3].

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٣٧.

(٢) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية -القاهرة، ط١، ١٩٣٥م، ج١١، ص٢٢١، ٢٢٢.

(٣) الدمياطي، معجم أسماء النباتات، ص١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اتخذ قسم كبير من الشعراء وصف النوريات مجالاً للمدح التكسّبي والإخواني، مستفيدين من اهتمام الخلفاء والأمراء بالأنوار وولعهم بها، ومن هؤلاء الشعراء أحمد بن دراج القسطلي، فهو في هذه الأبيات يصف الخيريّ مازجاً بين صفاته، وصفات ممدوحه:

غدا غير مسعدنا ثمّ راحا ... يساعدنا طرباً وارتياحا
وخيّر فاختار دين الغبوق ... ولج فليس يرى الإصطباحا
فإن آنس الصبح نام وشحّ ... وإن آنس الليل نمّ وفاحا
كما خيّر الله عبدالمليـ ... ـك فاختار في راحتيه السماحا
وفي صهوات الخيول الرجال ... ومن أدوات الرجال السلاحا[1]

ومن صفات الخيري أنه ينشر عطره ليلاً، ويمنعه في النهار، وقد استفاد الشعراء الأندلسيون من هذه الصفة فتناولوها في نوْرياتهم كثيراً، إذ أوحت هذه الصفة لهم بأن يشبهوه باللص أو السارق، فابن الشالية[2] يصفه بأنه لص يتزهد في النهار رياءً ويتلصص ليلاً :

وكأنما الخيري قد أدى لنا ... أسراره عن نشر مسكٍ أدفرا
لص يرائي في النهار زهادةً ... خوفاً ويقطع ليله متشطرا[3]

أما الرمادي، فقد تفوق على ابن الشالية في نعته النمام الخيري بهذه الصفة إذ يقول:

انظر غرائب للخيري ظاهرة ... عند الظلام وعند الصبح تستتر
كأنه سارقٌ طيباً تفرق في الظ ... ظلماء فهو بنم الريح مشتهر[4]

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٣٤؛ الحميري، البديع، ص١٠٩، ١١٠.

(٢) ابن الشالية : لم أعثر على ترجمته.

(٣) ابن الآبار، الحلة السيراء، ج١، ص٢٣٢.

(٤) شعر الرمادي، ص ٦٩-٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦- **الخيري الأصفر** : ويسمى المنثور أيضاً، وهو نبات معروف مختلف ألوان الزهر من أبيض وأصفر وأزرق، وأحمر قانٍ، وعصفوري منسوب إلى صبغ العصفر، وسماوي، وما فيه بياضٌ وحمرة، ومنه الأسود[١] ، يقول ابن دراج في الخيري الأصفر:

أعارهُ النرجس من لونه ... تفضلاً وازداد من طيبه

وناسب النمام لما انتمى ... إلى اسمه الأدنى وتركيبه

وما يجاري واحداً منهما ... إلا كباقي ريح تقريبه[٢]

٧- **الترنجان**: وهو نبات عطري بري أزرق الزهر، ينبت في أوروبا الجنوبية والشرق الأوسط.[٣]

وفي هذه الأبيات التي قالها أبو علاء صاعد الأندلسي، ما يجسد في أذهاننا الترنجان بجماله وجمال قضبانه وأوراقه حتى كأنها الزمرد، أما رائحته فغاية في الطيب، مما دفع الأترج لسرقة نكهته لجمالها، فكأن الأشجار تتخاطف الرائحة الأجمل وكأنها تسرق كما يسرق بنو البشر، وهذه الرائحة من طيبها كفيلة أن تنسي من يشمها هموم الدنيا وكأنها كأس خمر :

لم أدر قبل ترنجانٍ علمت به ... أن الزمرد قضبان وأوراق

من طيبه سرق الأترج نكهته ... يا قوم حتى من الأشجار سرّاق

يشارك الخمر في نفي الهموم إذا ... ما شمه مؤثر بالهجر مشتاق[٤]

---

(١) النابلسي، علم الملاحة في علم الفلاحة، ص١٦٠.

(٢) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٣٤.

(٣) رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، نقلة إلى العربية: د. محمد سليم النعيمي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢، ص٤١.

(٤) المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٣، ص١١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨- **الياسمين** : نبات ذكي الرائحة له تويجات متحدة القعالات، منبسطة الأوراق، وهو نوعان أبيض وأصفر، فالأبيض مشرب بالحمرة، والأصفر أعرض منه، وهو دائم النوار غير أن معظمه في القيظ[١].

ها هو ذا الرمادي يصف لنا روض ياسمين، وقد تراءى له نواره فيه كأنه أكفّ حورٍ بلا سواعد، وقد عبر عن ذلك بقوله:

انظر إلى روض ياسمين ... لم يرد الورد وهو وارد
كأنه عدةً ولوناً ... أكف حورٍ بلا سواعد[٢]

وقال أبو عمر أحمد بن فرج الجياني يصف بقاءه ويقرّض وفاءه:

ليس كالياسمين نور الرياض ... وهو باق والنور أجمع ماضي
فاقض بالفضل للوفاء على الغدْ ... ر تكن إن حكمت أعدل قاضي[٣]

٩- **الريحان** : وهو نبات معروف، ولم نجد إلا مقطوعة واحدة للرمادي في وصفه قالها عندما راعه رؤية هذا النبت في غير أوانه، فعبّر عن ذلك بقوله:

خلوف[٤] من الريحان راقت كأنها ... وإن حسنت في لحظنا لمّ شعث[٥]

١٠- **زهر الرمان (الجلنار)** : وهو زهر شجرةٍ شبيهةٍ جداً بشجرة الرمان تزهر ولا تثمر.[٦] وجلنار معرب كلنار بالفارسية وهذه الأبيات لابن هانئ، نلاحظ فيها شغفه بزهرة الرمان وإعجابه بها، حيث خصها بوصفٍ مستقلٍ فهو يقول في كمامة نوارة سقطت منه :

---

(١) أبو عمر بن حجاج الإشبيلي، المقنع في الفلاحة، تحقيق د. إبراهيم حمد مهاوش الدليمي، ١٩٨١م، ص١٧٩، انظر معجم أسماء النبات ص١٦٠.

(٢) شعر الرمادي، ص٦٣، انظر. الحميري، البديع في وصف الربيع، ص٩١.

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص٩١.

(٤) الخلوف: الوردة التي تطرأ في غير أوانها. انظر لسان العرب، مادة: خلف.

(٥) شعر الرمادي، ص٥٧.

(٦) انظر الأزهار ومدلولاتها عند العامة، مجلة التراث الشعبي ، عدد ٣،٤ ، ص ١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبنت أيكٍ كالشبـــاب النضْـــر كأنها بيـــن الغصـــون الخضـــر
جنان بازٍ أو جنـــــان صقـــرِ قد خلفتـــه لقـــوة بوكـــــر
كأنما مجتْ دمـــاً مـــن نحـــر أو نشأت في تربـــــة جمـــر
أو رويت بجـــدول من خمـــر لو كّف عنها الدّهْر صرف الدّهر
جاءت بمثل النهد فوق الصّدْر تفتر عن مثل اللّثـــات الحمْـــر
في مثل طعم الوصل بعد الهجر (١)

وكان بعض الشعراء يصف نواوير عدة في قطعة واحدة، من هذا قطعة ليحيى بن هذيل يقول فيها:

حديقة نفس تملأ النفـــس بهجـــةً وتثنى عيون الناظرين بها حسرى
كأن جنّي الجلّنـــار وورده‍ـــــا عشيقان لما استجمعا أظهرا خفرا
كأن جنى سوسانها في سنا الضحـــى كؤوس من البلّور قد حشيت تبرا
كأن عيون النرجس الغضّ بالنـــدى عيون تداري الدمع خيفة أن يدرى
كأن جني الخيري في غبش الدجـــى نسيـــم حبيـــب زار عاشقه سراً
كأن ينابيـــع الميـــاه مراجـــل تفور وقد أذكت لهن الحصى جمرا(٢)

فهو في هذه المقطوعة يصف حديقة تعج بأنواع وألوان مختلفة من الأزهار والورود، وقد حلق خيال هذا الشاعر في الآفاق ليبدع تشبيهات بديعة، فوصف الجلنار والورد كأنهما عاشقان، والسوسان كؤوس من البلور، وعيون النرجس الغض بالندى كأنها عيون تداري الدمع، حتى لا ينفضح أمرها وكأن الخيري في الدجى هو نسيم حبيب غامر فزار حبيبه في السر، وكأن المياه في الحديقة مراجل تفور فيها المياه.

---

(١) د. زاهد علي، تبيين المعاني في ديوان ابن هانيء، ص٣٢٩، انظر الحميري، البديع في وصف الربيع، ص١٥٩.

(٢) الحميري، المصدر السابق، ص٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د- وصف الثمريات والخضر :

كان لابد من أن يستثير شاعرنا الأندلسي منظر الثمرة، وهي متألقة على الغصن غضةٍ شهية، تفيض بالنضرة فتملأ العين سحراً والنفس بهجةً، إن التفاحة بنعومتها وأرجها، والنارنجة على غصنها، والسفرجلة بطفولتها وإغرائها، والرمانة بحسنها وتمنعها، كل ذلك كان مصدر وحي لشعراء الأندلس، وإن لم يكن بالقدر الذي أوحت به الرياض والأزهار. وبين أيدينا مقطوعات شعرية عديدة في وصف ثمر الرمان والكمثرى والسفرجل والعنب ومن ذلك ما نظمه أحمد بن عبد ربه في العنبِ ضمن بيتين من الشعر، يشبه فيهما العنب الأبيض ببنات الروم، والعنب الأسود ببنات الحبش، حيث قال:

أهديت بيضاً وسوداً في تلونها كأنها من بنات الروم والحبش
عذراء تؤكل أحياناً وتشرب أحيـــــاناً فتعصم من جوعٍ ومن عطش[1]

أما يحيى بن هذيل، فيصف سلة من العنب الغض الأحمر كأنه الياقوت بين أيدي التجار، فيقول :

وبسلٍّ فيه من العنب الغض ض شبيه العنّاب في الإحمرار
رق منه أديمه فهو كاليا قوت يستام بين أيدي التجار
وغذته الأيام فهو أنابيـ ـب طول على جفانٍ[2] قصار[3]

أما ثمرة الكمثرى، فهي من الثمار التي أعجب بها الأندلسيون، فوصفوها بدقة، ووصفوا رائحة هذه الثمرة وشكلها ولونها فأبدعوا في ذلك، وهذا أحمد بن فرج الجياني يشبه ثمار الكمثرى بالغيد العواطر التي تنفح منها رائحة الطيب وقد قطفت من قضب نواضر..، وهؤلاء يأتين في حلل خضراء من لون الربيع وصفراء

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص٨٤.

(٢) الجفان: جمع جفن وهو قضيب العنب، ويعني هنا أصله، انظر لسان العرب، مادة : جفن.

(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من لون الزهر، وكأن أصغر هذه الثمار دقاق كواكب تأملها ناظر من بعيد فبدت في نظره صغيرة دقيقة، أو كأنها الخمرة في أكياس صغيرة، وهذه الثمار تشبه من أهدى إليه الجياني هذه الثمار في شكلها الجميل ورائحتها الذكية، وكأنها تشبهه في حسن المخبر والمنظر فيقول:

جنيت من القضب النواضرْ ... فأتتك كالغيد العواطرْ
يلبسن من برد النعيم ... ملابساً غضّ المكاسرْ
ما بين مخضر الربيع ... وبين مصفر الأزاهرْ
وكأن أصغرها دقا ... ق كواكب في عين ناظرْ
أو مثل صفراء المدا ... مة في أكياسٍ أصاغرْ
متنفساتٍ في الأنو ... ف بمثل أنفاس المجامرْ
حلو ضمائرها كما ... يحلو الهوى لك في الضمائرْ
أوْ مثلما تحلو القلو ... في من لسان فيك شاكرْ
وكأنما هي منك في ... حسن المخابر والمناظرْ
وكأنها من شكْرها ... تملا البطون إلى الحناجرْ (١)

وليحيى بن هذيل بيتان لطيفان في وصف خوخة يقول فيهما :

في نصفها من خجلها حمرة ... وبينها طرق لطاف دقاقْ
كأنها في بعضها عاشق ... زاحمها للّثم أو للعناقْ (٢)

وهذا أحمد بن فرج الجياني قد أخذه منظر الرمانة على غصنها، فتوقف أمام روعة المشهد فكأن القشرة صدف أصفر، وكأن ما بداخلها من بذور جواهر المرجان الأحمر تشبه لثات الحبيب برضابها ومنظرها:

ولابسة صدفاً أحمرا ... أتتك وقد ملئت جوهرا

---

(١) الكتاني، المصدر السابق، ص٨٧-٨٨.

(٢) نفسه ، ص٨٥-٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنك فاتح حقّ لطيف تضمن مرجانه الأحمرا
حبوباً كمثل لثات الحبيب رضاباً إذا شئت أو منظرا
وللسفر تُعزى وما سافرت فتشكو النوى أو تقاسى السُّرى
بلى فارقتْ أيكها ناعماً رطيباً وأغصانها نضّرا
وجاءتك معتاضة إذا أتتك بأكرم من عودها عنصرا
بعودٍ ترى فيه ماء الندى ويورق من قبل أن يثمرا
هدية من لو غدت نفسه هديته ظنّه قصرا (١)

فالجياني يصف في هذه القطعة الرمان السفري بالذات، وهذا النوع من الرمان هو "المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم، ورقة العجم، وغزارة الماء وحسن الصورة".(٢)

وله بيت آخر في وصف الرمان، إذ يشبهه بالجوهر المكنون في الصدف حيث يقول:

ثمر أتاك جناه في غُلُف كالجوهر المكنون في الصدف (٣)

ومن القطع المتميزة في وصف الثمار ما نظمه الحاجب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي في وصف سفرجلة، فمقطوعته فيها المعنى الجميل والشكل الأنيق، ألفاظها عذبة رقراقة، ومعناها ينم عن دقة الشاعر وتغلغله في وصف الثمرة الماثلة أمامه، حتى غدت في ناظريه كياناً يشاركه كثيراً من الأحاسيس والآلام التي يحس بها... إنه لم يترك شيئاً في هذه الثمرة إلا وقف عنده وأبرز جماله، فهي مصفرة كأنها تلبس ثوباً من النرجس، ورائحتها العبقة كأنها المسك الذكي، إنها المحبوب

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ١٦،١٧.
(٢) المقري، المصدر السابق، ج٢، ص١٦.
(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في رائحته وجماله وقسوة قلبه، بل إن صفرتها من صفرة الشاعر الذي أضناه الشوق والحب فأصابه السقم وعلت وجهه الصفرة :

ومصفرة تختال في ثوب نرجسٍ ... وتعبق عن مسكٍ ذكي التنفس
لها ريح محبوبٍ وقسوة قلبه ... ولون محبٍّ حُلة السقم مكتسي
فصفرتها من صفرتي مستعارة ... وأنفاسها في الطيب أنفاسُ مُؤنسي
ولما استتمت في القضيب شبابها ... وحاكت لها الأنواء أثواب سُندُس
مددت يدي باللطف أبغي اجتناءها ... لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي
وكان لها ثوب من الزغب أغبرٌ ... يرف على جسم من التبر أملس
فلما تعرتْ في يدي من برودها ... ولم تبْق إلا في غلالة نرْجس
ذكرْت لها من لا أبوح بذكْره ... فأذبلها في الكف حر التنفس[1]

وهكذا نرى أن شعر الثمريات الأندلسي في عصر الخلافة فيه صور تدل على محاولات جاهدة يبذلها الشعراء ليرقوا بمستوى شعر الطبيعة، حيث امتلأت صورهم في هذا المجال بالصور الطريفة والمنتزعة من واقع حياتهم، والممتزجة بأرق مشاعرهم وأحاسيسهم، ولعل أكثر ما يلفت نظرنا هو ذلك التأثير المتبادل بين الشاعر والطبيعة، فالثمرة في شعر الأندلسي غدت كياناً يشاركه اللوعة والحب والشكوى، حتى إنها تبلغ أحياناً درجة التوحد معه في كل ما يشعر.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ١٢٦، ١٢٧، والبيت السادس زيادة من الحلة السيراء، ج١، ص ٢٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني
الطبيعة الصائتة

أولاً : وصف الحيوان

ثانياً : وصف الطيـور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبيعة الحية جزء من البيئة التي تؤثر في مشاعر الشاعر، وترسم حوله لوحات تلامس أحاسيسه وتستنفر مشاعره، فتستل منه أعذب الأشعار وأروع الصور، وقد برز تأثير هذا الجزء من الطبيعة على الشعراء القدامى والمحدثين، فوصف العديد من شعراء العصر الجاهلي حيوانات مفترسة وأخرى أليفة، وطيوراً جميلة مرقشة يدعو صوتها إلى التفاؤل، وأخرى سوداء كان صوتها مصدراً للتشاؤم، كما وصفوا زواحف وفراشات مختلفة أنواعها وأشكالها.

ومن أمثلة ذلك ما قاله امرؤ القيس في وصف فرسه[١]، وما وصف به طرفة بن العبد ناقته[٢]، و لم يخل عصر من العصور الإسلامية المتعاقبة بعد ذلك من وصف لعناصر هذه الطبيعة الحية[٣].

وعناية الأندلسيين بهذا النوع من الوصف ليست غريبة، فالبيئة التي أحاطت بشعرائهم المرهفي الحس، مليئة بعناصر الطبيعة الحية التي كانت تشكل أجمل اللوحات الفنية، وهي تنتقل بين الخمائل، وتحت ظلال جنات الأندلس رائعة الجمال، كما أنها كانت تتبختر على بسط من السندس مما زادها جمالاً وإغراءً وحسناً دفع هؤلاء الشعراء إلى وصفها والتغني بها.

لقد وصف الأندلسيون أنواعاً مختلفةً من الحيوانات كالخيل والإبل والزرافة والكلب والذئب والأسد، كما وصفوا الطيور مثل الحمام البازي والدستبان والغراب والديك، هذا وقد وصفوا بعض الحشرات التي كانت ترى في بيئتهم، كالنحلة والعقرب والبرغوث، و لم يفتهم وصف بعض الزواحف مثل الحية والثعبان

---

(١) التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، ص ٥٥، ٧٦.

(٢) التبريزي ، المرجع السابق، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٣) انظر كتاب د. سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي، مصر، القاهرة، ١٩٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغيرها.[١] وفي عصر الخلافة ما يدل على اهتمام الأندلسين بوصف الطبيعة الحية في الأندلس، وقد تناولنا في هذا الفصل بعض المقطوعات الدالة على ذلك بالدراسة والبحث.

أولاً : وصف الحيوان ...

أ- وصف الخيل :

منذ القدم، كانت الخيل تحظى باهتمام العربي، فهي الراحلة التي تعينه على التنقل والترحال، وهي رمز الجود والكرم والشجاعة والفروسية ورمز السيادة والرياسة، فحريّ بهذا العربي أن يذكر محاسنها ويتغزّل بجمال أوصافها، ويعتز بما تحقق له من البطولات والانتصارات، وما شعراء الأندلس إلا ممثلون لحقبة تاريخية عربية ينطبق عليها أغلب ما ينطبق على غيرها.

فقد نالت الخيول من اهتمام الشاعر الأندلسي ما نالته من اهتمام غيره من الشعراء العرب، وكان لهذا الاهتمام أسبابه التي دفعت الشعراء في الأندلس إلا أن يذكروا محاسنها ويطيلوا في وصفها ويتفاخروا بها، ومن هذه الأسباب:

١- تشجيع الخلفاء وحبهم للأدب والشعر ودعمهم للأدباء والشعراء.

٢- كون الخيل من أهم أسلحة الحرب آنذاك.

٣- ما للخيل من ذكريات، وما لها من فوائد في مختلف ميادين الحياة وجوانبها.

والدارس لتاريخ الأندلس يجد أن الخيل كانت موجودة فيها قبل الفتح الإسلامي لها، وأن الفاتحين المسلمين غنموا عدداً كبيراً من الخيول بعد المعركة الفاصلة التي خاضوها ضد الإسبان وأسفرت عن فتح إسبانيا وقيام الدولة الإسلامية

---

(١) انظر كتاب د. سعد اسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (عصر ملوك الطوائف)، طبعة جدار النهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٤٧، ١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الأندلس، وقد أشارت المصادر إلى ما يثبت أن الخيل في الأندلس كانت موجودة قبل الإسلام، ومنها ما يقوله أحد المؤرخين بعد أن ذكر المعركة الفاصلة: "..... ولم يكن بقي من المسلمين راجل إلا ركب"(١).

ثم استمرت الفتوحات الإسلامية في الأندلس، ونظراً لأهمية الخيل ودورها في هذه الفتوحات، بالإضافة لما لها من فوائد واستخدامات في مجالات الحياة المختلفة، وما لها من ذكريات في نفوس الأندلسيين، حيث ساعدتهم على استكمال الفتوحات واستكمال بسط نفوذهم على بقية أصقاع الأندلس، فقد خلّف لنا أدباء عصر الخلافة وشعراؤه قدراً وافراً من الأشعار التي تصف هذا الحيوان من حيث المظهر واللون والقوة والسرعة والأصالة.

وفي عصر الخلافة برز الأديب الشاعر يحيى بن هذيل، الذي رسم لفرسه الأدهم صوراً فنية رائعة بأشعاره، وقد وصف الخيل في العديد من الأبيات والقطع الشعرية وهذه واحدة من الصور التي رسمها:

وذو خضرةٍ مقسومةٍ شقّ بينها ... بياض كعرض السيف لم يتثلم
هو الصبح إلا أنه حان ليله ... فقسّمه شطرين في جلد أدْهم
إذا لاح في حيزومه فكأنه ... عليه نظام فوق جيدٍ ومعصم
إذا مرّ لم يدخل ممراً كأنما ... سقوه مداماً بالكبير المفدّم(٢)

إن هذه اللوحة التي تكونت من مجموعة من الصور الفنية تدل على عمق خبرة هذا الشاعر في الخيول وصفاتها، فركز على وصف لون الجواد، رسم له صورة تشبه روضاً أخضر يشقّه مجرىً مائي، كما وصفه بالصبح في ضيائه وإشراقه

---

(١) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨١، ص١٠.

(٢) الكتاني، التشبيهات، ص١٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا أن الليل داهمه فقسمه نصفين، وراح يكمل الصورة لتكتمل لوحته الفنية، فصوّره كالعقد الذي يتلألأ في الجيد أو السوار الذي يزيّن به المعصم.

وفي البيت الأخير، استعان الشاعر يحيى بن هذيل بما يحيط به من مظاهر اللهو والمجون، ليضفي على لوحته ألوان الفرح والبهجة، وليظهر جواده في أروع الصور التي ألفها الناس في ذلك العصر، فوصف جواده بالجمال والدلال والمشي كما يمشي الثمل الذي شرب الرّاح المصفّى.

ويقول ابن هذيل في وصف الفرس كذلك :

ومحجّل[١] حرّ كأن أديمه ... سبجٌ[٢] يكاد يسيل مما يلصف[٣]
يلقاك أوله بأصبح غرةٍ ... من تحت ناصيةٍ عليها تعكف
فإذا هفتْ من فوقها تحكي لنا ... قمراً يغيب بالظلام ويكسف
ملآن من ريعانه فكأنه ... رشأ لأخفى نبأةٍ يتشوف[٤]

وهذه لوحة أخرى يرسمها هذا الشاعر لفرس أصيل يتصبب عرقاً فتتلألأ حباته كما تتلألأ خرزات العقد على صدر الحسناء، ويشبه غرته البيضاء بقمر يغيب خلف شعر رأسه الذي يهفف عليه، كما يغيب القمر مكسوفاً عندما تحجبه الأرض عن الشمس، ثم يعود ليطل مرة أخرى وضاءً ساحراً.

إنها لوحة تعكس دقة الملاحظة عند الشاعر، وقدرته على تكوين لوحات فنية متكاملة بربط الأجزاء المكونة لهذه اللوحات، كما تدلنا على مدى عشق ابن هذيل لفرسه وشدة إعجابه به، ومما قاله يحيى بن هذيل في الفرس :

وماجن صوت معشوقٍ إذا اجتمعت ... ألحانه وهي شتى نبهتْ قلقي

---

(١) محجل: الفرس المحجلة أي التي تكون قوائمها فيها بياض أنظر لسان العرب مادة: حجل.

(٢) سبج: خرز العقد الأسود. انظر لسان العرب مادة سبج.

(٣) يلصف: يتلألأ ويلمع، انظر المرجع السابق، مادة صلف.

(٤) الكتاني، التشبيهات، ص١٩١، ١٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنّ نغــض عذاريــه إلى فمـــــه ... كأس مفتحة من خالص الــورق

كأن عينيـــه مـــــن ياقوتتيـــن إذا ... ما كانتا في صفا ماءٍ إلى الــزرق

كأنما سرجه في ظهــــر كاســـرةٍ ... أو حاصبٍ يتوقّى بــرق منبْعــق

كأنما هــو محمـــــول علـى أدبٍ ... فليس يلحق في ساقٍ ولا عنــق(١)

يبدو لمن يمعن النظر في هـذا النص أن لشاعرنا حساً مرهفاً امتزج بروعة الطبيعة التي أحاطت به، فكوّن شخصيته وصوره الشعرية، ومن هـذا النص نجد أن الشاعر يصف فرسه وصفاً لا يعزله عن نفسه وأعماقه، فحمحمة الفرس أثارت كوامن مواجعه القديمة، ذلك أن صهيل الفرس إذا ما جمع إلى بقية الصور المرسومة في مخيلة الشاعر، فإنه يؤلف معها لوحة موسيقية تشكل ألحاناً شجية،توقظ خواطره، وإذا ما تحرك لجام الفرس أبان عن فمٍ صورته وهو مفتوح بأسنانه البيضاء اللامعة، كصورة الكأس المجلوة المصنوعة من الفضة الخالصة.

ويستمر الشاعر في رسم الصور الفنية لفرسه، فيصور عينيه بلونهما الأزرق كأنهما ياقوتتان في وسط إناء به ماء ضارب إلى الزرقة من شدة صفائه، وأما سرجه فيحميه من الرياح والأمطار، مثله في ذلك مثل كواسر الطير تحتمي بريشها من الرياح العاصفة والأمطار المنهمرة.

ولهذا الفرس صفات تميزه عن غيره، منها مهارته وبراعته وسرعته، وكأنما اكتسب تلك الصفات بالتعلم والدربة حتى أصبح ذلك طبعه وصنعة لازمة له، فقد تميز بساقه وعنقه حتى فاق غيره من الخيل، وما هذا التميز في ساقه وعنقه إلا كناية عن تميزه في كل صفاته، ويمضي ابن هذيل في وصف فرسه فيقول :

وقصير الظهر مرفوع الخطى ... تامك الحارك نهدٍ معتـــدلْ

وهو محـــزوم على حيزومه ... ببيــاضٍ في أديمٍ قد صقــل

فترى الليل علـــى مقدمـــه ... شطره فيه وشطراً في الكفل

---

(١) الكتاني ، التشبيهات، ص١٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكأن الصبح فاجـــاه فلــم   يستطع من كده أن يتصـــل
أو كأنّ السيف في موسطه   بين قينين لإصلاح الفلـــلْ
أو كأن البدر فيه أطبقـتْ   فوقه مظلمـة ثـم أطـلّ (١)

بريشة الفنان القدير، مزج ابن هذيل ألوانه وأبدع أجزاء لوحتـه الفنيـة، فبـدأ برسم الأجزاء مختاراً لها أجمل الأوصاف، وعندما أخرجها بشكلها النهائي بدت لنـا صورة مكتملة تنبئ عن فرسٍ في غاية الجمال والروعة. وعناصر الصورة التي أوردها الشاعر في الأبيات السابقة هي صورة الفـرس قصير الظهـر مرفـوع الخطى، أعلى كاهله مرتفع، معتدل، له في صدره بياض ناصع كأنه شطر جلده شطرين، أحدهما في مقدمته والآخر في كفله، وهذه الصورة أشبه ما تكون بصورة ليلٍ فاجأه الصبح فشقّه بنوره و لم يستطع بعدها أن يداوي هذا الشقّ المنير وسط الظلمة فلم يلتئم.

ثم عاد الشاعر ليشبه فرسه والبيـاض الـذي يتخلـل لونـه بقينـين أسـودين، توسطهما سيف يلمع، يقومان على إصلاحه، أو كأن هذا البياض ضياء بدر في ليلة غائمة حجبت إحدى غماماتها السوداء نور هذا القمر ثـم أطـل مـن خلفهـا ليبـدو واضحاً منيراً.

هذه الصور الفنية المتقنة، جمعها الشاعر في لوحة جميلة تقول لمـن يستمع إلى هذه الأبيات إن هذا الشاعر صانع ماهر، أثرت فيه الطبيعـة الـتي تحيـط بـه مـن ليـل هادئ وصبح شاعري وقمر منير في الصيف والشتاء.

و لم يقتصر وصف الخيل في عصر الخلافة على الشاعر يحيى بن هذيـل، فهـذا الشاعر محمد بن هانيء الأندلسي يصف هدية القائد جوهر الصقلي إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في سياق مدحه للخليفة الذي كانت هديته سبعة وأربعـين فرسـاً

(١) الكتاني، التشبيهات، ص١٩٢، ١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأحلّة من حرير منقوش وسروجٍ ولجمٍ كلها ما بين ذهب وفضة[1] فكان وصفه لها وصفاً خلدها بصورة تجسدها وكأننا نراها رأي العين وهي تختال بكامل زينتها، فقد أبدع في وصفه، فبدأ يوزع الألوان بعد أن وضع الإطار العام للوحته، وعندما اكتمل رسم اللوحة، راح يتعجب من قدرة الله وروعة صنعه وتحدث بألسنة العديد من الطيور والمخلوقات التي تمنت أن تفقد ما يميزها، على أن تفوز بما فازت به هذه الخيول، حيث عبر عن ذلك بقوله:

وما خلت أن الروض يختال ماشياً ... ولا أن أرى في أظهر الخيل عبقرا
غداة غدت من أبلقٍ ومجزعٍ ... وورد ويحموم وأصدى وأشقرا
ومن أدرع قد قنع الليل حالكاً ... على أنه قد سربل الصبح مسفرا
واشعل ورديّ وأصفر مذهبٍ ... وأدهم وضاحٍ وأشهب أقمرا
وذي كمتةٍ قد نازع الخمر لونها ... فما تدعيه الخمر إلا تنمرا
محجلة غراً وزهراً نواصعاً ... كأن قباطيا عليها منشّرا
ودهماً إذا استقبلن حواً كأنما ... عللن إلى الأرساغ مسكاً وعنبرا
يقر بعيني أن أرى من صفاتها ... ولا عجب أن يعجب العين ما ترى
أرى صوراً يستعبد النفس مثلها ... إذا وجدته أو رأته مصورا
أفكّه منها الطرف في كل شاهد ... بأن دليل الله في كل ما برا
فأخلس منها اللحظ كل مطهم ... ألذ إلى عين المسهد من كرى
وكل صيود الإنس والوحش ثم لا ... يسائل أي منهم كان أحضرا
تود البزاة البيض لو أن قوتها ... عليه ولم ترزق جناحاً ومنسرا
وودت مهاة الرمل لو تركتْ له ... فأعطت بأدنى نظرةٍ منه جؤذرا[2]

---

(١) انظر المقريزي، تقي الله أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٤٨م، ص ٧٩.

(٢) د. زاهد علي،تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هاني، ص٣٥٥-٣٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة امتزج جمال اللون فيها بخفة الحركة، فتكونت لوحة فنية تحكي قدرة الله العلي القدير، وتضع أمام ناظري كل من يمتع ناظريْه برؤية هذه الخيول المطهمة صورة الجمال الحقيقي الذي يستعبد النفس.

والمتأمل في الأبيات السابقة، يجد أن الشاعر يرى الجواد من خلال ما يمتاز به من الجمال والرشاقة واختلاف الألوان وتباين المظاهر بما يبدو فيه من زينة وبهاء.

ثم يعقد مقارنة بين ما تتحلى به صيود الإنس والوحش وما يتحلى به الجواد، فيفضل الجواد على كل الحيوانات الجميلة، ويقدمه لقوته وسرعته الفائقة.

كما نلاحظ أن الشاعر ركّز على اللون، إذ رأى أن كل ألوان الخيل جميلة، وعقد المقارنات بينها وبين ما ألفت عيون الناس في ذلك الزمان من مظاهر الطبيعة، ومن عادات كالصيد والتمتع بجمال الطبيعة الأندلسية.

وأما المعاني التي جاء بها الشاعر في الأبيات السابقة فتدل على ذوقه وخياله الواسع وقدرته على رسم الصور البيانية وابتكار المعاني، ففي كل بيت فكرة تامة المعنى والمبنى، وقد استوقفني البيت التاسع لما فيه من جمال التعبير ودقة التصوير، فصورة الجواد إذا تراءت لعين الشاعر التي لا تملك إلا أن تتمتع به، أكبر شاهد على قدرة الله وروعة تصويره لهذا الجواد.

فما تقدم دليل على صدق عاطفة الشاعر، ومدى انفعاله لّما شاهد هذه الخيول، ودليل على تمازج الشاعر مع الطبيعة الحية، شأنه شأن غيره من شعراء عصر الخلافة الأموية في الأندلس.

ولدينا لوحة أخرى لفرس أبدع صاعد بن الحسن اللغوي في وصفه فقال:

وأغر حتف الوحش خاض بأربعٍ ... ماء اللجين فوق لون شواتها

وكأنه لما ترصّع حليةً ... بذر الثريا في دجى ظلماتها

ريان حيث تليله ظمآن حيـ ... ـث قصوصه لزتْ إلى دأياتها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تعدلنْ أبداً برجـــع صهيلــه   شذْو الولائد رجعت نبراتهــا[١]

إن الأبيات السابقة لوحـة لجـواد أغـر محجـل يزدهـي بحللـه، رسمهـا الشـاعر مستعيناً بصفات الثريا التي تتلألأ في ظلام دامس ليشبه بها الزينة التي تجمـل الفـرس، ثم حرص الشاعر على تزويد لوحته باللمسات الفنية فوصف عنـق الجـواد وعظـام كتفه وربط الصوت مع الصورة حتى كادت اللوحة تنطق بصوت عـذب لا يعدلـه أجمل الأصوات.

إذن فالصورة السابقة على ما فيها من روعة الوصف، وجمـال التصويـر، وروعة الربط، وقوة العبارة، وتماسك المعاني، أدت إلى زيادة جمـال صـورة الجـواد وحسن منظره، وهذا دليل على أن الشاعر الأندلسي في عهد الخلافة الأمويـة وقـف على موضوع وصف الخيـل بجدية، وأبدع في هـذا المجـال، كمـا أبـدع غـيره مـن الشعراء في العصور الأخرى.

ويذهب الرمادي في وصف جواده مذهبـاً آخـر، حـين يسـتعير لـه صفـات المحبوبة في جمال شكله، وصفات الوهم في سرعة غيابه عن النظر، معلناً أن جمالـه لا يقتصر على مظهره، بل يتعدى ذلك إلى مخبره، ثـم يصـف الزينـة الـتي توضـع عليـه كالسرج فتزيده ألقاً، وانتقل بعد ذلك إلى وصف بعـض أجـزاء جسـم الجـواد الـتي تساهم في صنع قوته وتظهره بمظهر البطل الذي يحفر الأرض، بحوافره، فيقول:

وأقب كالمحبوب حسناً لم يجـدْ   كصفاته لو حد في تمثـــال

في سرعة الأوهام ليس كجريــه   في البعد إلا خلْبــة الآمـال

ذو منظرٍ حسنٍ تضمن مخبـــراً   حسناً فكان لزينةٍ وقتـــال

ألقوا عليه حليــه فبـــدا لنـــا   فيه كما تبدو العروس لجال

وكأنما يزهى بما يعلـــوه مـــنْ   حليٍ فيمشي مشية المختال

حطمتْ حوافره السلام صلابـةً   فكأنها من أوجه البخـــال [٢]

---

(١) الكتاني، التشبيهات ، ص ١٩٥، ١٩٦.

(٢) الكتاني، المرجع السابق، ص١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه أبيات أخرى للرمادي وهي تصلح مثالاً لمعظم أشعار وصف الخيل التي تغنى بها شعراء عصر الخلافة الأموية في الأندلس فهي تصف الأغراض التي يستخدم فيها الجواد، فالشاعر في البيت الأول يصف مظهر جواده ويحاول البحث عن صور في غاية الجمال ليصل بها إلى أجمل صورة كما في البيتين الثاني والثالث حيث يقول:

وأبلق من شرط الكمي لزينةٍ ... وإحراز ميدانٍ ويوم قتال

له لبب من شهبةٍ بين دهمةٍ ... كعام صدودٍ بعد يوم وصال

تدرع بدر التمّ نوراً وظلمةً ... ولبب في حيزومه بهلال [1]

إنها صورة لفرس متميز في شكله الخارجي، وفي حصوله على قصب السبق في كل منازلة، وفي كرّه وفرّه يوم المعارك والنزال، وفرس تجتمع فيه هذه الصفات فرس أصيل دون شك.

لقد بدأ الرمادي يفصل في وصف جمال فرسه حين شبه الطوق الأشهب الملتف حول عنقه والمقرون بدهمة لونه بعام هجران عشيق لمعشوقته جاء بعد يوم واحد من الوصال.

وكان وصف الخيل يدخل ضمن مدح الحكام والخلفاء، لأن من يمتلك الحصان الجميل القوي السريع إنما يمتلك واحدة من الأدوات التي تقدمه على غيره، وقد وصف الشاعر محمد بن هانيء الأندلسي الخيل في قصيدته التي يمدح فيها المعز لدين الله ويهنئه بشهر رمضان المبارك قائلاً :

للأعوجيات[2] التي إن سوبقت ... سبقت وجري المذكيات غلاء

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص١٩٣، ١٩٤، وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الذخيرة، لابن بسام، الجزء الثاني، ص٤٦٧، بزيادة البيت الثاني بعد البيت الأول :

وخضرته ثلث وللثاه شهبة ... فاخضر قدام وأشهب قال.

(٢) الأعوجيات: ضرب من جياد الخيل تنسب إلى أعوج: حصان لبني هلال. انظر لسان العرب مادة عوج.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والطائرات السابحات السابقـــا ت الناجيات إذا استحث نجاء
فالبأس في حمس الوغى لكماتهـا والكبرياء لهـــنّ والخيـــلاء
لا يصدرون نحورها يوم الوغـــى إلا كما صبغ الخـــدود حياء
شمّ العوالي والأنوف تبسمـــوا تحت القنوس فأظلموا وأضاءوا
لبسوا الحديد على الحديد مظاهراً حتى اليلامق والدروع ســواء (١)

في هذه الأبيات يمدح الشاعر محمد بن هانيء الأندلسي المعـز لديـن الله مـن خلال وصفه خيله، حيث نرى روعة التشبيه الذي يبين صفاتها، فقـد أطلـق عليهـا "الأعوجيات" ليقول: إنها جميلة قوية سريعة أصيلة، وأثبت أنها تستحق هذا الاسم، فقال : إنها السباقة في ميادين سباق الخيـول، ليقنعنـا بسـرعة حركتهـا وسلاسـتها وقدرتها على الكر والفر. وإذا حملت هذه الخيل على السـير السـريع، فالشـدة أولى بفرسانها والكبرياء والخيلاء أحدر بها، وهذا يجعلهـم أحـق بـالفوز علـى أعدائهـم، كما أن لهذه الخيل الحق في أن تتفاخر وتتبختر لما تتصف به من جميل الصفات.

ولا تصدر هذه الخيل ولا يصدر فرسـانها مـن المعـارك إلاّ منتصريـن مخضبـة صدور خيلهم بدم الأعداء الذي يشبه حمرة الخدود التي أصابها الحياء.

ومن كل ذلك لا يخفى علينا ما تمتعت به الخيل -كعنصـر مهـم مـن عنـاصر الطبيعة- من وصف متقنٍ لم يدع جزئيةً إلا وقف عندها.

ب- وصف الإبل :

على الرغم من بعد الأندلسيين عن الصحراء، وانتقالهم من حياة البـداوة الـتي تشكل الإبل أحد أعمدتها الرئيسة، إلى حياة المدينة المرفهة، إلا أنهم ظلوا يحنون إلى مـاضيهم، ويذكـرون ذكريـاتهم مـع سـفينة الصحـراء، فوصفوهـا ضمـن وصفهـم

---

(١) زاهد علي، تبين المعالي، ص٢٧، ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للصحراء التي كانت تحتضنهم، وكان لهم معها وفيها ذكريات ورحلات قاسية وأحلام سعيدة فوصفوها كما فعل أهل المشرق.

فهذا طاهر بن محمد، يصف رحلة شاقة على ظهر ناقته التي يجوب بها الصحراء فيقول:

وطامسة الأعلام سيان وسطها ... منير الضحى ومظلم الأفق حالك
تضل بها الأطلاء عن أمهاتها ... وتترك لغواً في ذراها الترائك
صحبت بها عزماً وعضباً كلاهما ... ركوب لأهوال المفاوز سادك
بمصعبةٍ ذات احتباكٍ جلالةٍ ... تزيد مراحاً إذ تلين العرائك
كأني بها في ظهر فتخاء كاسرٍ ... تؤيدها في الخبّ نكب سوامك
فما فتئتْ بالوخْد ينهم نقيها ... ويمصح منها مفعم النحض تامك
إلى أن أتتْ كالقوس أشلاء أعظمٍ ... يجمّعها مسك بها متماسك (١)

تبدو رحلة الشاعر طاهر بن محمد رحلة شديدة القسوة إذ يصف الصحراء بأنها متاهة فنهارها كليلها، يضل فيها الطلي عن أمه لاتساعها، وتترك النعامة افراخها من شدة حرها، ورغم هذه الظروف القاسية تبقى ناقته صامدة تقطع المسافات لكنها ما إن تصل حتى تصبح أشلاء من العظم لا يفصل بينها إلا الجلد.

وقد اتبع الشاعر في وصفه للناقة أسلوباً تقليدياً لم يخرج فيه عمّا اعتاد شعراء الجزيرة العربية، فهو يصف الصحراء من حيث اتساعها والأخطار التي تحيط بالسائر فيها، وظلام ليلها وحرارتها، ثم يمضي ليعتد بنفسه، وهو يستوي على ظهر راحلته يحمل عليها طعامه وشرابه وسلاحه، فتحمله هذه الناقة الى مقصده واصفاً إياها بالقوة وشدة الصبر والسرعة، ويحاول أن يرسم الصور الجميلة ليدل على هذه

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص١٧٤، ١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفات، ويبدو أن الشاعر نقل بعض الصور التي وردت في أبياته عن سابقيه من الشعراء العرب[١].

وهذه أبيات أخرى في وصف رحلة في الصحراء بمسافاتها التي لا تنتهي، يقول فيه الشاعر : إن الركب كلما قطعوا مسافة وجدوا أنفسهم أمام مسافات أطول، وصور هذه الرؤية كأنها ليالٍ طوال تمر على عاشق ولهان أضناه العشق. وعلى الرغم من طول المسافة ومشقة الرحلة، إلا أن الركب يقطع هذه المسافات على ظهور نوق ضامرات، تتدحرج حبات العرق عن أجسادها كأنها دموع منهمرة، حيث عبّر يوسف بن هارون الرمادي:

وركب إذا قطعوا نفنفاً ... رمى بهم البعد في نفنف
كأن الفيافي في طولها ... ليالٍ على عاشق قد جفي
قطعنا على مضمراتٍ تجود ... كلالاً بأدمعها الوكف
وتحتي حرف لفرط النحول ... تنفي النحول عن المدنف
كأني إذا ما شددت الحزام ... أشد نطاقاً على أهيف [٢]

لقد استعان الشاعر بمعلومات عن البيئة الصحراوية لم يعشها بل اختزنها في ذاكرته مما يحفظ من أشعار المشارقة الذين تركوا لنا في أشعارهم لوحات تعكس

---

(١) تشبيه الشاعر لناقته بالزعامة كأنه مأخوذ من قول الشاعر الحارث بن حلزة اليشكري:

غير أني قد أستعين على الهم ... إذا خف بالثوي النجاء.
بزفوف كأنها هقلة أم ... رئالٍ دوية سقفاء.

انظر كتاب أشعار الشعراء الستة الجاهليين، اختيارات من الشعر الجاهلي، ج٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٨١، ص٤٥، ٤٦.

أما بيته السابع فيبدو فيه متأثرا بقول البحتري.

طواه الطوى حتى استمر مريره ... فما فيه إلا العظم والروح والجلد

انظر ديوان البحتري، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مجلد الثاني، ١٩٦٣، ص٧٤٣.

(٢) الكتاني، التشبيهات، ص١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثل هذه الرحلات بكل دقة، ولهذا السبب أبدع الرمادي في وصف الناقة، إذ يقول:

ويهماء مثل البحر خرقاء لا ترى سبيلاً بها يهدي فبالظّن يهتدى
ترى الركب فيها من سرىً فوق عيسهم لغير إلـه راكعين وسجدا [1]

ويتضح لنا من هذه الأمثلة أن وصف الإبل عند شعراء عصر الخلافة الأموية في الأندلس وصف تقليدي، حيث ظل الشعراء يتأثرون بالأرض التي انطلقوا منها لنشر الإسلام، فالصحراء التي نشأوا فيها والبيئة التي اعتادوا حياتها، والأدوات التي استخدموها في أسفارهم وحروبهم مازالت تشدهم إليها، وحياتهم في الأندلس المتحضرة مازالت في بدايتها و لم تستطع طمس ذكرياتهم ومعالم حضارتهم.

وعلى الرغم من أن الناقة لم تعرف ببلاد الأندلس قبل عصر المرابطين[2] فإن الشعراء الأندلسيين شعراء عرب يتصفون بكل ما اتصف به الشاعر العربي، من حيث لغته وثقافته، فليس مستهجناً أن يصفوا الإبل والناقة الوصف الذي يخلد ذكراها، ويخلّد الصلة الوطيدة بين البدوي وراحلته التي تكمل شخصيته فهو لا يستطيع الاستغناء عنها في حلّه وترحاله، وفي السلم والحرب وكثيراً ما كان يخلط الشاعر بين وصف الناقة وأحاسيسه وحالته النفسية، إذ يمزج ما يحس به وهو في هذه الصحراء المترامية الأطراف بمحاسن ناقته واصفاً إياها بالمنقذ الذي بسرعته وبجلده وبصبره يتحدى قسوة البيئة الصحراوية، ويقهر البعد والخوف والظلام، فيوصل راكبه إلى بر الأمان.

جـ- وصف كلاب الصيد :

يحتل وصف كلاب الصيد لدى المشارقة مكاناً بارزاً، فقد عنوا بوصفه عناية كبيرة، فتتبعوا أحواله في جوانب عديدة من حياته، وبخاصة تلك الجوانب التي تتصل اتصالاً مباشراً بحياة الإنسان.

---

(١) شعر الرمادي ، ص ٦٤.

(٢) د. سعد شلبي، أثر البيئة الأندلسية في الشعر، ص١٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرجع اهتمام العرب بالكلب إلى الخدمة التي يؤديها للإنسان في حياته كالحراسة والصيد والقنص، وهو في هذه الخدمة مثالٌ للوفاء لأهله والحرص على أمانته.

وكما أسلفنا، فالأندلسيون هم عرب من أصل مشرقي فلا نستبعد اهتمامهم وعنايتهم بتصوير حركات هذا الحيوان وسكناته، فضلاً عن تصويرهم لسمات الجمال والقوة والسرعة التي تتحلى بها الكلاب.

وربما لا يبدو هذا الفن واضحاً في عصر الخلافة الأموية في الأندلس لأن الأشعار التي تمكنت من الحصول عليها قليلة جداً اقتصرت على ثلاث مقطوعات شعرية.

وهذا لا يعني أن شعراء هذا العصر أغفلوا وصف الكلاب -ولاسيما كلاب الصيد- فرحلات الصيد التي كان يقوم بها الخلفاء والأمراء مشهورة، وهي عادة ورثوها عن أهلهم الأمويين الذين مازالت قصورهم ماثلة في الصحراء الأردنية وبادية الشام حيث كانوا يستخدموها محطات يستريحون فيها في رحلات الصيد والقنص.

وأغلب الظن أن ما قيل في كلاب الصيد من الشعر قد ضاع أو أغفلته الدراسات الأدبية التي جمعت تراث الأندلس الأدبي في هذا العصر.

وهذه المقطوعة الأولى للشاعر محمد بن عبد ربه :

يختلس الأنفس باستلابه ... كلب يلقى الوحي من كلابهْ

يمون أهل البيت باكتسابهْ ... أهبته فانصاع في إهبابهْ

كأنه الكوكب في انصبابهْ ... أو قبس يلقط من شهابهْ (١)

وقد أراد الشاعر أن يدلل على صلة الكلب بأهل البيت الذي يعيش فيه، كما يصفه بالذكاء، وأنه يستجيب لمدربه بالإيحاء، ويخدم أصحابه، وهو مستعد

---

(١) ديوان ابن عبدربه ص٣٥؛ انظر الكتاني، التشبيهات، ص١٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للقيام بأي عمل يطلب إليه بسرعة وخفة، ورشاقة كأنه القبس الملتقط من الشهاب.

وهذه صورة تبدو فيها دقة الوصف وروعة التعبير عن الإعجاب بطاعة الكلب لصاحبه وقدرته على فهمه بالإشارة إليه. وقد أوصل الشاعر ما أراد في قالب جميل يزخر بأنواع التشبيه والصور البيانية.

أما المقطوعة الثانية فهي للشاعر يوسف بن هارون الرمادي من قصيدة له في مدح القالي، إذ يصور لنا الشاعر كل حركات الكلب وسكناته بأبيات رائعة، تعكس دقة الملاحظة والقدرة على الغوص والرسم، فكأن عين الشاعر عدسة (كاميرا) تحيط الكلب وتصوره حيث يقول :

ولقد غدوت بأهرتٍ[1]متضائلٍ   سر النفوس إليه غير ضئيل
ولربما أشتم الصعيد بأنفه   حيناً فقام له مقام دليل
متتبعٌ لطلابه فكأنه   في القيظ يطلب ظله لمقيل[2]

والنص الثالث، هو لابن هذيل الشاعر الذي لم يذر عنصراً من عناصر الطبيعة الحية إلا وقال فيه واصفاً، وفيه يمتدح الفطرة التي فطر عليها كلبه وقدرة هذا الكلب على تتبع آثار طريدته، دون الاعتماد على حاسة الشم فكأنه ملهم تسوقه شهوته وحبه للصيد، فيسرع منقضاً على الطريدة بسرعةٍ تفوق سرعة الريح، وقد عبر ابن هذيل عن ذلك كله بقوله :

وأغضف[3] يلغي أنفه فكأنما   يقود به نور من الوحي نير
إذا ألهبته شهوة الصيد طامعاً   رأيت عقيم الريح عنه تقصر[4]

---

(١) أهرت: يصف هنا كلب الصيد، والأهرت: المتسع شدق الفم. انظر لسان العرب مادة هرت.

(٢) شعر الرمادي، ص ١١٥.

(٣) الأغضف: الكلب المسترخي الأذن، انظر لسان العرب مادة غضف.

(٤) الكتاني، التشبيهات، ص١٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ترددت كلمة الوحي في وصف الكلب عند محمد بن عبد ربه وابن هذيل، وهذا يعني أن إحدى مميزات الكلب الجيد في تلك الأيام سرعة التلبية وسرعة الاستجابة للمؤثر الذي هو الطريدة، أو الاعتداء على أهل البيت، وحتى يكون هذا الكلب متميزاً، فلابد أن تكون استجابته للمؤثر إلهاماً أو وحياً وليس بدافع من صاحبه.

وهذه الصفة هي الصفة البارزة التي وردت في أقوال الشعراء العرب القدامى عندما كانوا يصفون كلاب الصيد أو كلاب الحراسة.

وهذا يدل على تأثر شعراء هذه الفترة بما كان يتأثر به الشعراء العرب في الجزيرة العربية، للرابطة المتينة التي كانت تربط العربي بهذا الحيوان، حيث كان رفيق رحلاته، وشريكه في الصيد وساعده الأيمن، كما كان حارسه الأمين، وحارس أهل بيته، فحري به ألا ينساه، وأن يظل يذكره ويستخدمه للغرض نفسه، وإن تحضر وابتعد عن الصحراء والبداوة.

ثانياً : وصف الطيور ..

أ- وصف الحمام :

عرف العرب الحمام وذكروه في مناسبات كثيرة، وقالوا فيه شعراً ونثراً على مدار العصور الأدبية المتوالية، ووصفوه من حيث أوصافه المجردة، وما يعنيه كل لون من مظاهر الجمال والبهجة، كما وصفوا علاقاته بالإنسان وعلاقاته بالأدباء الذين وصفوا شدوه وإنشاده في إبداعاتهم.

وربط الأدباء العرب مظهر الحمام وشدوه بأحاسيسهم وما يدخله على قلوبهم من الفرح أو الحزن، أو ما يثير فيهم من اللوعة والأسى وآلام الفراق والبعد والحنين إلى الوطن، أو تولي الشباب وإقبال المشيب وما يثيره من الذكريات... إلى غير ذلك من المعاني والأفكار والأغراض التي عرفها شعرنا العربي ومارسها شعراؤنا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العرب في مناسبات عديدة بأساليب متعددة، وهي معروفة لدى المعنيين بدراسة الأدب والشعر، ومن يطلع على دواوين الشعر على امتداد العصور يرى هذا النوع من الوصف واضحاً وكثيراً.

ولم يكن الأدب الأندلسي بعامة والشعر بخاصة بعيداً عن هذا النهج، فقد أقبل الشعراء على وصف الحمام وذكروه في أشعارهم المختلفة باسمه أو بصفته التي عرف بها بين الأدباء والشعراء.

والمتأمل في هذا النوع من الوصف في عصر الخلافة، يجد العناية الفائقة في هذا الفن من الشعراء شأنهم شأن إخوانهم المشارقة، لتشابه تجاربهم الشعرية وأفكارهم، فضلاً عن المؤثرات التي تؤثرها كل منها كالدين والحضارة وتاريخهم مع الحمام. ومن أشعار تلك الفترة في وصف الحمام، ما قاله يوسف بن هارون متغنياً بأوصاف حمامة:

تلثم الأوتار منه بناناً ... يعدل الأفواه إلاّ الرضابا
تسبق الأبصار من وحي صوتٍ ... تحسب الترجيع منه انتهابا
مثلما تطرف الجفون اختلاجاً ... أو كما شقّت بروق سحابا[1]

هذه لوحة يشبه فيها الشاعر صوت الحمام بنغمٍ يصدر عن مداعبة عازف لأوتار آلته الموسيقية، ولا يشبه هذا التلامس إلا ملامسة الشفاه للرضاب.

وهو يصور سرعة ترديد الحمامة لنغمات هديلها بصور متعددة، فكأنها تارة برق لامع شقّ سحابة سوداء ماطرة، وطوراً آخر طرفة عين سريعة.

وليوسف بن هارون قطعة وصف فيها الندى على أجنحة الحمامة، يقول فيها:

مطوقة يغدو الندى في جناحها ... لآلىء ليست من نظامٍ ولا سلك
إذا انتقلت عن أيكها فكأنما ... قوادمها أجفان والهةٍ تبكي[2]

---

(١) شعر الرمادي، ص٥٢.

(٢) الكتاني، التشبيهات، ص٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنها وهي تستيقظ في الصباح تزينها قطرات الندى، كما يزين العقد المصنوع من اللؤلؤ جيد الصبية الجميلة، بالرغم من هذه القطرات لا يشدها إلى بعضها سلك، فإذا انتقلت من عشها إلى أي مكان آخر، تتساقط القطرات عن ريشها لتنساب إلى قوادمها فتسيل كما تسيل الدموع من مآقي الولهان.

وهذا يحيى بن هذيل أشهر شعراء الوصف في عصر الخلافة الأموية في الأندلس يخاطب الحمام، فيستنكر عليه شدوه وغناءه على قضيب أيك يرفعه ويخفضه بفعل الرياح، فلو أنه عرف الحب كما عرفه الشاعر لما شدا بل بكى على فقدان خلّه الذي أحبه، فيقول:

قل لهذا الحمام إن جهل الحب ... ب أنا واقف على عرفانه
لم تصبه النوى بفقدان خل ... فيرى باكياً على فقدانه
فشدا في قضيب أيكٍ يعلي ... ه ويدنيه أرضه من ليانه
وكأن الرذاذ فوق جناحي ... ه جماناً يروق عند اقترانه [1]

وله صورة أخرى في وصف الندى وقطرات الطّل على الحمامة إذا انتفضت على الأيك، تفرق الطّل والندى عن أجنحتها، فبدت كقينة تملى من الخمر تزاحم مع لداتها من القيان في الملحس فتتناثر عقودها، فتأبى أن تسترجع ما فقدت تعالياً واستكباراً فيقول:

ترى قطرات الطلّ كالدر فوقها ... إذا انتفضت في الأيك تنثره نثراً
إذا فرقته ألّف الغيم غيره ... عليها فقد شبهتها قينة سكرى
تزاحم أخرى مثلها بعقودها ... ولم ترض بارتجاع منثورها كبراً [2]

(١) الكتاني، التشبيهات، ص٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص٥٨، ٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي صورة أخرى جميلة كلها حركة وحيوية يصف حمامة تقف علـى غصـن سروة ملتفة الأغصان، فتلفها تختفي تارة وتظهر أخرى، كأنها فـوق الغيـم تلاعبـه، وهنا يبدو أن الشاعر استوحى هذه الفكرة من لعبة قد تكون دارجة في أيامه حيـث يلهو الصغار بلعبة يظهر اللاعبون فيها ويختفون كما تظهر السماء من خلال الغيوم، ثم تختفي نتيجة لدفع الرياح لهذه الغيوم.

يقول يحيى بن هذيل :

وقفت على الغصن الجديد كأنما   تلهو بـه في الغيـم أو يلهـو بهـا
وتسترت في سـروة ملتفـة   حجبت عن الأبصار شخص رقيبها
فكأنما ريح الجنـوب تغايـرت   ألا تـرى إلا لوقـت هبوبهـا[1]

نلاحظ مما تقدم جمال الطبيعة وروعة الجو، فالندى دليل على اعتدال الطقس ولطفه في فصل الصيف، والأيك دليل على كثرة البساتين والحدائق الـتي تنتشـر هنـا وهناك في الأندلس.

كما يدل هذا على انتقـال المسـلمين العـرب مـن حيـاة البـداوة في الصحـراء العربية والإفريقية إلى حياة الاستقرار والمدنية، وما فيها من عناصر الجمال.

ومنها نلاحـظ أيضـاً أن الشـاعر يحكـي بعـض العـادات الـتي كـان يمارسـها المترفون، فالمجون وشرب الخمر واضحان في معظم أشعار هذه الحقبة من عمر الدولة الأموية في الأندلس، كما أن مظاهر الـترف والغنـى واضحـة في معظـم المقطوعـات الشعرية التي ذكرناها.

وكثيراً ما أسـبغ الشـعراء علـى الصـور الفنيـة الـتي رسموهـا -وهـم يصفـون الحمام- مشاعرهم وأحاسيسهم، فزادوها روعـة وقبـولاً في نفـوس المسـتمعين لهـا. كما أثار شكل الحمامة لواعج الشعراء وأثـارهم صوتهـا فهـو في نظـر يوسـف بـن

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هارون الرمادي أعـذب مـن الألحـان الـتي تصـدر عـن العـزف علـى أوتـار الآلات الموسيقية.

كما شبه هديل الحمامة والريـح تداعـب الأغصـان الـتي تقـف عليهـا ضامـة منقارها ونحرها إلى أحدهما ببكاء مفجوع يلقي بنفسه علـى ضريـح محبوبتـه الـذي فجع به، فيقول:

أذات الطوق في التغريد أشهى ... إلى أذني من الوتر الفصيـح
إذا هتفـت على غصن رفيـعٍ ... ينوح أو على غصـن مريـح
تضم عليه منقـاراً ونحـراً ... كما خرّ الفجيع على الضريح [1]

وفي وصفه للخطافة، يرى الرمادي في صوتها تسبيحاً لله عزّ وجل، وكأنهـا وهي تصدر هذا الصوت قارئ يتلو آيات القرآن الكريم :

خطافة سبحـت اللـه ... بعجمـة يفهـم معناهـا
مديدة الصوت إذا ما انتهت ... لكنهـا تدمـج مبداهـا
كقارئ إن تأتـه وقفـة ... مد بها الصـوت وجلاهـا [2]

ومن الأبيات المؤثرة في وصف صوت الحمامة ووقعه في نفوس الشعراء قـول أحمد بن عبد ربه :

لقد سجعت في جنح ليـل حمامـة ... فأي أسى هاجت على الهائم الصـب
لك الويل كم هيجت شجواً بلا جوى ... وشكوى بلا شكوى وكرباً بلا كـرب
وأسكبت دمعاً من جفـون مسهـدٍ ... وما رقرقت منك المدامع بالسكب [3]

إن صوت الحمام الجميل إذا ما تسلل إلى مسامعنا، ونحـن سـعداء ترجـم إلى موسيقى رائعة تطربها، أما إذا كنا نحس بالكرب والحزن، تسلل الهديل إلى مسـامعنا

---

(١) شعر الرمادي، ص٦٢، الكتاني، التشبيهات، ص٥٤.

(٢) شعر الرمادي، ص ١٣٤، الكتاني، التشبيهات، ص٥٤.

(٣) ديوان أحمد بن عبد ربه، ص٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألحاناً شجية حزينة، وكأنها تستثير كل الدفين من أحزاننا التي حاولنا إخفاءها، بل كل الأحزان التي تتوارد إلى خواطرنا، ولتوارد هذه الخواطر الحزينة، نعتقد أن الحمامة تنوح لمصاب أصابها عطفا علينا ومن أجلنا وألماً لما أصابنا.

وفي معنى أكثر وضوحاً، يقول الشاعر أحمد بن عبدربه مصوراً أثر هديل الحمامة في نفسه :

وإن ارتياحي من بكاء حمامةٍ ... كذي شجنٍ داويته بشجون

كأن حمام الأيك حين تجاوبت ... حزين بكى من رحمة لحزين [1]

فصروف الدهر وتعقيدات الحياة الجديدة التي بدأ يعيشها شعراء الأندلس أثرت في نفوسهم، فظهرت واضحة جلية في أشعارهم، فهم يذكرون الهموم وليالي السهر، ويبحثون عن الدواء لهذه الهموم فيما يحيط بهم من أصوات تتسلل عبر هدوء الليل الحالم فيفسرونها حسب نفسياتهم، ويعتبرونها من الأدوية التي تشفي سقمهم وتسهيدهم، وكان للحمام نصيب الأسد من هذه الأشعار، وما الأمثلة السابقة والأمثلة اللاحقة إلا أدلة على صحة هذا القول.

فهذه قطعة أخرى للشاعر أحمد بن عبدربه يصف فيها صوت الحمامة أنه نواح على همّ أصابه أو أصابها والشاعر يبكي هماً أصابه، ولا يدري أحدهما ما السبب الذي يبكي الآخر.

ونائح في غصون الأيك أرّقني ... وما عنيت بشيء ظلّ يعنيه

مطوق بخضاب ما يزايله ... حتى تفارقه إحدى تراقيه

قد بات يبكي بشجو ما دريت به ... وبتّ أبكي بشجو ليس يدريه [2]

---

(١) ديوان أحمد بن عبدربه، ص١٨٥، ١٨٦، الكتاني، التشبيهات، ص٥٦.

(٢) ديوان أحمد بن عبدربه، ص١٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال الشاعر ابن محامس الكاتب،[١] يصف شدو الحمام :

فالطير في ذروة أشجارهـــــا   تشدو بشجو الطرب الشائق
من ذي تراجيع فصـــــاح وذي   نبر كنحوى الدنف العاشق [٢]

وفي خيال الشاعر محمد بن الحسن الطبني[٣] تشكلت الحمائم قياناً تبدع في الغناء، حتى ليظن السامع أنه يستمع إلى كبار المغنيين في ذلك العصر، وهم يجلسون في ذرى الأيك، فيقول:

تغنتْ على الأغصان يومـاً حمائـم   كمـــا يتغنّيْـنَ القيــان الأوانــس
يظن الذي يصغي إليهن معبـــداً   أو ابن سريجٍ في ذرى الأيك جالس[٤]

ويصف حسين بن الوليد[٥] سجع الحمامة بأنه الصوت أو اللحن الذي يهيج أحزانه حيث يقول:

وساجع هاج لي الأحزان إذ سجعا   إذا انتهى غايةً في سجعه رجعـــا
مخضّـــب بخضـاب لا نصـول لـــه   كأنــه فـــي دموعي للنّوى انتفعا [٦]

---

(١) ابن محامس الكاتب توفي سنة (٣٧٦)هـ، محمد بن عثمان بن سعيد بن محامس، ذكر ابن الفرضي أنه مدح الخلفاء، وحدث بشيء من الأدب، وكتب عنه الفرضي وعن شعره وذكر أنه توفي سنة (٣٧٦)هـ وانظر تاريخ علماء الأندلس، ج٢، ص٩٠، وله شعر في المقتبس يمدح به الحكم المستنصر، ص٦٢، لابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) تحقيق د. عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.

(٢) الكتاني، التشبيهات، ص٦٠، ٦١.

(٣) محمد بن الحسن الطبني: يرجع نسبه إلى حمة من تميم وهو أصل بني الطبني الذين أصبحت لهم شهرة بقرطبة، ولد سنة ٣٠٠ هـ، ودخل الأندلس سنة ٣٢٥، واتصل بالحكم المستنصر في عهد أبيه الناصر ثم أصبح من مداحه بعد توليه الخلافة، كان شاعراً مكثراً وأديباً مفتناً عالماً بأخبار العرب. انظر الجذوة، ص٤٧، وتاريخ علماء الأندلس، ج٢، ص١١٩، والمغرب ج١، ص٢٠١.

(٤) الكتاني، التشبيهات، ص٦١، ٦٢.

(٥) حسين بن الوليد: هو أبو القاسم بن العريف القرطبي، أحد علماء اللغة والنحو في عصره، وهو تلميذ ابن القوطية رحل إلى المشرق، فلما عاد إلى الأندلس جعله المنصور مؤدباً لبنيه وكان شاعراً مقدماً في الشعر، وله في المديح قصائد كثيرة. انظر الجذوة ص١٨٢، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، ج١، ص١٣٤.

(٦) الكتاني، التشبيهات، ص٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا محمد بن الحسين الطبني يصف الأنس الذي يحسه كلما سمع هديل الحمائم، كما يسعد عندما يرى معاني الحب والألفة والحمائم تغازل بعضها فيقول:

لعمري إني للحمائم في الضحى إذا غـردت فـوق الغصون لوامق
وأسعدني منها صديقـة أيكـةٍ كما يسعد الإلف الصديق المصادق(١)

ويبدو لي مما تقدم أن هذه المرحلة من حياة الدولة الأموية في الأندلس كانت مرحلة استقرار وإقبال على الحياة، فخلت نفوس الشعراء للحب وللتمتع بمباهج الحياة، كما يبدو أن الشعراء كانوا في بحبوحة من العيش يعيشون عيشة راضية ميسوري الحال، ولأن الشعر الأندلسي لم يشتعل تماماً عن المشرق، بل بقيت الأشعار الشرقية مثالاً يحتذيه الأندلسيون، فقد أبدعوا أيما ابداع في وصف الحمام الذي كان بالنسبة للعربي في المشرق رمز الحب والعشق، ورمز الأمانة والثقة والوسيلة التي تربط المحبين بعضهم ببعض.

ومع تطور الحياة الأندلسية وظهور الجواري الحسان والغلمان وفي ظل جمال الطبيعة وانتشار الطرب غناءً ولحناً، وميل العديد من الأندلسيين إلى الخمر واللهو والمجون فقد توجه الشعراء إلى مزج هذه الظواهر وإظهارها في صور جمالية وصفية.

فالمقطوعات الشرعية تبين أن الصورة الشعرية وليدة هذه البيئة المتنوعة المظاهر، الغنية بالألوان والأعراف الطيبة والأصوات.(٢)

ب- وصف البازي والدستبان :

كان لطائر البازي نصيب في شعر عصر الخلافة الأموية في الأندلس، وهو الطائر الثاني من الجوارح، وواحد من خمسة أصناف متشابهة هي البازي والزرق،

---

(١) الكتاني، المرجع السابق، ص٦١.

(٢) انظر في بيئة الأندلس، النفح، ج١، ص١٤٠-١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والباشق والعفصي والبيرق. والبازي أحد هذه الأصناف الخمسة مزاجاً، لأنه قليل الصبر على العطش، ومأواه مساقط الشجرة العادية الملتفة، والظل الظليل ومطرد المياه[١] .

وفي وصف هذا الطائر، يقول الشاعر يوسف بن هارون الرمادي:

تبدتْ على البازي من الريش لأمة ... فتحسبه من سائر الطير يتقي
وتدْريقة فوق البياض كأنما ... تصب عليه درعه فوق يلْمق
غدا أحمر العينين تحسب أنه ... له عين غضبان على الطير محنق
وقد ورست ساقاه حتى كأنما ... له بالثريا خاضب لم يحقق
كأن بنان الكف: كل بنانةٍ ... بها طرفت منها بنونٍ معرّق
وقد ألبستْ لون المداد كأنّها ... أنامل كتابٍ تخط بمهرق
فإن كان للبازي من الريش لأمةٌ ... فللدستبان درع وشيٍ منمق
عليه من العقيان ساق ومقلة ... فصار كمكحولٍ به ومسوق
جعلت لساقيه فخصلة كفه ... حلي العذارى في نواصٍ وأسوق
غدونا بسرب ضمرٍ مثل ضمر ... إذا لحقت منها الأياطل تلحق
حملن على الأيسار نحو عجاجها ... كما حملت خيل فوارس صدق
إذا اضطربت فوق الأكف حسبتها ... لغيبتها عن صيدها في معلق
فأرسلن في ميدانهن كأنها ... صواعق ما لاقت من الطير تصعق[٢]

فهذه القصيدة تبين مدة ما يتمتع به الرمادي من الوصف التفصيلي لموصوفه. فقد كان مفتوناً بالجمال الذي يتمتّع به.

---

(١) وهذا الطائر لا يتخذ وكراً إلا في شجرة لها شول، وصفة الجيد المحمود في فعله أن يكون قليل الريش، أحمر العينين حادهما، وأن تكونا مقبلتين على مسرة وحاجباهما مطلين عليه. انظر النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١١، ص١٨٦.

(٢) ديوان الرمادي، ص٩٤، ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولدينا مقطوعة أخرى في وصف البازي وهي للرمادي أيضاً وقد درجت هذه المقطوعة ضمن قصيدة له في مدح القالي وقد أجاد الشاعر في التقاطه أدق الحركات التي تعكس حالة البازي معبراً عن هذا بألفاظ محكمة ووصف رائع حيث يقول:

متدرع بالوشي إلا أن مدْ ... رعه يحاك عليه غير طويل
فكأن بلقيساً عليه إذ دنت ... في الصرح رافعةً لفضل ذيول
متلفت كتلفت المرتاع يقـ ... ـسم لحظه في الجول بعد الجول[1]
حتى إذا ما السرب عن للحظه ... أومى بقادمتيه خل سبيلي [2]

ج- وصف القمري :

وصف ابن هذيل، القمري، كأنه عاشق استتر بين أغصان كثيفة خشية العذال والوشاة فيقول:

قد اختفى بين أغصان وأوراق ... وحن حنة مشغوف ومشتاق
كأنما خاف عذلاً فهو مستتر ... أوخاف واشية أودت بميثاق[3]

أما محمد بن حسين الطبني، فقد ترجمت الأنغام التي يصدرها القمري في مسامعه كلاماً مؤثراً دعا للهوى وألمر حباً لا يمكن إخفاؤه، فيقول :

قمرية دعت الهوى فكأنما ... نطقت وليس لها لسان ناطق
غنت فحببت الأراك كأنما ... فوق الغصون حبابة ومخارق[4]

---

(١) الشاعر متأثر بالآية الكريمة رقم (٤٤) من سورة النمل، وهي قوله تعالى: ﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال: إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾. صدق الله العظيم.

(٢) شعر الرمادي، ص١١٤.

(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٥٩، ٦٠.

(٤) الكتاني، المرجع السابق، ص٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د- وصف أم الحسن :

أم الحسن طائر يعرف عند المشارقة باسم "الحسون"، ويبدو أن هذا الطائر لا يشدو إلاّ في فصل الربيع، فكأنه يصمت بقية فصول السنة بانتظار الربيع لينطلق بشدوه معلناً عن فرحته وطربه وإعجابه بجمال هذا الفصل وروعة أزهاره وخضرة أشجاره، وكأنه عاشق أطلق لفيه العنان ليعبر عن مدى إعجابه بحبيبه، يقول يوسف بن هارون الرمادي في هذا المعنى :

وخرساء إلا في الربيع فإنها ... نظيرة قس في العصور الذواهب
أتت تمدح النوار فوق غصونها ... كما يمدح العشاق حسن الحبائب
تبدل ألحاناً إذا قيل بدلي ... كما بدلتْ ضرباً أكف الضوارب
تغنى علينا في عروضين شعرها ... ولكن شعراً في قوافٍ غرائب
إذا ابتدأت تنشدك رجزاً وإن تقل ... لها بدلي تنشدك في المتقارب
وليس لها تيه الطراء بصوتها ... ولكن تغني كل صاحٍ وشارب[1]

ويقول الرمادي أيضاً مشيداً بصورتها وغنائها وتبديلها وإبداعها :

مسمعةٍ من غير أوتار ... إلا ارتجالاً فوق أشجار
يقترح الناس عليها وما ... يقترح الناس على الطاري
تبدل إن قيل لها بدلي ... طائعةً من غير إصغار
كأنها في حين تبديلها ... تأخذ في أهزاج أشعار
عاشقة النوار ما أقبلتْ ... إلا بها آثار نوار[2]

فالشاعر يصف غناءها الجميل دونما موسيقى وكأنها ترتجله شعراً ملحناً يشجي السامعين، وهي تنتقل من لحن إلى لحن آخر ملبيةً رغبة من يتمنون سماعها، ومبدلةً النغم حسب أذواقهم.

---

(١) ديوان الرمادي، ص٥٤، ٥٥، انظر التشبيهات، ص٥٥، ٥٦.

(٢) ديوان الرمادي، ص٧٧، ٧٨، انظر التشبيهات، ص٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي البيت الأخير يرسم صورة الربيع بألوانه الزاهية التي تمثلت في ألوان ذلك الطائر، فهو يصفها بعاشقة النوار الذي يبدو واضحاً في ريشها.

هـ- وصف الغراب:

ارتبط نعيب الغراب ولونه بسوء الطالع، وقد تشاءم بعض الناس من نعيبه، وصار صوته مخيفاً، يلقي بالفأل السيء على من يسمعه وينذر بالخراب والدمار، على الرغم من وجود من لا يهتمون لمثل هذه الأقاويل، ويبدو أن محمد بن عبدربه لم يستطع الصمت حين سمع نعيب الغراب فقال :

نعب الغراب فقلت: أكذب طائر ... إن لم يصدقه رغاء بعير

ردّ الجمال هو المحقق للنوى ... بل شر أحلاس لهن وكور[1]

(١) ابن عبدربه، العقد، ج٥، ص٣٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الطبيعة في اغراض الشعر المختلفة

أولاً : الطبيعة في الغزل

ثانياً: الطبيعة في المدح

ثالثاً : الطبيعة في الحروب وأدواتها.

رابعاً : الطبيعة في الخمريات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبيعة في أغراض الشعر المختلفة

البيئة الطبيعية هي الملهم الأول لكل كاتب وكل شاعر، وهي الباعث الأكبر على الإبداع، فالنفس الشاعرة ترتشف رحيق الجمال من مفاتنها وتصوغه أناشيد عذبة في مسمع الدهر.

وعلى كثرة ما نظم الشعراء من الأبيات والمقطوعات في وصف الطبيعة، فإن النقاد القدامى قلّما كانوا يخصون هذا الموضوع بالنقد والبحث المتميزين، والسبب في ذلك أنهم لم يكونوا يعدون الوصف من أغراض الشعر الأساسية، و لم يروه بمنزلة الغزل والرثاء والمديح، وقد تعزى هذه الظاهرة الغريبة إلى اعتقاد الأقدمين بأن الوصف عنصر أصيل لا غنى عنه في كل أغراض الشعر، أو كل موضوع من موضوعاته، فلا ضرورة في ظنهم لإفراده في غرض مستقل، إذ إن المديح نوع من وصف خصال الممدوح، والرثاء ضرب من وصف مناقب الفقيد، والغزل نمط من وصف محاسن المرآة.

أولاً: الطبيعة في الغزل:

إن الشاعر ابن الطبيعة، فهي التي تحتضنه، وتحنو عليه بأفيائها وتسقيه مياهها، وتغذيه من خيراتها وهو جزء منها، فإذا قرض أبياتاً من الشعر تسللت مفاتنها إلى صوره وتشبيهاته، وإذا وصف محاسن المرأة تداخلت أوصافها مع مفاتن الطبيعة، وكثيراً ما يتم التداخل على نحو عكسي، حين تغدو الطبيعة في ناظري الشاعر متسمة بملامح المرأة ومحاسنها.

وقد كان الشعراء قديماً يشبهون محاسن المرأة بمفاتن الطبيعة، غير أن شعراء الأندلس كانوا الأكثر تفاعلاً مع مشاهد الطبيعة، فعيونهم دائمة التنقل بين ربوع بلادهم الخضراء، حتى تغلغلت الطبيعة في أعماقهم ووجدانهم، وهكذا ارتسمت صورة المرأة في أشعارهم روضاً معطاراً أو ثمرة ناضجة أو وردة متفتحة، وقد عبّر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقري عن ذلك بقوله : "إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن النرجس عيوناً، ومن الآس أصداغاً، ومن السفرجل نهوداً، ومن قصب السكر قدوداً، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم، ومن ابنة العنب رضاباً.."(١)

وفي عصر الخلافة، ارتشف الشعراء رحيق التشبيهات من موجودات الطبيعة فتركوا لنا عدداً لا بأس به من المقطوعات الشعرية التي تصف المرأة وتعبّر عن محاسنها بشكل عام، بينما خصص بعضهم مقطوعته الشعرية ليصف العضو الأكثر جمالاً فيها أو الصفة الأكثر تميزاً في شخصها.

وكان للكواكب في هذه الصور والتشبيهات نصيبٌ كبيرٌ، فكثيراً ما لجأ شعراء عصر الخلافة إلى تشبيه وجه المرأة بالهلال أو البدر أو القمر أو الشمس أو بجميع هذه الكواكب، ومن ذلك تشبيه الشاعر محمد بن عبد ربه محبوبته بالبدر، وهذا التشبيه قديم، فالمرأة الحسناء والبدر المضيء يشتركان بالجمال والتألق، إلا أن بعض الشعراء الأندلسيين كانوا يفضلون جمال المرأة على جمال البدر، لأنه كما يعتقدون الأكمل الذي لا يعتريه نقص، حيث عبّر الشاعر ابن عبد ربه عن ذلك بقوله:-

تريكة أدحيٍّ ودرة غائصٍ ودميةُ محرابٍ وظبيةُ قانِصِ
هو البدرُ إلا أنني كلَّ ليلةٍ أرى البدر منقوصاً وليس بناقص(٢)

لقد حاك لنا الشاعر بأبياته وصفاً نسيجه من الطبيعة، ففي البيت الأول تراءت له الحسناء بعدة صور اقتنصها من طبيعة الأرض التي يحيا عليها، ولم يكتف بذلك، فانتقل بوصفها إلى السماء، فاختار البدر شبهاً لها إلا أنه اكتشف أنها الأكمل منه حسناً.

(١) المقري ، ج١، ص ٣٢٣.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص ١١٥، انظر التشبيهات، ص ١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبينما يصف الشاعر ذاته روضة جميلة محاطة بالسوسن، يلفت أنظارنا إلى ازدياد الروضة تألقاً وجمالاً بسبب وجود محبوبته التي شبّهها ببدر ترك السماء ليتبختر على الأرض مختالاً، فيقول:-

وروضة وردٍ حفَّ الغضُّ تحلّت بلون السّام[١] والذهب المحضِ
ثابتُ بها بدراً على الأرض ماشياً ولم أر بدراً قط يمشي على الأرض[٢]

ولدينا شاعر يتساءل عمّن سبى عقله، فهو لا يعرف ما إذا كان السحر الذي استرق لبّه من الجن أو الإنس، أو من إشراق شمسٍ، فالأشياء الجميلة البراقة والغامضة أحياناً تسحر العقل، ويهمنا هنا تشبيه الشاعر محبوبته بالشمس أو القمر، فيقول الشاعر محمد بن عبد ربه:-

لم أدر جنيٌّ سباني أم بشر أم شمسُ ظهر أشرقت لي أم قمر[٣]

وتتراءى المحبوبة للشاعر بصورة أكثر تحديداً، فوجهها يشبه الهلال لذا يعبر عن جمالها قائلاً :

يا هلالا فوق جيد غزالٍ وقضيباً تحته دعص[٤] رمل[٥]

وفي مقطوعة أخرى له، يشبه محبوبته بغرة الهلال الذي يحاول الإمساك به لكن يحاول بلا جدوى، وفي هذا يقول ابن عبد ربه :-

إليك يا غرّة الهلال وبدعة الحسنِ والجمالِ
مددت كفّاً بها انقباض فأين كفّي من الهلالِ؟[٦]

---

(١) السّام : هو الذهب . انظر لسان العرب مادة سام.

(٢) ديوان ابن عبد ربه ، ص ١١٧، أنظر العقد ج٥، ص ٤٥٦.

(٣) ديوان ابن عبد ربه ، ص ١٠٠.

(٤) دعص : قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب منه . انظر لسان العرب مادة دعص.

(٥) ديوان ابن عبد ربه، ص ١٥٣.

(٦) نفسه، ١٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما سعيد بن العاص، فقد ألبس محبوبته الكواكب كلها، فكأنها حلة تزيدها روعة وجمالاً حيث قال:-

وكأنما لبس الكواكب حلة وأقل تاج الحسن فوق المفرق[١]

ومفاتيح الجمال التي تفتح القلوب وتأسرها كثيرة، وكل واحد له تأثيره حسب شخصية الشاعر – فهذا يسحره الخد المورد، وناك تذيبه الجفون والعيون السقيمة، وآخر لا يصمد أمام ثغر باسم أو قد مائس.

لقد اهتدى الشعراء إلى معان وصور جميلة رقيقة في وصف الخدود، ونلاحظ في شعرهم اهتمامهم البالغ بصفة الحمرة التي لا يكاد يخلو منها بيت، ويستعير بعضهم حمرة الخد من التفاح، والورد، والذهب ليسبغوها عليه، فمن الورد قول الشاعر محمد ابن عبد ربه:-

وجوهٌ جرى فيها النّعيم فكللتْ بوردِ خدود يجتنى بعيون[٢]

أو قوله :-

صفرةٌ في حمرةٍ في خـــدّه جمعت روضة وردٍ وبهار[٣]

وهناك من الشعراء من اختار حمرة الياقوت ليعبر فيها عن حمرة الخد، ومنهم الشاعر الرمادي الذي يقول:-

وكأن در الخد يكسى حمرة الـ ياقوت من نظر العيون إليه

وكأن خجلته إذا ما فارقـــت وجناته عادت إلى خديــه[٤]

ومن تشبيه الخدود بالتفاح ما ورد في بيت لابن عبد ربه يقول فيه :

وتفاح خدٍ ورمــانُ صـــدرٍ ومجناهما خيرُ شيء جنيت[٥]

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص ١٢٣.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص ١٨٥.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠١.

(٤) ديوان الرمادي، ص ١٣٤، انظر التشبيهات، ص ١٣١.

(٥) ديوان ابن عبد ربه، ص ٤١ وانظر العقد ج ٥، ص ٤٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللرمادي أيضاًبيتان يصف فيهما خدود الحبيبة بورد أحمر كحمرة التفاح، فيقول:-

وتنعمت في خدود صباح زائدات على بياض الصباح
صار فيها الخيلان في الورد شبهاً للغوالي في أحمر التفاح[١]

ومن الذهب قول الشاعر ابن عبد ربه :-

بجبين مفرغ من فضةٍ فوق خدٍّ مشرب لون الذهب[٢]

ويرسم لنا ابن عبد ربه لوحة بديعة لهذا الخد الجميل في بيت جيد، ضم إلى جمال الصورة، الرقة في التعبير، كما أظهر مقدرة الشاعر على الجمع بين جودة المعنى والمبنى في آن واحد، يقول فيها مشبهاً الخد بالذهب أيضاً :

بيضاءَ يحمرّ خداها إذا خجلت كما جرى ذهبٌ في صفحتيْ ورقِ[٣]

وأما عن تشبيه الخدود بالعقيق، فعند ابن عبد ربه بيت يقول فيه :-

عطابيل كالأرام أما وجوهها فدُرٌّ ولكن الخدود عقيق[٤]

وللشاعر أيضاً بيت ذو معانٍ جميلة وهي بالرغم من المبالغة التي فيها، إلا أنها جاءت مستحسنة تصور لنا الرقة المتناهية التي يخشى بسببها على وجنتي محبوبته التي أصيبت بفعل نظراته، ولعله يقصد من وراء ذلك توضيح الأثر الذي ترتب عن الجرح، وهي الحمرة التي لاحظها على خدودها في قوله :-

ظبيٌ له وجنة من رقة تجرحُها مُقلتي إذ تلحظ! [٥]

---

(١) ديوان الرمادي، ص ٦١.
(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص ٣٤.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣٥.
(٤) نفسه، ص ١٣٢.
(٥) نفسه، ص ١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما علي بن أبـي الحسن(١) فـيرى أن الألحـاظ الجميلـة والخـد الـذي تشـرق الشمس في صفحاته، كلاهما كفيلٌ بتعليم العشق لمن لم يعرفه قط، فيقولُ :

بنفسي ألحــــاظ إذا ما تشـبثت　　بجاهل عشق علمت كيف يعشـق

وخد شروق الشمس في صفحاته　　فما قابلت من مهجةٍ فهي تشـرق

وحكي مرتعاً في كل حين فنوْره　　أقـــاح وسوســـان وورد منمـــق(٢)

وطالما كان شعر المرأة دائماً هو التاج الذي يزيدها جمالاً، فقد عـبّر الرمـادي عن افتتانه بهذا الجمال قائلاً :-

وليلة لمةٍ تبقى العيون الـــر　　روامق مـــن دُجاهـا في ضلال

وكنت عن الليالي غير راضٍ　　بحالٍ إذ جنتْ تغيير حالـــــي

فلما أن رأيتُ الليـل شبْهــا　　للمّته رضيت عن الليالـــــي(٣)

ولم يكن الرمادي ليرضى عن الليـالي السـوداء المظلمـة، لـولا أنهـا بلـون لمة محبوبته السوداء المظلمة.

وللشاعر ذاته بيتان يصف فيهما وجه محبوبته وشعرها وخدّها، حيث وظـف عناصر الطبيعة من حوله ليعبر عما يريد، فسواد شعر الحبيب كأنه الدجى، ووجهـه الصبوح كأنه الصباح المشرق إذ يقول :-

وجدتك دهراً ثانياً : شعرك الدُّجى　　ووجهك إصباح وهجرك كالصرف

فإن أبغِ صبحاً كان خدّك مُصْبحـــي　　وإن أبغِ ليلاً بتُّ في شعرك الوحْف(٤)

---

(١) علي بن أبي الحسن : هو علي بن محمد بن علي بن أبي الحسن بن أبي الحسين متوكل بن حسـان بـن حسـين بن ربيع، أصل جده من قنسرين إحدى أجناد الشام، درس بقرطبة على يد عـدد مـن علمائهـا مـن أبرزهـم : ابن السجع، وصاعد بن الحسن، وكان أديباً وبليغاً مشاركاً في النحو حافظـاً للغات ذاكـراً لـلآداب، وتـوفي قريباً من الثلاثين بعد المئة الرابعة، انظر بغية الملتمس، رقم ١١٩٣، والصلة ص ٣٩٢.

(٢) العقد، ج٥، ص ٤٥٤ح وانظر الكتاني، التشبيهات، ص ١٣٢، ص ١٣٣.

(٣) ديوان الرمادي، ص ١١٠؛ انظر التشبيهات، ص ١٢٤.

(٤) ديوان الرمادى، ص ٨٩؛ انظر التشبيهات، ص ١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكن سواد الشعر وحده محور اهتمام الشعراء، فالرمادي يتغنى بشقرة الشعر التي لم ير وصفاً معبراً عن جمالها أفضل من تشبيهها بسلاسل الذهب، فتراه يتغزّل بألحاظ الحبيب وشعره الأشقر ووجناته الموردة فيقول :-

ومحيّر اللحظات تحسبه لحيـ ... رتهن من سنة المنام منبّها
وبياضه في شقرة فتقارنا ... حسناً بلا ضدٍّ فكانا أشبها
كسلاسل الذهب المورَّس فوق وجـ ... ـه من لجين بالملاحة قدْ زها
وكذا الصباح بياضه في شقرة ... فكأنه بهما غدا متصرفا
وإذا بدى التوريد في وجناته ... فكأنه صرف المدانة في المها(١)

ولم يفت شعراء هذه الفترة أن يصفوا ثغر الحسناء وطيب ريقها الذي يوصف في أغلب الأحيان بالعسل، ولابن عبد ربه بيتان من الشعر يشبه فيهما ريق محبوبته بعسل النحل الطيب، أو كأنه الماء العذب المنهمر من السماء، فيقول :-

ورضاب كأنّهُ ما يمجُّ النـ ... ـحل طيباً وما يسُحُّ الحبيُّ (٢)
علّنيه بدرٌ من الإنس يا من ... ظنّ بالبدر أنّهُ إنسيُّ (٣)

ويقول يوسف بن هارون الرمادي في مقطوعة له في هذا المجال من الوصف :-

وقد قطبت شهداً مدامة ثغره ... وما في الجفون الفاترات هي الصّرف
لذا يقتل الصرف الذي في جفونه ... ويلتذ، مما في مراشفه، الرشف
أقول ولم أُكمل لهم وصف حسنه ... على رسلكم، في حسنه انقطع الوصف
هو الدّرُّ والمرجانُ والبدر والدجى ... هو الورد والسوسان والغصن والحِقْفُ(٤)

---

(١) ديوان الرمادي، ص ١٣٣، ١٣٤.

(٢) الحبي: السحاب المتراكم المشرف من الأفق على الأرض، انظر لسان العرب، مادة حبي.

(٣) ديوان ابن عبد ربه، ص ١٩٩؛ انظر التشبيهات ، ص ١٣٨.

(٤) ديوان الرمادي ، ص ٨٧، ٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبدو الرفاهية التي كان يحياها الأندلسيون جلية في هذه الأشعار ففيها خمور وبساتين مرصعة بالورود، وفيها عسل ونساء جميلات يفتحن قرائح الشعراء ليصفوهن بأجمل عناصر الطبيعة.

ولدينا مقطوعة أخرى للشاعر ذاته يتفنن فيها بوصف ريق الحسناء وثغرها وأسنانها أيضاً، فقد صور الثغر بالحق، والريق بالعسل، والأسنان بالدر النفيس حيث قال :-

يا حبّذا الفلج المعسول ريقته ... وكل حرفٍ بدا من لفظه خطرا
ثغرٌ كحق به الدُّر النفيس غدا ... ملآن منه فمنظوماً ومنتثراً
يجاوز النُّطق حسن الثغر منتبذاً ... كأنها درٌ قد أرسلت دُرراً[1]

والمتأمل في هذه المقطوعات السابقة يدرك أن الطبيعة تتداخل مع وصف الشاعر مفاتن المرأة الحسناء، فهي الأقدر على تجسيد ما يريد، فهل هناك ما هو أجمل من تشبيه الأسنان بالدر النفيس الذي صنعته الطبيعة؟ وتشبيه الريق بالعسل الذي تفننت كائنات الطبيعة في صنعه؟!

ولم يتورع الشعراء عن وصف نهد المرأة، فوصفوه بثمرة الرمان لاشتراكه مع هذه الثمرة في التدور، حيث قال عبد الملك بن جهور في وصف النهد:

أخف وقعي وأسعى سعي مستترٍ ... عليَّ سترٌ من الظلماء والغسق
وأجتني لك نهداً لا نظير له ... كأنما هو رمانٌ على طبقِ [2]

ويوافق الرمادي ابن جوهر في تشبيهه ليقول هو أيضاً :

وشكوى الصب من ألم شديد ... وشدة ضم رمان النهود [3]
جسوم كالمياه يُضم منها ... إذا اعتنقت نهودا كالحديد

---

(١) ديوان الرمادي، ص ٦٨؛ نظر التشبيهات، ص ١٣٧.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٠.

(٣) شعر الرمادي، ص ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أختار الرمادي ثمرة التفاح ليشبه بها نهد المرأة حيث قال:

ليالي يميني تقبض الكاس مرة   وأخرى لها قبضٌ على نهد كاعب
نهودٌ كتفاح اللحين كأنهـــا   لتدويرها قد أفرغت في قوالـــب (١)

ولم يفت شعراء عصر الخلافة أن يصفوا قدود النساء، وطريقـة مشيهن، بـل وصفوا ذلك بدقة، ومقطوعاتهم الشعرية في هـذا المجال تزخر بصور مقتبسـة مـن الطبيعة الخلابة التي تمتع بها شعراء ذلك العصر، حيث كانت تفتـح قرائحهـم دائمـاً لتجود بأجمل الأوصاف، فهذا عبد الملك بن جهور يصـور لنـا محبوبته وهـي قادمـة عليه كأنها ورد السوسان النقي ذي الرائحة الطيبة، أو كأنها روضٌ جميـل فيـه مـن ألوان البهجة ما يسر الناظر ، فيقول :-

أقبلت في ثـوبٍ عليك بنفسجي   كالسوسن الأرج النقيّ الأبهجِ
كالروض حسناً قد تشرب ماءه   فبدا به من كل حسنٍ مبهـــج
وكأن مشيك للقضيب إذا انثنى   وكأن جيدك للغزال الأدعـــج(٢)

ولعلي بن أبي الحسن صورة جميلة في تشبيه مشية معشوقته، إذ شـبّه مشـيتها بتهادي سحابة تسير في السماء، أو نشوان ترنح من كثرة الشراب، أو غصن تحركه الريح، حيث عبّر عن هذا كله بقوله :-

وكـــأن مشيته تهـــادي ديمـةٍ   والوصلُ يبرقُ والتّجنّي يرعَـد
نشوانُ من سكرِ الشبابِ كأنه   غصنٌ تجور به الرياح وتقصـدُ(٣)

أما إسماعيل بـن بـدر، فقـد رسـم لنـا لوحـة جميلـة، نسـج تشـبيهاتها مـن الطبيعـة، كالشمس والقمر والورد والسوسان والغزال والريحان، فيقول في معشوقته:-

تجلـت دياجـي الليل، إذ زار موْهناً   وخدّاهُ، مكسوّانِ ورداً وسوسنـــاً
غزالٌ كقرن الشمس في رونق الضُّحى   وإن لم يكنها كانَ أشهـى وأزينـا

---

(١) شعر الرمادي، ص٤٥.

(٢) الكتاني، التشبيهات، ص ١٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقلنا له : أهلاً وسهـــلاً ومرحبـــاً قصارك منّا أن تشـــم وتجتنـــى

فما تركته الكاس حتـــى كأنـــه قضيب من الريحان قد مال وانثنى[١]

ونلاحظ اهتمام الشعراء في هذه الفترة بوصف حديث المرأة الذي كلما ازداد ألقاً وجاذبية، ازداد سحره وتأثيره في عقول الشعراء مما يوحي لهم بصور جميلة متعددة الإتجاهات، وسنتوقف عند مقطوعتين في وصف حديث النساء، إحداهما للشاعر ابن هذيل والأخرى لصاعد بن الحسن؛ لأن كلتيهما مرصعةٌ بصور مستقاة من الطبيعة، فيقول الأول:-

فصلن مُحضا تجد بين فكيـ ـه لساناً به يُراضُ الكـــــلامُ

وحديثاً كأنـه قطـع الـرو ضِ إذا ما همى عليه الغمامُ[٢]

أما صاعد بن الحسن، فيقول في مقطوعته التي نظمها في وصف حديث محبوبته التي لا تتاح لها الفرصة للحديث المتواصل معه :

ما ضرّ أهلك من لمام مخالسٍ قطع الحديث كوشي روضٍ مرُهمِ[٣]

وفي عناق الحبيبة ووداعها كانت صور الشعراء تتشكل من الطبيعة، فهذا عبد الملك بن جهور يعانق محبوبته مشتاقاً إليها وكأنه يعانق غصناً ليناً ناعم الورق، وفي هذا يقول :-

حتى اعتنقتك مشتاقاً إليك كما يعانق الغصن غصناً ناعم الـــورق[٤]

وهذه صورة جميلة للرمادي يصف لنا حالته لما اعتقد أن البعد يهدد علاقته بمحبوبته، فبادر بهجرانها وكأن ما فعله هروب الخائف من الأسد إلى الثعبان، وقد عبر عن ذلك بقوله :-

---

(١) الكتاني، المرجع السابق، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٣) نفسه، ص ١٤٦.

(٤) الكتاني، التشبيهات، ص ١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لما تهددني بصيـرٌ بالنّوى أفزعتُ من نأي إلى هجران

فكأنني في ذا وذلك حائرٌ قد فرّ من أسـدٍ إلى ثُعبـان(١)

وله بيتان آخران في تشبيه نوى الحبيبة وبعدها عنه بليث مفجوع إذ يقول فيهما:-

مضتْ بفؤادي من أحشائه النوى فهـنّ خـلاءٌ بعده كالمعالم

كـأن النـّوى ليثٌ أصيب بأشبلٍ رأى ثارهُ بين الحشا والحيازم(٢)

أما يحيى بن هذيل فيبكـي فراق أحبته الذين هجروه في ساعات الصباح الباكر، وقد اختلطت دموعه بحبات الندى، وهو بهذا الوصـف يضفـي حزنه على عناصر الطبيعة وموجوداتها فيقول:

لم يرحلوا إلا وفـوق رحالهـم غيمٌ حكى غبش الصبّاح المعتلي

وعلى هوادجهم مجاجات النـّدى فكأنهـا مطـرت بـدر مرسل

لما تحركت الركـاب تناثـرت من فوقهم في الأرض بين الأرحل

فبكيت، لـو عرفوا دموعـي بينها لكنها اختلطت بشكل مشكـل(٣)

وقد عبّر الشعراء عن أحاسيسهم المضطربة وأحوالهم غير المستقرة من الوجد، وهم أكثر دقة في اختيار الصور المناسبة التي توصل أحاسيسهم ومشاعرهم، وهـذا علي بن أبي الحسن يصف لنا خفقان قلبه بقوله :-

كأن فؤادي طائرٌ بين أضلعي يريـد فـراراً والجوانح مطبقُ

كأن عذابي حولهُ شركٌ لـه تنشب فيه فهو للخوف يخفقُ(٤)

---

(١) شعر الرمادي، ص ١٢٩؛ انظر التشبيهات، ص ١٤٩.

(٢) شعر الرمادي، ص١٢١؛ انظر التشبيهات، ص ١٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥١.

(٤) نفسه، ص ١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد جاءت الصورة موفقة، فالطائر الذي يقع في الشرك يكون خائفاً مضطرباً غير مستقر، وكذلك حال شاعرنا الذي يخفق قلبه حباً.

وثمة صورة ليس فيها تكلف للشاعر يوسف الرمادي، الذي يصف لنا حالته إذا ما تذكر أحباءه، فيقول :-

كأن الحشا والقلب عند تذكّري لهم ورقات في قضيبٍ مزعزع(١)

و لم يكن خفقان القلب وحده دليل عذاب المحبّين ووقوعهم في غرام النساء، فهناك ليل طويل، عليهم أن يقضوه مسهّدين يحاكون النجوم، وقد عبر شعراء عصر الخلافة عن طول ليلهم وسهرهم ومراعاتهم للنجوم بمقطوعات شعرية استمدوا عناصرها من الطبيعة، وهم إذا لم يحيكوا صورهم من عناصر الطبيعة كانوا يتفاعلون معها، لتشاركهم سهرهم وحزنهم، وتتأثر بعذاباتهم، وفي هذا يقول الرمادي:-

لمقلته ليلٌ لـه مـن همومـه دجاه، ومن وجدٍ-تضمنّ- دائمهْ
كأن سواد الشوق جيشٌ مدرّعٌ تريّث فيه خوف صبحٍ يهاجمهْ
وأبطأ عنه الصبح حتى كأنّـه رأى من سواد الليّل ما لا يقاومهْ
تجاوب فيه ورقـه فكأنهـا تبثُّ حديثاً بالنهـار تكاتمهْ
كأن سواد الليل مات صباحـه فقامت عليه بالرّثـاء حمائمهْ(٢)

لقد بثّ الشاعر للطبيعة كل همومه وأحزانه، وألفها تتجاوب معه وتستوعب كل عذاباته وآلامه، ونشعر بمثل هذا تماماً إذا قرأنا مقطوعة ابن هذيل التي يقول فيها:-

وليلٍ بغى فيه الغراب جناحه و لم ينفصلْ عنه ولكّنه عمي
دجا فكأني من حنايـاه، أو أتي جريمة سوءٍ في سريرة مجرم

---

(١) شعر الرمادي، ص ٨٤؛ انظر التشبيهات، ص ١٥٦.

(٢) شعر الرمادي، ص ١١٩؛ انظر التشبيهات، ص ١٥٨، ١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا قلت أين الصبح ؟ فاضت سدوله   عليّ كأني مستغيثٌ بأبكـم(١)

وله مقطوعة أخرى في طول الليل والسهاد، فقد شبّه ليله الطويل المرصع بالنجوم بنفسه التي ضاقت ذرعاً بالانتظار، حتى شابت، وعبّر عن ذلك بقوله :-

كأن ليلي وفي أعلاهُ أنجمهُ   لمّا تأوهت في ظلمائه شابا

فالعلاقة قوية بين شعر الطبيعة ووصف المرأة، حتى إننا نستطيع القول بأن أجمل الأوصاف التي يمكن أن توصف بها المرأة لن يجدها الشاعر إلا في جعبة الطبيعة.

ثانياً : الطبيعة في المدح

لقد مدح الشعراء خلفاءهم، فوصفوهم بأحسن الأوصاف، والطبيعة بستان مزهر أمام الشاعر يقطف منه ما يشاء من الصور والتشبيهات المتناسبة مع صفات ممدوحه، وقد انتقى شعراء عصر الخلافة من الطبيعة كثيراً من تلك الصور المعبرة عما يريدون، فرأى بعضهم ممدوحيهم شموساً في إشراقهم، أو بحاراً في عطائهم، في حين رآهم بعضهم الآخر جبالاً في ثباتهم وعلو مكانتهم.

وقد تسلل وصف الطبيعة الى مدائح شعراء هذا العصر بعدة أشكال ، أتضح الشكل الأول منها عندما امتدت يد الطبيعة لتمسك مقدمات قصائد المديح، حتى أصبح شعر وصف الطبيعة هو الذي يتوج الكثير من هذه القصائد، وتعد مدائح ابن هانئ الأندلسي مثالاً واضحاً على ذلك، ففي مقدمة قصيدة له في مدح المعز لدين الله الفاطمي يصور الشاعر بعض مشاهد الطبيعة، فالبرق يومض كحد السيف، والغمامة تهتز راقصة، والريح مضمّخة بعبير الأنسام، تحمل رسائل المحبين المغلفة بالحب والوجد ، فيقول:-

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هل كان ضمّخ بالعبير الريحـا　　مزنٌ يهزُّ البرقُ فيـــه صفيحـا
تهدي تحيات القلوب وإنمـا　　تهدي بهن الوجـــد والتبريحـا
شرقت بماء الورد بلّل جيبهـا　　فسرت ترقرق درها المنضوحـا
بل ما لهذا البرق صلاً مطرقاً　　ولأي شمل الشائميـن أتيحـا[١]

وللشاعر أبيات يربط فيها بين ومضات البرق وخفقات القلوب التي تنتظر عودة الأحبة، فالبرق والتغريد قد أدخلا الأرق على نفس الشاعر، وحرماه نوم الليل، فهو حزين كئيبٌ لفراق أحبته فبعدهم أظلمت الدنيا في عينيه :-

بتنـا يؤرِّقنـا سنا لموحـا　　ويشوقنا غردُ الحمام صدوحا
أمسهِّدي ليل التمام تعاليـا　　حتى نقوم بمأتـم فننوحـا
فلقد تجهّمني فراق أحبّتي　　وغدا سنيح الملْهيات بريحـا[٢]

فالشاعر لا يصف لنا الطبيعة وصفاً جامداً بل يتفاعل معها مصوراً إياها من خلال مشاعره التي تختلج في نفسه، وهي مشاعر الفرقة والبعد عن الأحبة والحزن على فراقهم، ولا يخفف وطأة هذه المشاعر على نفسه الحزينة إلا وصوله الى ممدوحه ممتطياً صهوة الغمام.

وقد وفّق الشاعر في انتقاله من مقدمة وصف الطبيعة إلى غرض المدح، إذ استخدم الغمام لينقله الى ممدوحه، وبذلك تكون المقدمة قد أدت دورها في تقوية القصيدة وإغنائها، وأسهمت عناصرها في الربط بين الفكرة والأخرى.

وفي قصيدة أخرى، يعرض ابن هانئ مشاهد في وصف الطبيعة، فالمطر يتساقط كلؤلؤ جميل، وتدور في السماء معركة بين الريح والسحابة تنتصر فيها الريح، وترمي السحابة نقطاً على الأرض، كما شبه انصباب المطر بالمد والجزر في البحر، ويصور لنا الليل والنهار، فيقابل بينهما، مستخدماً الطباق في الطول

---

(١) د. زاهد على، تبيين المعاني، ص ١٤٣-١٤٦.
(٢) د. زاهد على، المرجع السابق، ص ١٤٦، ١٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقصر، والانقباض والانبساط، كما يصور الأرض فيشبهها ببساط منثور، إذ عبّر عن ذلك كلّه بقوله :

غمائم في نواحي الجوّ عاكفةٌ ... جعْدٌ تحدّر منها وابلٌ سبط
كأن تهتانها في كل ناحيةٍ ... مدٌّ من البحر يعلو ثم ينهبطُ
والبرق يظهر في لألاء غرّته ... قاضٍ من المزن في أحكامه شططُ
وللجديدين من طولٍ ومن قصرٍ ... حبلان منقبض عنّا ومنبسطُ
والأرض تبسط في خدّ الثّرى ورقاً ... كما تنشّر في حافاتها البُسطُ
والريح تبعثُ أنفاساً معطرةً ... مثل العبير بماء الورد يختلطُ
كأنما هي أنفاس المعزّ سرتْ ... لا شبهة للندى فيها ولا غلطُ[1]

وقد أحسن ابن هانئ التخلص إلى المدح مرة أخرى، إذ ربط بين صفات الممدوح وعناصر الطبيعة التي يصفها في مقدمته، فقد جعل الروائح الفواحة كأنفاس الممدوح، وبذلك تخلص الشاعر من المقدمة الى المدح تخلصاً منطقياً، حيث جاءت المقدمة وثيقة الصلة بجسد القصيدة وملتحمةً بها.

ولدينا قصيدة للشاعر يوسف بن هارون الرمادي، وهي في مدح العراض أحمد بن سعد[2] إذ بدأ قصيدته بعرض عدة مشاهد طبيعية للسحاب والرعد والمطر، وقد أحالت هذه المشاهد الأرض بساطاً أخضر، فكأنها محب أفصح عمّا بداخله من تكتم، ثم انتقل الشاعر الى المدح دون أن نشعر لأنه أحسن التخلص من المقدمة الى المدح فجاء ذكر الممدوح طبيعياً، حيث يقول الرمادي في قصيدته :-

كست الأرض بساطاً رائقاً ... بطنها سداهُ والأرض نسجْ
أخرجت أسرارها إذ أحرجت ... رب سرٍّ أحرج الصدر خرجْ

---

(١) د. زاهد علي، المرجع السابق، ص ٣٩١، ٣٩٢.

(٢) هو أحمد بن سعد الجعفري صاحب الشرطة العليا زمن الحكم المستنصر، عزل سنة ٣٦٤ هـ ٩٧٤م، لعتب عليه. انظر ابن حيان ، المقتبس ،ص ٤٤، ٦٤، ١٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كمحبٍّ ضاق وجداً صـــدرهُ فبدا ما كان في الصدر اعتلـــج
صاح إن يبهجك وجهٌ حسنٌ فليكن وجه الربيـع المبتهـــجْ
أعرس الروض ومـــن قيناتـــه أم من خالف في الاسم السمج[١]
تتغنـــى أولاً فـــي رجـــزٍ فإذا امتدت تغني فـــي الهـزجْ

ثم انتقل إلى المدح، فقال :

وكأن الروض من خطِّ أبـــي بكر العارض وشيٌ ودبـــجْ [٢]

وعلى قلـة قصائد المـدح في ديـوان الرمـادي، إلا أنهـا لا تخلـو مـن وصـف الطبيعة، وبين أيدينا قصيدة له في مـدح الوزيـر ابـن بلشـر يبدؤهـا بوصـف الطبيعـة الخلابة التي كانت تحيط به حين كان يتنعم هو وأصدقـاؤه بشرب الخمـر في روض جميل، وعلى الرغم من عرضه لعناصر الطبيعة الرائعة المحيطة به بأسلوبٍ معبر، فإننـا لا نجد في أبياته عمقاً فكرياً، بل تصويـراً للجمـال في الطبيعـة، فالشـاعر يقـف عنـد حدود الصورة والممـاثلات أو المشـابهات، ثـم ينتقـل إلى المـدح، حيـث شـبه خـط ممدوحه بحسن مخبره فيقول :

وكأسٍ كريق الإلف شعشعتها بـــه وعيشي من هذا الشراب المشعشع
على روضةٍ قامت لنا بدرانـــــكٍ وقام لنا فيها الذبـــاب بمسمـــع
كأن السحاب الجون أعرس بالثرى فلاح شوار الأرض في كل موضع
رياض يضاحكْن الغزالـــة بعدمـــا بكت فوقها عين السماء بأربـــع
كان سرور الأرض حزن سحابهـــا إذا ما بكتْ لاحتْ لنا في تصنـــع
حبائب لا يسمحن إلا بلحظـــــة وشمة أنـــفٍ للمحـــبّ المتمنّـع
بدائع ما أهـدى الوزيـر بنانـــــه إلى صكه إلا أتانـــا بأبـــدع
ففي كفه خمـس تعـادل خمســـةً كأن امرأ منهم على كل إصبـــع

---

(١) أراد أم الحسن، لأن الحسن ضد السمج.

(٢) شعر الرمادي، ص ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إياساً(١) وبسطاماً(٢) وحاتـــم طيءٍ(٣) وأحنف(٤) عند الحلم وابن المقفع(٥)(٦)

أما الشكل الثاني لظهور شعر الطبيعة في قصائد المدح، فهـو وجـود شـعر الطبيعة بوصفه جزءاً من أجـزاء القصيـدة، ففـي قصيـدة الرمـادي في مـدح القـالي، نلاحظ عدة مشاهد من الطبيعة، حيث تتخذ عناصر الطبيعة وصفـاً لهـا في قصيـدة المـدح الـتي تبـدأ بمقدمـة غزليـة، ينحـو فيهـا الشـاعر منحـى العذريـــين في تقســيم قصائدهـم، ثم بدأ يمهد للانتقال لمنظر الصيد، وفيه يبتـدأ بذكـر فرسـه الـتي يسـتعين على وصفها بقاموس القدماء خاصة امرأ القيس، ويحـاول أن يضغـط في أبياتـه كـل مخزونه اللغوي، وطاقته الشعرية، فيبلغ الشاعر غاية التأنق والتصوير المبدع، فيقول :

قد اغتدي والصبح في توريســـــه تقضي العيون له بوجه عليـل
بأقب لون الآبنـــوس مفضـــــضٍ في غـرة منـــه وفي تحجيـــل

(١) إياس بن معاوية بن مرة المزني، أبو وللة ٤٦-١٢٢ هـ، قاضي البصرة، يضرب المثل بذكائه وزكنه (فراسته) وفطنته. انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٤٧.

(٢) بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، ١٠ ق.هـ، سيد شيبان ومن فرسـان العرب في الجاهلية، يضـرب المثل بفروسيته، أدرك الإسلام ولم يسلم، وقتله عامر بن جليقة الضبي يوم الشـقيقة، انظر الكـامل للمـبرد، تحقيـق محمد أبو الفضل وسيد شحاته ج١، ص٢٢٧-٢٢٩.

(٣) حاتم بن عبدا لله بن سعد الطائي القحطاني، أبو عدي، توفي ٤٦ ق.هـ، فارس شاعر جواد وكـان مظفـراً، إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح سبق، وإذا أسـر أطلـق. انظـر ابـن قتيبـة، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م، ص١٦٤-١٧٠.

(٤) الأحنف بن قيس بـن معاويـة المنقري التميمـي، أبـو بحـر سـيد تميـم، واحـد مـن العظمـاء والدهـاة الفصحـاء الشجعان، يضـرب به المثل في الحلـم، أدرك الإسـلام ولم يـر النـبي صـلى ا لله عليـه وسـلم. انظـر ابـن سـعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ١٩٥٨م، ٧: ٩٣، ٩٧).

(٥) اسمه بالفارسية روزبة بن داذويه وهو عبدا لله بن المقفع، توفي ١٤٢هـ، وإنما تقفع أبوه لأن الحجاج بن يوسـف الثقفي ضربه بالبصرة ضرباً مبرحاً فتقفعت يداه، عـده ابـن النديـم مـن بلغـاء العـرب العشـرة (ابـن النديـم، الفهرست: ١٣٢، ١٤٠، تحقيق رضا تجدد طهران، ١٩٧٠م، وبروكلمان ٣: ٩٣).

(٦) شعر الرمادي، ص٨٥، ٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مستغرقٍ لصفات زيد الخيل[١] والـ غنويّ[٢] والمزنيّ[٣] والضليل[٤]
يزهى بتحلية اللجام كمـا زهـــا ملك محلّى الرأس بالإكليـــل
متقلب مرح القضيب اللدن قـــد مالت به الأرواح كل مميـــل
يعلـو ويخفض في الصهيل كأنمـــا هو مفرد لحناً لكل صهيـــل[٥]

ثم ينتقل الشاعر من وصف الفرس إلى وصف البازي فالكلب، ثم يمهد ببيت انتقالي ليلتفت إلى السماء حتى تكتمل أبعاد اللوحة، فيرسم صورة السحاب والمطر ويستعمل فيها الألفاظ ذات الرنين والدوي الموسيقي، وبعين الفنان، يلتقط الشاعر لمعان حبات المطر على السندس الأخضر، وانعكاس الشمس على هذا المنظر، فيصف الروض الذي اكتسى حلة من الألوان والضياء، وأخيراً ينتهي الشاعر إلى غرضه من القصيدة وهو المدح.

والشكل الأخير – وهو أكثر انتشاراً وأقدر تمثيلاً على أن الطبيعة متغلغلة في شعر المديح ولا يمكن لها الانفصام عنه– يتضح لنا إذا تأملنا الصور والتشبيهات الدقيقة التي كان شعراء الخلافة يرصعون بها أبياتهم، وتعد النجوم والكواكب عنصراً طبيعياً يجتذب الشعراء فيختارونها لما تتمتع به من قدرة على تجسيد إشراق ممدوحيهم وروعتهم وضيائهم، ومنهم الشاعر ابن عبد ربه الذي يستنفر بشعره

---

(١) زيد الخيل: زيد بن مهبل الطائي، ت٩ هـ، من أبطال الجاهلية سمي زيد الخيل لكثرة خيله، أدرك الإسلام ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم، انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء ص٢٠٥.

(٢) الغنوي: طفيل بن كعب من بني غني من قيس عيلان، شاعر جاهلي، فحل من الشجعان وهو أوصف العرب للخيل، له ديوان شعر مطبوع (تحقيق محمد عبدالقادر أحمد– بيروت، ١٩٦٨). انظر المرجع السابق ص٣٦٤.

(٣) هو زهير بن أبي سلمى.

(٤) شعر الرمادي، ص١١٢، ١١٣.

(٥) شعر الرمادي، ص١١٢، ١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مبشراً بولادة الحكم بن الناصر[١] لدين الله الذي سمي فيما بعد المستنصر بالله، ومشاركاً والده الذي أوسع الانفاق على عقيقته، قائلاً :

هلال نماه المجد واختاره الفخر ... تلقت به شمس وأنجبه بدْر
سلالة أملاكٍ، ربيب خلائفٍ ... أكفهم بحر، ونائلهم غمْر
بدا بصلاة الظهر نجم مكارمٍ ... تحف به العليا ويكنفه الفخر
فيا من كساه الله تاج خلافةٍ ... ومن جوده قطر إذا أعدم القطر[٢]
ومن كاد يندى الخيزران بكفه ... وينبت في أطرافه الورق الخضر[٣]

وقد رسم الشاعر في أبياته السابقة صورة بدا فيها المولود هلالاً، والأب بدراً في إشراقه وبحراً في عطائه، ويستوقفنا البيت الأخير، حيث عبر الشاعر عن كرم ممدوحه الذي يحيل عطاؤه الخيزران اليابس غضاً ينبض بالحياة، فتورق فيه الأوراق من جديد.

ومن تشبيهات الممدوح بالبدر قصيدة للشاعر أحمد بن دراج القسطلي مدح بها عبدالملك المظفر[٤] يقول في مطلعها:

سلام على البدر الذي خلف الشمسا ... وكان لنا في يوم وحشته أنسا

أما تشبيه الممدوح بالشمس، فلدينا أبيات للشاعر ابن عبدربه في مدح الناصر لدين الله وقد خرج متصيداً في أول ركوب له في خلافته إلى منية البنيّ

---

(١) الحكم بن الناصر لدين الله: الحكم بن عبدالرحمن الناصر بن محمد بن عبدالله: خليفة أموي اندلسي، ولد بقرطبة، وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٣٥٠هـ، انظر نفح الطيب ج١، ص٣٦٥-٣٧٩، والنظر الأعلام، ج٢، ص٢٦٧، جذوة المقتبس ١٣ المغرب، ص١٨١.

(٢) هكذا وردت في المصدر ولعلها: (إذا عدم القطر).

(٣) انظر ديوان ابن عبدربه، ص٨١، ٨٢.

(٤) عبد الملك بن المظفر بن محمد بن المنصور بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، أبو مروان ثاني أمراء الأندلس من الأسرة العامرية، كان في أيام أبيه المنصور ينوب عنه في الحجابة للمؤيد الأموي (هشام بن الحكم) بقرطبة، تلقب بسيف الدولة "الملك المظفر بالله" واحبه أهل الأندلس وازدهرت البلاد في عهده. انظر المراكشي ، البيان المغرب ٣:٣؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١:٢٠٧، الضبي، بغية الملتمس، ص ١٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بشرقي قرطبة، حيث تأخذ الحيرة منه كل مأخذ، فيصعب عليه أن ينتقي الأنسب من عناصر الطبيعة ليشبه فيها الناصر فيتسائل قائلاً :

شمس بدتْ من حجاب الملك أم قمر أم برق مدجنة يعشى له البصر[١]

أما ابن هانيء فيختار الشمس دون غيرها من الكواكب ليشبه بها الخليفة المعز لدين الله قائلاً :

شمس من الحق مملوء مطالعها لا يهتدي نحوها جور ولا شطط[٢]

ويجمع ابن هانيء بين الصورتين في مدحه لجعفر بن علي الأندلسي[٣] بقوله:

لو كنت شمس غمامةٍ لم تنتقبْ أو كنت بدر دجنةٍ لم تنقص [٤]

ولما كانت غزوة المنتلون أول غزوات الناصر لدين الله المؤذنة بسعده، فقد عبر ابن عبد ربه عن فرحة النصربها مازجاً بين عناصر الطبيعة من جهة وبين ممدوحه وصفاته من جهة أخرى، فكأن الأرض تبدي تباشيرها فرحاً بهذا النصر، فتخضر وتلبس أجمل أثوابها، وفي هذا يقول :

فصلت والنصر والتأييد جنداكا والعز أولاك والتمكين أخراكا

ورحمة الله في الآفاق قد نشرت والأرض تبدي تباشيراً لمبداكا

قد اكتست حللاً من وشي زهرتها كأن زخرفها في الحسن حاكاكا

طلعت بين الندى والبأس مبتهجاً هذا بيمناك بل هذا بيسراكا[٥]

ومن صور المديح الممتزجة بالطبيعة، أبيات أخرى للشاعر ابن عبد ربه يتساءل فيها مرة أخرى عن الوصف المناسب لممدوحه، فهل يختار القمر شبيهاً به أم

---

(١) ديوان ابن عبدربه ، ص ٨٧.

(٢) د. زاهد علي، تبين المعاني، ص٣٩٤.

(٣) جعفر بن علي: جعفر بن علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي، أبوعلي، ابن غليون أمير الزاب (من أعمال إفريقية) كان جواداً، لابن هانيء فيه مدائح، يجمعهما مذهب الباطنية، ونشأت فتنة بينه وبين زيري، فقام عليه بلكين بن زيري، فانقلب جعفر الى الأندلس فقتل فيها، وهو يأتي المسيلة من بلاد المغرب، انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ١: ١١٣.

(٤) د. زاهد علي، تبين المعاني، ص٣٨٧.

(٥) ديوان ابن عبد ربه، ص١٤٥؛ انظر العقد، ج٦، ص٢٨٥؛ الكتاني، التشبيهات، ص٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البحر؟ ويبدو أن كلتا الصورتين لا ترضيه فيرى في ممدوحه وصفاً يتفوق على هذه الصور، إذ يقول:

فكـرت فيك أبحـر أنـت أم قمر فقد تحير فكري بين هذيـن
إن قلت: بحراً وجدت البحر منحسراً وبحر جودك ممتد العبابيـن[1]
أو قلت: بدراً رأيت البدر منتقصـاً فقلت: شتان ما بين البديرين![2]

وفي عودة عبدالله بن محمد الزجالي[3] إلى خطيّ الوزارة والكتابة بعد أن عزله الأمير عبدالله بن محمد[4] عنهما[5]، قال الشاعر ابن عبد ربه مضفيا الفرحة التي أحس بها تجاه عبدالله الزجالي على موجودات الطبيعة من حوله إذ قال:

تجددت الدنيا وأبدت جمالـها وردت إلينا شمسها وهلالها
فأشرقت الآفاق نوراً وبهجـةً ومدّتْ علينا بالنعيم ظلالهـا[6]

وقد ذهب ابن دراج القسطلي إلى ما ذهب إليه أقرانه من الشعراء، فشبه المظفر عبدالملك بالشمس في قصيدة محكمة السبك أنيقة الألفاظ،

فما أنت إلا الشمس تطلع للعدى فظلهم حتمـاً بنورك زائل[7]

ويكرر الصورة ذاتها في قصيدة له في مدحه المظفر حين ولّى ابنه الوزارة[8] فقال فيه:

---

(١) العبابان: مثنى عباب، وهو كثرة الماء أو السيل أو ارتفاع الماء، انظر لسان العرب مادة عبّ.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص١٨٩، ١٩٠.

(٣) عبدالله بن محمد الزجالي: كان كاتباً ووزيراً عند الأمير عبدالله بن محمد، انظر المراكشي، البيان المغرب، ٢٢٧:٢.

(٤) عبدالله بن محمد :هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام : من ملوك بني أمية في الأندلس، كان مقتصداً، كارهاً للسرف، كثير الصدقات والمبرات، ورعاً، متفنناً في العلوم، بصيراً بلغات العرب، فصيحا، يقول الشعر ويرويه، أنظر نفح الطيب ١٦٦:١؛ ابن خلكان وفيات الأعيان، ١٣٢:١.

(٥) انظر الخبر في إعتاب الكتاب، ص١٧٢.

(٦) ديوان ابن عبد ربه، ص١٤٩.

(٧) ديوان القسطلي، ص١٧.

(٨) انظر يتيمة الدهر، جد٢، ص١١١، ١١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شمـــس تبدت في ذوائب يعربٍ ركبت إلى الرتب العلا معراجها[١]

وكثيراً ما عمد شعراء عصر الخلافة إلى تشبيه ممدوحيهـم بـالبحر أو الغمـام، ليدللوا على عطائهم وكرمهم، ومن ذلك قول ابن هانيء في مدح الخليفة المعز لدين الله وتشبيهه إياه بالغمام، إذ يقول :

وهو الغمام يصوب منه حياتنا لا كالغمام المستهل دلوحـــا[٢]

ومنه أيضاً قول ابن دراج القسطلي في مدح المظفر أيضاً :

إن أقلعت ديم السحاب فلم تجـد فسحاب كفك ما يزال يجود

ولئن طـــوى عنـــا الربيـــع ثيابه فربيـــع جودك شاهد مشهود[٣]

كما كان شعراء الخلافة كثيراً ما يمتدحون الخلفاء بتشبيههم بحيوانات عرفت بالقوة والشجاعة وعل رأسها الأسد. ومن ذلـك تشبيه ابـن دراج القسـطلي لابـن المظفر أثناء إعذاره حيث قال في ذلك:

وأي شبـــلٍ لأي ليـــثٍ وأي نهـــرٍ لأي بحـر [٤]

وقد ذهب إلى مثل ذلـك في قصيـدة أخـرى لـه في مـدح الوزيـر عيسـى بـن سعيد[٥] حين قال مادحاً إياه :

وليث تحت سابغةٍ دلاصٍ وغيثٌ بين أثناء الوشاح [٦]

ونلاحظ في هـذا العصـر أن الشـعراء في بعـض الأحيـان إذا مدحـوا وصفـوا الطبيعة من خلال تأثير الممـدوح عليهـا، وفي بعـض الأحيـان كـانت الصـورة تـأتي ممقوتة ومبالغ فيها.

---

(١) ديوان القسطلي، ص٢٤.

(٢) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص١٥٠.

(٣) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٢٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٧.

(٥) عيسى بن سعيد: المعروف بابن القطاع، وزير أندلسي، كان قيم دولة بني عامر، صاهر ابن ابي عامر سنة ٣٩٦هـ، كثر حساده والسعاة به، فاضطرب ما بينه وبين عبدالملك بن محمد بن أبي عامر، انظر الذخيرة ١/١ ص١٠٢، والأعلام، ج٥، ص١٠٣.

(٦) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأبيات الجميلة التي تتداخل صورة الممدوح فيها مع صورة الطبيعة أبيات للشاعر أحمد بن عبد ربه يمزج فيها بين موجودات الطبيعة وممدوحه الذي تورق الأرض وتخضر إذا ما رأته مستبهجاً وهذه الأبيات هي في مدح الناصر لدين الله في مناسبة خروجه للصيد في أول ركوب له في خلافته إلى منية البنتي بشرقي قرطبة حيث قال:

بدر بدا من تحته أبلق (١) يحسد فيه المغرب المشرق
لما بدا للأرض مستبهجاً كادت له عيدانها تورق
لو يعلم الأبلق من فوقه لاختال عن عجب به الأبلق
يا من رأى بحر ندى زاخراً يحمله طرف فلا يغرق(٢)

وهذه أبيات للشاعر محمد بن هانيء في مدح المعز لدين الله تدل على عمق الصلة بين الشاعر والطبيعة التي حوله، فهو يغوص وراء المعاني المعبرة عن ضيائه وعلو قدره وبهاء طلعته وكرامة نسبه ليضفيها على ممدوحه، ويجد الشاعر في الطبيعة منهلاً لا ينضب يستقي منه عناصر الصورة التي يرسمها لممدوحه، فيقول:

من صفو ماء الوحي وهو بجاجة من حوضه الينبوع وهو شفاء
من أيكة الفردوس حيث تفتقتْ ثمراتها وتفيأ الأفياء
من شعلة القبس التي عرضتْ على موسى وقد حارتْ به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة من جوهر الملكوت وهو ضياء
من حيث يقتبس النهار لمبصر وتشق عن مكنونها الأنباء(٣)

لقد امتزجت صورة الممدوح مع صورة الطبيعة في المقطوعة السابقة، حتى غدا الممدوح كأنه قطعة منها، فهو الممجوج من ماء الوحي كما أن الفردوس تفتقت من أيكه، فكأنه شعلة النور، والجوهر الذي يقتبس صاحب النظر منه ضياء

---

(١) البلق: ارتفاع التحجيل إلى الفخذين، انظر لسان العرب، مادة بلق.
(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص١٤٠.
(٣) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص ١٥-١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نهاره، ويستنبط صاحب البصيرة منه أنوار عقله، وتبدو هذه الأبيات مبالغاً فيها، لكنها أفضل من بعض الصور الممقوتة لابن هانيء، فهو ينزل الملائكة لنصر ممدوحه الذي يطيعه الصباح والمساء والفلك والغزو في الصحراء، والبحر والأيام والناس والسماء والأرض[1] ، وقد تنبيء هذه التشبيهات والمبالغات المعنوية بقدر غير يسير من التعالي والكبر الذي يغلف قلبه، ويبدو أن ابن هانيء لا ينظر إلا من علٍ ولا يرضى بالأشياء كما هي عليه، ولا يقنع إلا بأن يبالغ فيها، فالممدوح عنده يقهر الطبيعة ويتغلب عليها، فتصير تحت إمرته، وطوع إشارته، فالرياح إن شاء رخاء وإن شاء هوجاء، وهي من بعض جنده، والنحوم دوماً سعود، والبحر عظيم العباب واسع ليس له ساحل، وعلى ذلك يضيق بأسطوله، والموج من أنصاره بل إن البحر بعض عدته، والبحر أخيراً هو الذي يشبه الممدوح، وأما الغمام الناشيء من دخان القذائف فهو مكفهر صبيره، كثير برقه شديد رعده، يصير صواعق، أما الجبال فهي شم راسيات، إذ يقول:

لك البر والبحر العظيم عبابه ... فسيان أغمار تخاض وبيد

أما والجواري المنشآت التي سرت ... لقد ظاهرتها عدة وعديد

قباب كما تزجى القباب على المها ... ولكن من ضمت عليه أسود

و لله ما لا يرون كتائب ... مسومة تحدو بها وجنود

أطاع لها أن الملائك خلفها ... كما وقفت خلف الصفوف ردود

وأن الرياح الذاريات كتائب ... وأن النحوم الطالعات سعود

وما راع ملك الروم إلا اطلاعها ... تنشر أعلام لها وبنود

عليها غمام مكفهر صبيره ... له بارقات جمة ورعود

مواخر في طامي العباب كأنه ... لعزمك بأس أو لكفك جود

---

(١) د. زاهد علي، المرجع السابق، ص٢٥ – ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنافت بها أعلامهـــا وسمالهـــا بناء على غير العراء مشيـــــد
وليس بأعلى كبكبٍ وهو شاهـق وليس من الصفاح وهو صلـود[١]

ثالثاً : الطبيعة في الحروب وأدواتها

لقد سجل الشاعر المعارك التي خاضها العـرب ضـد الفرنـج، أو فيمـا بينهـم ومجّد أبطالها، وصوّر زحف الجيوش وملاقاتها للأعداء، كمـا سـخر مـن انهزامهـم، و لم تخل مدائح السلطان والقادة من ذكر المعارك، والجيوش وعدد القتلـى، ووصـف رجال الحرب.

وهذا الغرض من أغراض الشعر التي لم تبعد عنها الطبيعة، فقد تغلغلـت فيـه، فكانت واحة الشعراء، يرتشفون منها صورهم المتناسبة مع مـا يريـدون التعبـير عنـه فهم "ليسوا بالمقصرين في الوصف إذا تقعقع السلاح، وسالت الخلجان الصوارم بين قضبان الرماح، ونبت الحرب من العجاج سماء، وأطلعت شبه النجوم أسنة، وأجرت شبه الشفق دماء"[٢].

إن الطبيعة هي القالب الذي تنسكب فيه الأحداث، فـلا تستطيع الانفصـال عنه أبداً والشاعر إذا تحدث عن المعركة، فحريّ به أن يصف الجيش وقد أفرد قسـم من الشعراء الأندلسيين بعض المقطوعـات الشعرية لوصـف جيـوش الحـرب، فهـذا طاهر بن محمد يشبه جنـود الجيـش بالأسـد الماشية في موكـب، فكلاهمـا قـوي لا يختلجه جبن أو خوف، إذ يقول:

وللجيوش التي تحف بـــــه مناظـــر الأسد في مواكبها [٣]

---

(١) د. زاهد علي، المرجع السابق، ص٢٣١-٢٣٤.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص١٥٥.
(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٢١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما جعفر بن عثمان المصحفي، فيرى كتائب الجند مثل البحار الزاخرة الفائضة على طول البلاد وعرضها، ويعبر عن ذلك بقوله:

كتائب أمثال البحار زواخراً ... تفيض على طول البلاد وعرضها
تزيل الكرى عمن تؤم كأنما ... هواجلها بين الجفون وغمضها[١]

ولابن عبد ربه معنى يشابه المعنى الذي ذهب إليه المصحفي، إذ يشبه الجيش كأنه ظهر يم تنفحه الصبا، وقد درج هذا البيت ضمن مقطوعة ابتدأها ابن عبد ربه بقوله: "وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم إليه، ومعنى بديع لا نظير له، ذلك قولنا..:-

وجيش كظهر اليم تنفحه الصبا ... يعب عبوباً من قناً وقنابل
فتنزل أولاه وليس بنازلٍ ... وترحل أخراه وليس براحل!
ومعتركٍ ضنكٍ تعاطت كماته ... كؤوس دماءٍ من كلىً ومفاصل
يديرونها راحاً من الروح بينهم ... بيض رقاقٍ أو بسمر ذوابلٍ
وتسمعهم أم المنية وسطها ... غناء صليل البيض تحت المناصل[٢]

ويكرر ابن عبد ربه المعنى ذاته في قصيدة له في وصف (المنتلون) التي افتتح فيها عبدالرحمن الناصر سبعين حصناً من حصون الأعداء، وهي أول غزوة غزاها سنة (٣٠٠هـ)، فيصف الجيش قائلاً :

بجحفلٍ تشرق الأرض الفضاء به ... كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا
يقوده البدر يسري في كواكبه ... عرمرماً كسواد الليل رجراجا
يرون فيه بروق الموت لامعةً ... ويسمعون به للرعد أهزاجا[٣]

---

(١) الكتاني، المرجع السابق، ص٢١٣.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص١٥٢؛ انظر العقد، ج١، ص١١٢.

(٣) ديوان ابن عبد ربه، ص٨٩؛ انظر العقد، ج١، ص١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يشبه جيش الناصر بالبحر الذي يقـذف أمواجـه بعيـداً عـن سـاحله لاتساعه، إنه الجيش الذي استطاع أن يكتب ملحمة الانتصار على العدو المشترك في جيان.

وهذه مقطوعة أخرى لابن عبد ربه، نجد فيها وصفاً لكتائب جيش المسلمين الذي يشبه سواد الليل لعظمة حشوده، وبطولة فرسانه الذين يكرون ويفـرون علـى العدو ليلاً وسط غبار المعركة، حتى جعلوا هامات القتلى مقسمة بين حوافر الخيل، حيث يقول:

كتائب تتبارى حول رايتـــــه ... وجحفل كسواد الليل جـــرار
قوم لهم في مكر الليل غمغمـــه ... تحت العجاج وإقبـال وإدبـــار
في قسطلٍ من عجاج الحرب مد له ... بين السماء وبيـن الأرض أستار
فكم بساحتهم من شلو مطـــرحٍ ... كأنه فوق ظهـر الأرض إجـار (١)
كأنما رأســـه أفلاق حنظلــة ... وساعداه إلى الزندين جمـــار
وكم على النهر أوصالاً مقسمـــةً ... تقسمتها المنايا فهي أشطـــار
قد فلقت بصفيحِ الهند هامهـــم ... فهن بين حوامي(٢)الخيل أعشار(٣)

لقد نقلنا الشاعر بأبياته تلك إلى ساحة المعركة، وصور لنا طبيعة المكان الذي تدور فيه المعركة، ويلتقي المحاربون، ويعلو غبار الحرب، حتى نكاد نصغـي إلى وقـع الأسنة وصهيل الخيول حتى صرخات الموت التي تنطلـق مـن الأعـداء وقـد غطتهـم الدماء.

---

(١) الإجار: السطح، كالإنجار (بالنون) وهي لغة أهل الشام والحجاز، يريد أن ذلك الشلو قد سوى بالأرض فصار كالسطح على سطحها، انظر لسان العرب، مادة أجر.

(٢) الحوامي: ميامن الحافر ومياسره، يريد تشبيه القتلى بجزور الميسر، أي أنها مقسمة بـين حوافـر الخيـل، انظـر لسان العرب، مادة حمي.

(٣) ديوان ابن عبد ربه، ص٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تكن المعارك التي تدور بين المسلمين في عصر الخلافة وأعدائهم برية فقط، بل كانوا يخوضون معارك بحرية[١]، فموقع الأندلس المحاط بالبحار كان سبباً في اهتمام الخلفاء بتقوية أسطولهم الحربي، فهم محاطون بعدد كبير من الطامعين بهم، لذا، عليهم حماية السواحل الأندلسية واستخدام سفن الحرب في إخضاع المتمردين، وحماية الجزر البعيدة عن البر مثل (ميورقة) و (منورقة) و (يابسة)[٢] وما تقتضيه متطلبات الجهاد في سبيل الله من وجوب نشر دينه في أبعد الأصقاع، كما أن اتصال الأندلسيين بالمشرق العربي من جهة، وباقي بلاد الفرنجة من جهة أخرى، كان يقتضي تعزيز أسطول البحر والعناية به، والجدير بالذكر أن أول عهد المسلمين ببلاد الأندلس كان عن طريق البحر إبان فتحها سنة (٩٢ هـ/ ٧١١م) عندما عبر المسلمون بسفنهم إليها بقيادة طارق بن زياد، لذا، فنحن نلاحظ اهتمام الشعراء الأندلسيين بتسجيل تلك المعارك والتأشير على معالم شجاعة المسلمين البحرية، وبأسهم الشديد، وعدتهم الحربية.

إن الحديث عن هذه المعارك طويل، وهناك العديد من القصائد والمقطوعات الشعرية في هذا المجال، إلا أن موضوع الرسالة يقتضي منا انتقاء المقطوعات الشعرية التي تتفاعل فيها الأحداث مع الطبيعة، أو تلك التي تستمد تشبيهاتها وصورها من الطبيعة وعناصرها استمداداً واضحاً.

ونقف عند أبيات لإسماعيل بن بدر، قالها في إحدى غزوات الناصر البحرية سنة (٣٠١هـ) حيث شهدها الشاعر كما يذكر ابن حيان، إذ يقول:

---

(١) انظر د. مصطفى بهجت، البحر في شعر الأندلس والمغرب، في عصري الطوائف والمرابطين، الرسالة الأربعين من حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨٦م، ص١٣ وما بعدها.

(٢) يابسة: جزيرة تلي جزيرة ميورقة، ويقال لهما بنتا جزيرة حسنة كثيرة الكروم، انظر الحميري، الروض المعطار ص١٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا البحر يذكر منك عهداً ... سقى مغناه نوء المرزمين

تحن إليك منه طاميات ... من الأمواج ملء الخافقين

لئن جادت غواربها بماء ... أجاج لا يسوغ لواردين

فأنت البحر عذباً مستقلاً ... علينا بالنضار وباللجين[1]

ويعد ابن دراج القسطلي واحداً من الشعراء الذين وصفوا البحر ومعاركهُ في قصائد المدح التي وقف عليها أغلب شعره، ويبدو أن لاميته التي تتصدر ديوانه والتي تقع في خمسة وخمسين بيتاً، واحدة من أهم القصائد التي وصف فيها المعركة الحربية التي تصدى فيها المنصور بن أبي عامر لثورة زيري بن عطية[2]، ففيها نتبين أن المنصور قد اهتم بأسطوله البحري حتى عدّ من الأساطيل المتميزة في تلك الآونة، فالأشرعة عالية، والعدد كثيرة جعلت البحر يستعظم أمرها، أما جند المنصور الذين اعتلوا صهوات السفن فهم أسود حقيقية في غابة كثيفة، يقول ابن دراج:

تحمل منه البحر بحراً من القنا ... يروع بها أمواجه ويهول

بكل معالاة الشراع كأنها ... وقد حملت أسد الحقائق غيل [3]

وهذه السفن التي حملت تلك الأسود سفن سريعة تسابق الريح في انطلاقاتها، حتى يخيل للمرء أنها خيول في سرعة جريها، وهي سحائب تسوقها الرياح، ويسترسل شاعرنا في وصفه للسفن فيشبهها بالظباء الخفيفة الخالية من المفاحص، أو الحمام الأزرق لكن دون هديل، وقد عبّر عن ذلك بقوله :

---

(١) ابن حيان، المقتبس، القسم الخامس، ص٩١.

(٢) زيري بن عطية الخزري المغراوي الزناتي، أمير زناتة، كان جده الخزر بن صولات وقد أسلم على يد عثمان ابن عفان، ولما قامت "صنهاجة" بدعوة العبيدين في المغرب، ثبت زناتة على الدعوة للأمويين، وقادها زيري ابن عطية فملك مدينة فاس، وغيرها، وخاض حروباً كثيرة آخرها بينه وبين جيوش "ابن أبي عامر" فأثخن فيها بالجراح ومات بعد ذلك. انظر البيان المغرب. ج١، ص٢٥٢، ونفح الطيب، ج١، ص٣٨١-٣٨٢.

(٣) ديوان ابن دراج، ص٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا سابقت شأو الريـــاح تخيلت خيولاً مدى فرسانهن خيـــول
سحائب تزجيها الرياح فإن وفت أنافت بأجيادٍ النعام فيـــــول
ظباء سمامٍ ما لهنّ مفاحـــص وزرق حمام ما لهن هديـــل
سواكن في أوطانهنّ كأن سمـا بها الموج حيث الراسيات تزول[١]

ثم يمدح ابن دراج القائد الذي يشرف على سير المعركة في البر والبحر، دفاعاً عن الدين الإسلامي في الشرق والغرب، وإذلالاً لأهل الشرك والضلالة، فيقول :

كتائب عز النصر في جنباتها فكل عزيز يممته ذليـــــل
يسيرها في البر والبحر قائـد يسير عليه الخطب وهو جليل
به أمن الإسلام شرقاً ومغرباً وغالت غوايات الضلالة غول [٢]

وهكذا، ظل وصف المعارك برية وبحرية ملازماً لقصائد الشعراء، بخاصة من عاش منهم قريباً من القائمين على الحكم حيث لا يكاد يمر عام تقريباً دون حرب تنشب أو فتنةٍ تقوم.

ولابن دراج مقطوعة جزلة الألفاظ في وصف جنود المنصور بن أبي عامر وبأسهم في الحرب وبسالتهم، وهي صورة مرسومة من الطبيعة، فقد انتقى الشاعر عناصره بدقة، ليحيك لنا تشبيهاً بليغاً قادراً على إيصال ما يريده للمتلقين فقال في جنود المنصور:

جنود كأن الأرض من لمعانهـــا بروق تلألأ أو حريق تضرمـــا
سحاب من البيض الخوافق قد علا وبحر من السرد المضاعف قد طمى
بكل كميٍّ عامريٍّ كأنّمـــا تسربل من شمس الضحى وتعمما[٣]

---

(١) ديوان بن دراج، ص٤
(٢) المرجع السابق، ص٦.
(٣) نفسه، ص٣٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما تحدث الشاعر الأندلسي في هذه الفترة عن المعارك وجنودها، تحدث كذلك عن فرسه التي تلعب دوراً متميزاً في تقرير نتائج الحروب، بجانب بسالة الفارس الذي يسعى جاهداً إلى تحقيق النصر، فوصف لذلك سرعة فرسه وعدوها وعنقها وطولها ولونها، حتى أنه رصد حركتها وسكناتها رصداً رقيقاً، وكانت أوصاف الشاعر للخيل تدور حول تصوير القوة وشدة البأس في الحرب، وتصوير الكثرة والضخامة.

وهذا بيت لابن عبد ربه، يصور فيه كثرة وضخامة الخيل، فقد تدافعت متتابعة كأنها تيار يسير بلا انقطاع، فيقول :

يقدمون كراديساً[1] مكردسة كما تدفع بالتيار تيار [2]

ولأهمية الخيل الكبيرة، فقد أضفى عليها الشعراء أحسن الصفات، وأكملها، وقد عبر لنا ابن هانيء عن كل ما يمكن أن يسترعي انتباه الشاعر في تصويره لخيول المعركة حيث وصفها بدقة، وجعلها تبلغ حيث يبلغ الحمام من السماء دون أجنحة، وتسمع بآذان هي في الدقة واللطافة كورق الفضة، وتنظر بعيون هي في الحسن كعيون الظباء، وإذا حُلّيت بالذهب وقت السلم أشرقت كأنها كواكب نيرة، وإذا ألبست الحديد وقت الحرب أظلمت كأنها ليالٍ شديدة الظلمة، أو كأنها سحائب سودٍ فيها صواعق محرقة، ويتضح لنا تغلغل الطبيعة في صور الشاعر وتشبيهاته، فهو يشبه عنصراً من عناصر الطبيعة وهو الخيل، بصور من الطبيعة، وهي الكواكب والبروق والظباء، وقد عبر عن ذلك كله بقوله:

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضب ولا البيد الحزون حزون
حيث الحمام وما لهن قوادم وعلى الريود وما لهن وكون
ولهن من ورق اللجين توجس ولهن من مقل الظباء شفون

---

(١) الكراديس (ج كردوسة) وهي الجماعة العظيمة من الخيل، انظر لسان العرب، مادة كردس.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكأنها تحت النضار كواكب   وكأنها تحت الحديد دجون
وأحلّ علم البرق فيها أنها   مرت بجانحتيه وهي ظنون[(١)]

وهذه أبيات لابن دراج القسطلي تدل على دقته في رصد حركات الخيل وسكناتها وتتبع أجسامها جزءاً جزءاً، وكيف لا يوليها كل تلك الأهمية وقد لعبت دوراً كبيراً في إحراز النصر في المعارك التي خاضها المسلمون في بعض غزوات المنصور بن أبي عامر؟ إذ يقول :

بوارق ما أومضن عنك لناكثٍ   فاخلف من سقيا دمٍ ديمة تسحو
صفائح أعداها سناك فأشرقت   ولم يعدهن العفو منك ولا الصفح
وسابحة في البر والبحر لم يزل   بيأسك في بحر الدماء لها سبح
إذا جمجمت يوماً بها منك صولة   إلى الشرك لم يملك أعنتها الكبح[(٢)]

ويصور ابن عبد ربه الخيل وهي تردي العدو وتعود بأسلابه، وتفوت بكل سهولة من طلبها بالثأر فلا يقدر عليها لبدعتها، كما أنها تلحق من يريد أن يفوتها فتدرك ثأرها منه، وهي صورة دقيقة، ومعبرة بوضوح عن سرعة هذه الخيل، إذ يقول:

قاد الجياد إلى الأعداء ساريةً   قبّاً[(٣)] طواها كطي العصب إضمار
ملمومةً تتبارى في ململمةٍ   كأنها لاعتدال الخلق أفهار
تزور عند احتماس الطعن أعينها   وهن من فرجات النقع نظار
تفوت بالثأر أقواماً وتدركه   من آخرين إذا لم يدرك الثار[(٤)]

وإذا كانت الخيول من أبرز عناصر المعركة البرية، فالسفن هي محور اهتمام المحاربين في مواقعهم البحرية، وقد تفنن الشعراء في وصف السفن البحرية المعدة

---

(١) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص٧٣٥، ٧٣٦.

(٢) ديوان ابن دراج، ص٣٢٩.

(٣) قب: (ج أقب) أي الضامر البطن، انظر لسان العرب مادة قبّ.

(٤) ديوان ابن عبد ربه، ص٨٨، ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للحرب، وهذه مقطوعة للشاعر يحيى بن هذيل يصف لنا صورة الأساطيل التي تشق البحر شقاً بصور من واقع عناصر الطبيعة المحيطة بها، فيقول :

وتلـك الأساطيل المسخرة التـي ... تـمر بتأييـد وتغزو فتغنـم
إذا مخرت في البحر ماجت كأنمـا ... تخاصم أبناء الضلال فتخصـم
وصفت كأن البحر تحت صدورها ... قد استأسرت أمواجه فهو أبكـم
وقامـت ستـارات على جنباتها ... طوال كما امتد السحاب المركم[1]

أما الرمادي، فيقول فيها :-

والسفن قد جللها قارهـا ... كأنها أعراء حبشـان
كأنها في دار مضمارهـا ... خيل يصنعن لميـدان
كأنها والماء ميدانهـا ... في الجو منقضة عقبـان
ترى المقاذيف بأحنائهـا ... كأنما ترمي بنيـران
لذاك تمشي مشي صاحٍ فلو ... جاوز أمست شبه نشوان
كالأعين الحور، بحاذيفهـا ... من حولها أشفار أجفـان
كأنما أبراجها في الوغـى ... ترمي من النفط ببركـان[2]

فهذه السفن عندما تستعد للحرب تشابه الخيل قبل انطلاقها لمنازلة الأعـداء، وهي كذلك كالعقبان في انقضاضها، وهكذا نلاحظ أن الطبيعة تسللت لتدس أنفها في فن شعري غريب عنها، ولكن الشعراء قاربوا بينهـا وبـين فنـون الشـعر الأخـرى بطريقة ذكية ومنطقية فاستعانوا بالطبيعة على وصف وتجسيد كل ما تحتويه الطبيعـة تقريباً.

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص١٨٠.

(٢) شعر الرمادي، ص١٣١، ١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصف الآلات الحربية :

إن وصف الآلات الحربية لا يقل شأناً عن وصف الجيش أو الخيل أو السفن الحربية، فالآلة الحربية ومضاؤها وشدتها وخصائصها، أمور كان لها صدى في قصيدة الحرب الأندلسية، كصدى بلاء الرجال وشجاعتهم، وصبرهم، فللسيف قوته وحدته، وللرمح صولته وللقسي فعلها، ودقتها، ورجالها، الذين يتقنون في التصويب بها، وللدروع زنودها وللخيل فرسانها وصولاتها.

لقد وصف الشعراء الأندلسيون السلاح وصناعته وأنواعه وأقسامه وميزاته، لأنهم أحسوا بأهميته وضرورة توافره في ساعات الخطر التي كانت تهددهم دائماً، فالفرنجة ينتظرون اللحظة التي ينقضون فيها عليهم، ليطمسوا معالم تلك الحضارة العظيمة التي شيدها المسلمون في الأندلس، لذا، تيقّن الشعراء وغيرهم من الأندلسيين أن النصر لا يستقيم إلا بالسلاح، ولا يرتفع اللواء إلا به.

وحظيت السيوف التي كان يعدها العرب أشرف الأسلحة بأوصاف الشعراء، فهي كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (الجنة تحت ظلال السيوف)[١]، فلا غرابة أن يجعل شعراء الأندلس لها مكانة سامية، فهذا علي بن أبي الحسن يصف السيف وهو في الفرند كأنه لجة بحر زاخر مموج فيقول:

ومرهف كالقبس المؤجج ... كأن فوق متنه المدرج

جلد شجاعٍ أو فتوق زبرج ... تحسب في فرنده المرجرج

لجة بحرٍ زاخرٍ مموج[٢]

وينتقل الشاعر من وصفه لسيف واحد إلى وصف مجموعة تلتمع بين أيدي جنود المعركة، فيقول:

تمر في كل جيشٍ وهي ساكنة ... مر البروق جلاها العارض الهزج[٣]

---

(١) صحيح البخاري، مصر للطباعة، المنيرية، بدون تاريخ، ج٤، ص٧٩.

(٢) الكتاني، التشبيهات، ص١٨٣.

(٣) الكتاني، المرجع السابق، ص١٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولأن الرماح كانت أداةً من أهم أدوات المعارك فقد وصفها الشعراء ومنهم أحمد بن عبد ربه قائلاً :

بكـــل رديني كـــأن سنانه ... شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الآجال في طول متنه ... وعادت به الآمال وهي فجائـــع[(١)]

ونلاحظ في وصف الرماح والسيوف تركيزاً واضحاً على بريقها ولمعانها، وهذا ما يدل عليه البيت الأول من أبيات المهند، الذي يقول:-

كأنما السمر في أسنتهـا ... نار مصابيح يستضاء بها
تلين هزاً واللين شدتها ... كالحية الصل في توائبهـا[(٢)]

ويستوقفنا هنا تشبيه الشاعر للرماح التي كلمـا لانـت ازدادت شـدة وعنفـاً، كأنها حية تتواثب في حركتها، وكلما ازدادت ليونة ومرونة كان الخطر منهـا أكـبر وأسرع، وهي صورة موفقة سرعان ما تنطبع في أذهاننا لحيويتها وحركتها.

وهذا يحيى بن هذيل يكرر المعنى الذي مر علينا في أبيـات الشـاعر ابـن عبـد ربه حيث شبهت الرماح بالشهب الطالعة، والجميـل في أبيـات ابـن هذيـل تشبيهه إطلالة السيف في يد الجندي بإطلالة الشهب في كبد السماء حيث يقول :

ومرهفات كأنها شهب ... طوالع في يديك مطلعهـــــا
كأنها طالبات مسترق ... مفرعها في الكلى ومشترعها[(٣)]

أما علي بن أبي الحسن، فله مقطوعة جميلة في وصف الرماح، يقول فيها:

بروج من الخطيّ فيها كواكـــــب ... لها من قلوب المجرمين منـازل
تردت نحول العاشقيـــن كانمـــا ... بها من تباريح الغرام بلابـــل
كـــأن ضـــراماً في الوغى متأججـــاً ... ومنها لهيب والدخان القساطل
بها يكتب الفتح الذي صحفه العدى ... فأقلامه عند الكماة الذوابـــل

---

(١) ديوان ابن عبد ربه، ص ١٢٣.
(٢) الكتاني، التشبيهات، ص١٩٩.
(٣) الكتاني، المرجع السابق، ص ١٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبين أيدينا صورة غريبة للشاعر ابن هـانيء، جمـع فيهـا بـين عنصـري القـوة والرقة معاً، فرغم هالة القسوة والعنف التي تحيط بهذه الأداة التي لم تصنع إلا للقتـال وحده، إلا أنه رأى غيضات الرماح حدائق تلتمـع الأسـنة فيهـا كالأزهـار الجميلـة، فيقول:

وكـأن غيضات الرماح حدائق ... لمع الأسنة بينها أزهـــار
وثمارها من عظلمٍ[١] أو أيدعٍ[٢] ... ينع فليس لها سواه ثمـــار
والخيل تمرح في الشكيم كأنها ... عقبان صارة شاقها الأوكار[٣]

أما المهند فتأخذه الرقة والرومانسية إلى حـد يبعثـه إلى تشـبيه اعوجـاج تلـك الأداة بانحناء حاجب المرأة، وتشبيه عطفهـا بعطفـه، أمـا القشـي فهـي امـرأة ترشـق محبوبها لتصيبه بسهام حبها، ورغم التناقض بين القتـل والحـب إلا أن التشـبيه جميـل ومعبر حيث يقول المهند:

كأن عوج القسي قد أخذت ... شبهاً من الخود في حواجبهـا
فعطفها عطفها ومطلبهـــا ... في القصد بالرشق من مطالبها[٤]

وهذه مقطوعة جميلة لابـن هذيـل، فيهـا روعـة ودقـة في التصوير، فالشـاعر يوظف بكل ذكاء مشهداً طبيعياً من مشاهد الطبيعة، وهو علاقة الأم بابنهـا ليصـور لنا آليّة استخدام القسي والنبال، فصوّر القسي التي تدنو مـن النبـال ثـم تتركهـا إلى حيث تريد، كأنها أم حانية على طفلها دون رحمة، فهـي التي تتركـه بـلا طعـام أو شراب، وكلما دنا من حجرها نبذته وتركته للحياة، لتحيله رجـلاً ذا خـبرة وتجربـة فتصنع منه بقساوتها عليه نجاحاً يذكر لها فيما بعد، فيقول:

---

(١) عظلم: نبت يصبغ به. انظر لسان العرب مادة عظلم.

(٢) أيدع: الزعفران، وقيل خشب البقم وقيل دم الأخوين، وله معانٍ مختلفة كلها تدل على أنه صبغ يصبـغ بـه الصباغون انظر المصدر السابق، مادة : يدع.

(٣) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص٣٦٧.

(٤) الكتاني، التشبيهات، ص٢٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحانية من غير رحمى على طفل ... يعيش بلا أكل ويبقى بلا رســـل
إذا ما دنا من حجرها نبذت به ... وترسله طفلاً فيغدو على كهـــل
كأن تراخيها قوام لقـــــوةٍ ... تميل عليه تارة ثم تستعلـــــي
إذا استعقلته وهو قبضة حجرها ... مضى يضع التأكيد في فرقة الشمل
لها رنة في إثره بعد فقـــده ... فتحسبها تبكي عليه من الثكـــل[1]

ويقتنص لنا الشاعر صورتين من سماء الطبيعة ليشبه بهما القسي والنبال، فكأنها نجوم ترشق الأهلة في السماء، وكأن السيوف اللامعة في غبار المعركة شموس مضيئة في ليالٍ حالكة الظلمة، حيث يقول:

فكأن القسي يرشق منهـــا ... كل نجمٍ من عطف كل هلال
وكأن السيوف في ثائر النقـ ... ـع شموس مضيئة في ليـــال[2]

أما عن تركيز الشعراء على وصف سرعة الرماح، فيصف الشاعر ذاته سرعة انطلاق الرمح بطائرٍ أخذ الظمأ منه كل مأخذ، فانقض على الماء بكل سرعته، ثم شبه صورة قتلى المعركة الذين أصابتهم الرماح كأنهم سكارى في نخاع محمر من الديباج، فيقول:

وكأن الرماح طير ترى الـــ ... ـورد ظماءً في منهل الأوداج
وكأن الصرعى تشاوي مدام ... في نخاعٍ حمرٍ من الديبـــاج [3]

وتبدو الصورة في البيت الأول للشاعر منطقية، حيث توافقت صفات المشبه مع المشبه به، إلا أن الصورة في البيت الثاني سطحيةغير عميقة، وتعكس تأثر الشاعر الأندلسي في هذا العصر بمظاهر الترف والبذخ.

---

(١) الكتاني، المرجع السابق، ص١٩٣.
(٢) نفسه، ص ٢٠٦.
(٣) نفسه، ص ٢٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ المتمعن في أبيات الشعراء الأندلسيين في عصر الخلافة أنهم قد منحوا السيوف ألواناً ناصعة، والرماح حركة لدنة، والأقواس أنغاماً حزينةً، لتترك أثرها في السمع والبصر، وهكذا، نرى أن السلاح ترك بصماته على وجه القصيدة الحربية في الأندلس، حيث قدم الأندلسيون معاني كثيرةً وصفاتٍ أكثر، وأسبغوها على الآلات الحربية التي كان لها أثر واضح لا يمكن إنكاره في كتابة التاريخ الأندلسي.

رابعاً: الطبيعة في الخمريات:

الطبيعة مهد السعادة والسرور في الأندلس، وفي أحضانها ينعم الإنسان بالراحة والطمأنينة، وتحلو الجلسات في رحابها إذا انتشى الإنسان برشف كؤوس الخمرة، فالطبيعة صديقة الفنان الوفية يستلقي في حضنها فتمنح الجمال لحسه والهدوء لنفسه، يناجيها فتدغدغ مشاعره ويهرب إليها ناشداً بقربها السعادة والراحة والطمأنينة، وقد ساعد ذلك كله على تفشي حياة اللهو والمجون فما أجملها من مسرح للحياة اللاهية، إذ يحلو بين ربوعها تعاطي الخمرة التي تلذ وتكتسب طعماً جديداً عندما تحتسى بين أحضانها.

حفلت دواوين الشعراء الأندلسيين بقصائد كثيرة تبين أنهم احتسوا الخمرة فقد عمدوا إلى تصويرها تصويراً حسياً، وحرصوا على وصف لونها، ورائحتها، وبريقها، وطعمها، فطيبها كالمسك، وصفاؤها كعين الديك، وشعاعها كقرن الشمس، ونشوتها تشعر الجسم بالزهو ثم بالفتور، إلى غير ذلك من أوصاف حسية طغت على وصف الخمرة، وهذا كله لم يكن وليد الأدب الأندلسي قد عني شعراء العصر الجاهلي بذلك كله، ومع توالي العصور كانت الخمرة توصف دائماً بتلك الصفات ومهما حاول الشعراء أن ينفحوا في وصفهم لها روحاً جديدة إلا أن أوصافهم لها تأتي متشابهة تقريباً، فخمرة الأعشى لا تختلف كثيراً في طعمها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولونها ورائحتها عن خمرة الأخطل المعتقة المسكية الرائحة الجيدة المذاق، فهي خمرة شبيهة بخمرة أبي نواس على الرغم من بعد الفترة الزمنية بينهما.

أما في الأندلس فقد اختلفت حياة العرب، فالبيئة الطبيعية والاجتماعية والسياسية مختلفة عن البيئات الأخرى التي عاشوها في بلدان أخرى، ومن الطبيعي أن تفتح لهم هذه الحياة أفاقاً جديدة ليأتوا بأوصاف مبتكرة للخمرة.

ونلاحظ حرص الشعراء الأندلسيين على تعاطي الخمرة في رحاب رياض تسر القلب وتدهش العين بجمالها وروعتها، حيث يتخيلون أن كل ما في الروضة يهلّل فرحاً للجمال الذي خص الله به أرضهم فها هو إسماعيل بن بدر يمزج بين شربه هو ورفاقه الخمرة وبين مظاهر الطبيعة كالقمر والنجوم والصباح وصياح الديك حيث يقول:

تعاطينا على الريحان راحا ... وواصلنا المساء بها الصباحا
هببنا أن زقا ديك صدوح ... وصفق بالجناح لنا جناحا
كأن منادياً نادى علينا ... ألا حيوا على الكاس الفلاحا
فبادرت الأكف سنا نجوم ... أنار بها الظلام لنا ولاحا [1]

كما عبر الشعراء عن مدى تأثير الخمر في أجسامهم بعد شربها بصور انتزعوها من الطبيعة فنرى جعفر بن عثمان المصحفي يشبه أثر سريانها في أوصاله بالأثر الذي يحدثه اللدغ في الجسم حيث يقول :

صفراء تطرق في الزجاج فإن سرت
في الجسم هبت هب صلٍّ[2] لادغ [3]

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص٩٣.

(٢) الصل: الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها وهي الحية التي لا تنفع فيها الرقية، انظر لسان العرب مادة صلل.

(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحظي لـون الخمـرة باهتمـام الشـعراء، فحـاولوا التعبـير عنـه بـأحد عنـاصر الطبيعة المشتركة معه بنفس اللون، وربّ ليلة قضاها ابن هانيء وهـو يحتسـي خمـرة معتقة لذيذة، تشبه زهر الجلنار في لونها الجميل معبرا عن ذلك بقوله:

وليلٍ بت أسقاها سلافـــــاً معتقةً كلون الجلنـــار

ونجم الليل يركض في الدياجي كأن الصبح يطلبه بثار[١]

أما ابن هذيل فيرى خمرته صفـراء تشـبه الخـيري في الاصفـرار ونجـد هـذا في مقطوعة له كتبها لما بعث إلى بعض إخوانه مصطاراً حلواً حيث يقول :

تتبدى من حبها وهي صفرا كبدو الخيري في الإصفرار [٢]

وله في المقطوعة ذاتها صورة منتزعة من الطبيعة تبين تـدرج تأثـير الخمـرة في شاربها وكأن وقعها في عقولهم وقع الطل المتكون على الورد في وقت السحر حيث يقول:

واستهلت رفقاً كما يقع الطـــ ل على الورد في دجى الأشجار[٣]

ويصف الشاعر نفسه لون الخمرة بالصفـاء والشـفافية، فيشـبهها بنجـم نقـي الصفاء فهي شفافة كلون البلور حيث عبّر عن ذلك بقوله:

لعبت بأيام الزمان وطاولـــــت مدد الليالي فهي جرم صـــاف

فإذا استقرت في الكؤوس حسبتها منها لرقة جرمها المتكافـــــي

عصرت كأن من اللآلئ ذوبـــت فشرابها من كل ضر شـــاف

قد أوهمت حكم الحدود فظنهـا ماء، وقد حكمت بحكم خاف[٤]

و لم يفت شعراء الأندلس في عصر الخلافة أن يصفوا الكـؤوس والقـداح الـتي كانوا يكرعـون الخمـرة بهـا، والـتي اعتبرهـا الأندلسـيون بمثابـة الرحـم للجنين، أو

---

(١) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص ٣٣٤.

(٢) الكتاني، التشبيهات، ص٩٥.

(٣) الكتاني، المرجع السابق، ص٩٥.

(٤) نفسه ، ص٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كالثياب للإنسان، وتحدثوا عن تلك الأواني بالتفصيل لعلاقتها الوثيقة بالخمرة، فوصفت مقترنة بها، وغير مفصولة عنها، ففي العصر الأندلسي باتت أواني الخمرة معروفة كالدنان والأباريق والكؤوس والطاسات، لذلك لم يكن حديث الشعراء عنها لرصدها وذكر أسمائها بل لصلتها المباشرة بالخمرة، فالآنية لا قيمة لها في نظرهم وهي فارغة، وإنما تستمد قيمتها مما تحويه من خمر.

ويشبه الرمادي الخمر إذا ما أخرجت من جرارها بالبدر الكامل الذي يسطع فيملأ الكون ضياء وبهاء فيقول:

لنا حنتُم فيها المدام كأنها بدور لدى داجٍ من الليل أسفع
بدور متى تطلع كوامل محّقت بزهر دراريٍ على الراح طلع(١)

وهذا أحمد بن عبدربه يشبه الأباريق والكؤوس الماثلة أمامه كأنها أنجم يجري بها فلك حيث يقول:

ترى الأباريق والأكواس ماثلة وكل طاسٍ من الإبريز ممتثلُ
كأنها أنجمٌ يجري بها فلك للراح لا أسد فيها ولا حمل (٢)

وللشاعر نفسه بيت آخر يشبه فيه الكؤوس المتمثلة بالخمرة شموساً ألبست خلع البدور إذ يقول:

كأن كؤوسها يحملن منها شموساً أُلبست خلع البدور(٣)

ولصاعد الأندلسي صورة فنية، أرق وأعذب للخمرة التي تصل فمثلما يجري دمع المنكوبة من عينها مراراً لفقد الحبيب كذلك تسيل الخمرة من فم الإبريق صافية شفافة ثم تخيل إليه صورة أخرى، فيرى أن الإبريق الذي تسيل الخمرة من فمه كأنه طير قد وضع قطعة ياقوت في منقاره حيث عبر عن هذه الصورة بقوله :

(١) شعر الرمادي، ص٨٤، ٨٥.
(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص١٥٤.
(٣) المرجع السابق، ص٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقهوة في فم الإبريق صافية   كدمع مفجوعة بالإلف معبار
كأن ابريقنا والراح في فمه   طير تناول ياقوتاً بمنقـــــار(١)

من ذلك كله نستنتج أن الخمرة شربت ووصفت في رحاب الطبيعة، ولذلك كان وصف الطبيعة غالباً مقترناً بوصف الخمرة ومجالسها، فالطبيعة بجمالها وسحرها وعطر ورائحتها، ونسيمها العليل، وظلال أشجارها، تدعو إلى الخمرة، والخمـرة لا تلذ لشاربيها إلا في أحضان الطبيعة.

(١) الذخيرة، ج١، ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأخير

الخصائص الفنية لشعر الطبيعة في عصر الخلافة

أ- الخصائص اللغوية

ب- الصورة الفنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: الخصائص اللغوية :

الكلمة هي وحدة البناء الفني للشعر، ولأنها عامل من أقوى العوامل التي تتوقف عليها القيمة الجمالية لأي عمل أدبي، فقد حرص الشعراء منذ القدم على أن تكون أعذب لفظاً وأصح معنى وأكثر اتساقا مع الجملة التي ترد فيها (فالأداء الفني الجميل أساسه الدقة في اختيار الكلمة، ووضعها في بيئتها، وامتزاجها مع معناها، إذ ليس هو في مجموعه إلا طائفة من الكلمات المؤتلفة المعبرة)[١] ، والشيء الجميل اللافت للنظر هو الكلمة الواحدة في سياقين مختلفين، أحدهما يوفر لها بيئة صالحة، ومناخا مناسباً، لتبدو أكثر ألقاً وإيحاءً وأجمل إيقاعاً، بل أقدر تعبيرا عن دلالتيها اللفظية والمعنوية، في حين لا يمنحها السياق الآخر من ذلك كله إلا الدلالة المعنوية الذهنية.

من هنا جاء حرص الشاعر المبدع على أن يكون للكلمة الواحدة من المزية والفضل في موقع من مواقع الكلام ما ليس للكلمة نفسها في موقع آخر، وبهذا يستطيع الشاعر الموهوب (أن يؤلف من الكلمات العادية قطعاً سحريةً يهبها من إبداعه ويضفي عليها من فنه وروحه ما يمدها بزخمٍ حيويٍّ يؤهلها لأن تلامس مشاعره وتعانق عواطفه، وتمس شغاف قلبه، وتدور حول مداره)[٢]

إن الاهتمام بانتقاء الألفاظ يعني بلا شك الاهتمام بالصوت والموسيقى للفظة الواحدة مستقلة بنفسها، أو مع غيرها من الألفاظ المجاورة لها، مما ينعكس على التركيب والسلاسة والجمال والرونق، وبما تورف من ظلال إيحاءاتها التي تضفي على النص أبعاداً تغنيه.

---

(١) د. عبدالحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط٢، طبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، سنة ١٩٧٥، ص٢١٤.

(٢) د. عبده بدوي، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، وزارة الثقافة والإعلام، مصر، ١٩٧٥، ص٢٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانتقاء الألفاظ موضوع حظي باهتمام النقاد العرب منذ أمد طويل "والأدب الذي يكتب له البقاء هو الأدب الذي حرص أصحابه على التوفيق بين اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون والعناية بهما على المستوى نفسه، بحيث يتعذر الفصل بينهما لشدة تلاحمهما وانسجامهما لتحقيق القيمة الجمالية التي تحقق الإمتاع الفني الذي هو غاية الأدب ومبتغاه"(١).

إن الأدب الجيد لا تصنعه الكلمة وحدها، فالشعر مثلاً لا يستقيم إلا بتضافر الكلمة مع عدة عناصر، كالموسيقى والصور والمضمون، لتكون قادرة على إعطاء الأسلوب للقصيدة الشعرية باتساقها مع مجاورتها من المفردات وتأليف حروفها وموسيقاها الداخلية والخارجية، ولقد حظي هذا الجانب من انتقاء الألفاظ وتخيّر الكلمات والعناية بالأسلوب الشعري باهتمام النقاد، حيث وضح ابن طباطبا ذلك في قوله في وجوب كون الشعر : "كالسبيكة المفرغة، والوشي المنمنم، والعقد المنظم، واللباس اللائق، فتسابق ألفاظه معانيه"(٢) ،ونجد مثل هذه العناية بالألفاظ والاهتمام بانتقاء المفردات عند أبي هلال العسكري فيقول : "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلاّ أن يكون صواباً".(٣)

لقد أدرك الشاعر الأندلسي في عصر الخلافة أن عليه أن يختار الألفاظ والكلمات بعناية فائقة، فاستطاع أن يمنحها ظلالاً موحية لتعبر عن سابق انفعالاته

---

(١) د. عبد الحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص٢٢٤.

(٢) ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق د. طه الحاجري، و د. محمد زغلول سلاّم، القاهرة، سنة ١٩٥٦م، ص ٤.

(٣) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٢م، ٥٧-٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعميق إحساسه بتجربته الشعرية، كما حرص حرصاً كبيراً على توفير الموسيقى الشعرية والنغم الصوتي والإيقاع الموسيقي لكلماته ومفرداته، لينقل إلينا عواطفه.

لقد اهتم الشعراء الأندلسيون بالشكل بدرجة كبيرة، إلا أن هذا الاهتمام لم يكن أبداً مبالغاً فيه إلى حد كبير يدفع غرسيا غومس إلى الاعتقاد بأن الشعر الأندلسي ليس سوى كلمات منمقة وأصوات موسيقية، فحكم على بعض الشعراء بأنهم: "عاشوا أعمارهم مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدخلوا على الشعر من التغيير إلا أشياء تمس المعاني، ... فحاولوا أن يعطوا هذه المعاني صوراً جديدة عن طريق تقطيرها في أنابيق بلاغية وأوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية (الأربسكية) التي تشبه أن تكون (قصوراً حمراء) لفظية" (١).

إن المتمعن في شعر الطبيعة في عصر الخلافة الأموية في الأندلس يدرك أن الشعر الأندلسي في هذه الفترة يفيض رقة وعذوبة تخلو من التكلف والصنعة والزخرفة الشكلية، حيث وجدت مقطوعات شعرية فيها صور متآلفة، وألفاظ تتدفق بهدوء وانسياب دون تصنع أو تكلف، وهذا لا ينفي أبداً وجود مقطوعات شعرية غلبت فيها الصنعة والتكلف على العفوية والسهولة، إلا أن هذا لا يعطي غومس الحق في تعميم هذه الصفة على كل أشعار الأندلسيين.

وشعر وصف الطبيعة بالذات هو الأقرب إلى الرقة والعذوبة، فالشاعر يصف الطبيعة من حوله بحسه المرهف بدقائق الأشياء، وكيف يتكلف من استرقت الطبيعة لبه وفتحت قريحته، ليعبر عن إحساسه بجمالها بألفاظ سهلة قريبة إلى نفوس المتلقين، بل قريبة إلى قلب الشاعر القارض لها؟ فما أرق ألفاظ ابن هذيل وأعذبها لما وصف لنا الريح كأنها النشوان المترنح من كثرة الشراب فيقول:

ودنتْ في هبوبها مشية النشـ ـوان حيران بالمدام الثّمـول

---

(١) غارسيا غومس، الشعر الأندلسي، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لصقتْ بالثرى كما يخضع العا شق ذلاً إلى الحبيب المطـول

ولقد خلت أن بينهما عشـ ـقاً فصارا للضـّم والتقبيل

واختفت عن فواطن الخلق حتى شبهوها ضآلةً بنحـول (١)

في هذه الأبيات رقة الطبيعة وعذوبتها، وهذه أبيات أخرى تدل على سهولة الألفاظ وسلاسة التراكيب للشاعر يوسف بن هارون الرمادي:

نوءٌ وغيثٌ مسبـل وقهوةٌ تسلسـلُ

تدور بين فتيـةٍ بخلقهـم تمثـل

والأفق من سحابه طلٌ ضعيف ينزل

كأنه من فضـةٍ بـرادة تغربـل (٢)

وقد أرجع الدكتور محمد خفاجي هـذه السهولة في الألفاظ، والسلاسة في التراكيب إلى "أن الشعراء لم يحملوا الألفاظ مالا تطيق من المعاني المزدحمة، ولم يبالغوا في الأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وغيرها، وما كان يقع لهم منه في عباراتهم جميل مقبول، لأنهم كانوا يأخذون من الأنواع البديعية ما تجود به القريحة من غير تحمل ولا إجهاد خاطر" (٣) .

وهم حريصون على وقع كلماتهم في نفوس المتلقين، فلم تكن غاياتهم اقتناص المحسنات البديعية وإثقال أشعارهم بالزينة اللفظية، إنما كانوا يخرجون إلى الطبيعة، فتنساب من بين أفواههم ألفاظ الشعر، رقيقة كرقة الطبيعة التي تكتنفهم، ونحن بالرغم من تبنينا لموضوع الرسالة، فإن حكمنا على شعر الطبيعة في تلك الفترة لا يتأثر أبداً باندفاعنا نحوها، فقد أثقل بعض الشعراء الأندلسيين في هذه الفترة شعرهم بالمحسنات البديعية، ومنهم يوسف بن هارون الرمادي الذي يقول:

وكأسٍ كريق الإلف شعشعتها به وعيشي من هذا الشراب المشَعْشَعِ

(١) الكتاني، التشبيهات، ص٢٨.

(٢) شعر الرمادي، ص١٠١، انظر النفح، ج٤، ص٧٤.

(٣) د. محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في الأندلس، المطبعة المنيرية، بالأزهر، ج٤، ص٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على روضةٍ قامت لنا بدرانـــكٍ وقام لنا فيها الذبـــاب بمسمـــعِ
إذا ما شربنا كأسنا صُبّ فضلهـــا على روضنا للمسمـــع المتخلـعِ
رياض يضاحـكن الغزالة بعدمـــا بكت فوقها عين السمـــاء بأربـعِ
كأن سرور الأرض حزن سحابها إذا ما بكت لاحت لنا في تصنـعِ[1]

نلاحظ في الأبيات السابقة الجناس الناقص بين كلمتي (شعشعتها والمشعشع) وكلمتي (قامت وقام) والطباق بين كلمتي (يضاحكن وبكت) وكلمتي (سرور وحزن).

وهذا مثال آخر على استخدام الشعراء الأندلسيين المحسنات البديعية وهو مقطوعة للشاعر ابن دراج القسطلي يقول فيها:

كتائب عزّ النصر في جنباتها فكل عزيز يمتْـــهُ ذليـــلُ
يسيِّرها في البر والبحر قائـد يسيرٌ عليه الخطبُ وهو جليلُ
به أمن الإسلام شرقاً ومغرباً وغالت غوايات الضلالة غول [2]

ويبدو الطباق واضحا بين كلمتي (عزيز وذليل) وكلمتي (البر والبحر) وكلمتي (شرق ومغرب) وكلمتي (أمن والضلالة)، وهناك جناس ناقص بين كلمتي (غالت وغول) وبذلك نلاحظ أن كل بيت في المقطوعة لم يخل من المحسنات البديعية.

وقد تعددت استخدامات الشعراء الأندلسيين للمحسنات إلا أن استخدامهم لها لم يجعل أشعارهم متكلفة تعج بالصنعة اللفظية، فهناك شعراء استطاعوا أن يثروا نصوصهم الشعرية بالتشبيهات والاستعارات والمحسنات البديعية التي تخدم النص فتبرز المعاني وتجسدها لنا في صورة حية مستجدة، تزيد قدرها نبلاً، وأسلوبا التشبيه والاستعارة يدلان على خصب الخيال وسموه وسعته وعمقه، ولدينا شواهد عديدة

---

(١) ديوان الرمادي، ص٨٥.

(٢) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أشعار هذه الفترة نستدل بها على ذلك، ومنها أبيات للشاعر أحمد بن فرج الجياني يشبه فيها النرجس بعين تطرف من النعاس، وكأنه عاشق مصفر من الحب واللوعة، ويرتدي ثياب الحزن البيضاء، إذ يقول:

ونرجسٍ تظرف أجفانه ... كمقلة قد دبّ فيها الوسنْ

كأنه من صفرة عاشق ... يلبس للبين ثيابُ الحزنْ (١)

وهذه أبيات أخرى للشاعر يحيى بن هذيل في وصف فرسٍ له يتصبب عرقاً من كثرة العَدو، فكأن عرقه حبات عقدٍ تلتمع على صدر حسناء، أما غرته البيضاء التي تختفي وتظهر بينما يعدو، قمر يتعرض للكسوف فيغيبه الظلام ثم يعود ضوؤه من جديد، وقد عبر عن هذه التشبيهات والصور بقوله :

ومحجل حَرٍ كأن أديمه ... سبجٌ يكادُ يسيلُ مما يلصفُ

يلقاك أوله بأصبح غرةٍ ... من تحت ناصيةٍ عليها تعكفُ

فإذا هفتْ من فوقها تحكي لنا ... قمراً يغيب بالظلام ويكسفُ

ملآن من ريعانه فكأنه ... رشأ لأخفى نَبْأةٍ يتشَوَّفُ(٢)

ويجدر بنا أن نوضح أن ألفاظ الشعراء الأندلسيين كانت ترق في وصفهم للورود والأزهار والرياحين، وتعذب في ذكرهم للرياض والحدائق والبساتين، بينما كانت جزلة قوية في وصفهم للصحراء والإبل والخيل، إذ أغربوا في ذلك واستخدموا ألفاظاً فيها كثير من الفخامة والقوة، وتلك الفخامة والقوة مستمدتان من قوة الموضوع نفسه، فالبون شاسع بين الزهرة في جمالها ورقتها، وتضوُّع أريجها وفوح نشرها، وبين الناقة أو الفرس في قوتها وصلابتها، وفي ضخامة أعضائها وكبر أجزائها، يقول ابن هذيل في وصف فرسه:

وقصير الظهر مرفوع الخطى ... تامك الحارك نهدٍ معتدل

---

(١) الحميري، البديع في وصف الربيع، ص ٩٧.

(٢) الكتاني، المرجع السابق، ص ١٩١، ١٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهـو محـزومٌ على حيزومه ببياضٍ في أديمٍ قـد صقـلْ
فترى الليـل على مقدمـه شطره فيه وشطراً في الكفلْ
فكأن الصبح فاجـاه فلـم يستطع من كـده أن يتصلْ
أو كأن السيف في موسطه بين قينيـن لإصلاح الفلـلْ
أو كأن البدر فيه أطبقـتْ فوقه مظلمـة ثـم أطـلْ (١)

وتبدو الأبيات السابقة ذات ألفاظ جزلة قوية فهي تعبر عن قوة الخيل وصلابتها، فقوة العبارة من قوتها ومتانة التعبير من متانتها. ويأتي الاهتمام بهذه الخيول بلا شك لأنها وسيلة الأندلسيين في خوض الحروب والمعارك، فقد وصفوها وأبدعوا في وصفها بصور تكاد لا تخلو من إبراز كل نواحي الجمال في جسمها، والمتأمل في الأبيات القادمة يرى قوة التعبير وجزالة الألفاظ في وصف يوسف بن هارون الرمادي للفرس الأصيلة التي تحرز النصر في ميدان القتال، وتكر وتفر دون كلل أو ملل، فيقول :

وأبلق من شرط الكميّ لزينةٍ وإحراز ميدانٍ ويوم قتـال
له لبب من شهبةٍ بين دهمـةٍ كعام صدودٍ بعد يوم وصال
تدرّع بدرَ التّمّ نوراً وظلمـةً ولُبّب في حيزومِهِ بهـلالِ (٢)

ومن الجدير بالذكر أن اهتمام الأندلسيين بوصف زينة الخيل في هذه الفترة يضاهي اهتمامهم بقوتها وانتصاراتها وشجاعتها، لذا، فإن المتمعن في بعض المقطوعات الشعرية في وصف الفرس يجد تركيزاً كبيراً على شكله ولونه فهو أبلق ومجزع وورد ويحموم وأشعل وردي وأصفر مذهب وأدهم وضاح وأشهب وذو كمتة ومحجل غرّ، وبين هذه الأوصاف العديدة تلونت الألفاظ وتفاوتت بين رقة

(١) الكتاني، المرجع نفسه، ص ١٩٢،١٩٣.
(٢) نفسه، ص١٩٣، ١٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوة في المقطوعة الواحدة، وبين قاسية ولينة طيعة في البيت الواحد أحياناً، وهذا ما نراه واضحاً كل الوضوح في قول الشاعر محمد بن هانيء الأندلسي:

وما خلت أن الروض يختال ماشياً ... ولا أن أري في أظهر الخيل عبقرا[١]
غــداة غــدت من أبلــقٍ ومجزعٍ ... وورد ويحموم وأصدى وأشقــرا
ومن أدرع قد قُنّع الليل حالكاً ... على أنه قد سربل الصبح مسفرا
واشعل ورديٍ وأصفر مذهــبٍ ... وأدهم وضاحٍ وأشهب أقمــرا
وذي كُمتة قد نازع الخمر لونها ... فما تدعيه الخمر إلا تنمــرا
محجلة غراً وزهــراً نواصعــاً ... كأن قُباطياً عليهــا منشــرا

وتتضح قوة الألفـاظ وقسـوتها في وصـف الرحـلات على ظهـور النـوق في الصحراء، ولا مجال هنا للألفاظ إلا أن تكون كذلك، فالرحلة قاسية، وحتـى يبلـغ المتلقي مدى قسوتها وصعوبتها، فلا بد أن تأتي الألفاظ مجسدة ومعبرة عن ذلك أيما تعبير، وهذا ما فعله الشاعر ابن هارون الرمـادي في وصـف رحلـة لـه في الصحـراء فيقول:

وركـبٍ إذا قطعــوا نفنفـاً ... رمى بهم البعــد في نفنـف
كأن الفيــافي في طولهــا ... ليالٍ على عاشـق قـد جفي
قطعنا على مضمراتٍ تجود ... كلالاً[٢] بأدمعهـا الوكــف[٣]
وتحيّ حرف لفرط النحول ... تنفي النحول على المدنــف[٤]
كأني إذا ما شَدَدْتُ الحزام ... أشــدُّ نطاقـاً على أهيـف[٥]

---

(١) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص٣٥٤.

(٢) كلال: تعب وإعياء، انظر لسان العرب، مادة كلّ

(٣) الوكف: وكف الدمع أي تقاطر، انظر المصدر السابق، مادة وكف.

(٤) المدنف: المريض الذي لزمه المرض، انظر المصدر السابق، مادة دنف.

(٥) شعر الرمادي، ص٩٠؛ انظر الكتاني، التشبيهات، ص١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذه الأبيات تكثر الألفاظ الغريبة التي نحتاج معهـا إلى استخدام المعجـم، ويلفت نظرنا حسن السبك ومتانة، خاصة إذا وصفوا السفر والترحال، وهذه أبياتٌ أخرى للشاعر الرمادي يقول فيها:

ويهماء مثل البحر خرقـــاء[1] لا تـــرى   سبيلاً بها يهدي فبالظـن يهتدى
ترى الركب فيها من سرىً فـوق عيسهم   لغير إله راكعيـن وسجـــدا[2]

إن المتأمل في أبيات المقطوعتين السابقتين يـرى ألفاظـاً تقترب من الخشـونة بعض الشيء مثل يهماء، خرقاء، كلال، وكـف، ...إلخ، وهـذا مرتبـط مـع قسـاوة الموضوع وخشونته لا محالة.

كما نلاحظ في شعر الأندلسيين استخداماً واضحاً للألفـاظ ذات المدلـولات الحسية البصرية، مثل الورد والنور والزهر والنجم، وهذا يبدو جلياً في قـول الشـاعر أبي عامر بن مسلمة في روضة مليئة بالورود الجميلة:

وروضةٍ مشرقـــةٍ   بكل نـــورٍ مجتنـــي
فيها بهار باهـــر   ونرجس يشكو الضنـــى
وياسمين أرضـــه   ونـــوره تلونـــا
كالليل مخضراً ولـــكن بالنجـــوم زينـــا
فاجتن ورداً وارداً   وسوسنـــاً ملسنـــا
وحولـــه نيلوفـــر   فتنة رانٍ إنْ رنـــا[3]

فالشاعر في المقطوعة السابقة يرسم بالكلمـات مـا التقطتـه عينـه مـن منـاظر جميلة، استرقت بصره في روضة تلوّنت فيها الأزهار والورود.

وهذه مقطوعة للشاعر يحيى بن هذيل يصور فيها الزهرة قبل تفتحها، فيمزج بين ما وقع عليه بصره من جمـال هـذه الزهـرة ومـا اختزنتـه ذاكرتـه من منـاظر في

---

(١) خرقاء: من الخرق، أي أن يكون في أذنها ثقب مستدير، انظر لسان العرب، مادة خرق.

(٢) شعر الرمادي، ص٦٤.

(٣) الحميري، البديع في وصف الربيع، ص٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبيعة تشبه إلى حدٍ كبير المنظر الذي يتمتع بمشاهدته، فخرج لنا بصورة جميلة، إذ شبه فيها الزهرة قبل تفتحها بسبيكة متقنة السبك كأنها الدر المكنون، حيث يقول في ذلك:

فأول ما يبدو فخلق سبيكةٍ ... مخلصةٍ بيضاء أتقنها السبك

بنتْ نفسها فوق الزمرد واقفاً ... فلاحت كمثل الدر ضمّنهُ السلك

جنى سوسنٍ لولا سنا بشراته ... لما زين الأفواه ثغر ولا ضحك[1]

كما استخدم شعراء هذه الفترة ألفاظاً ذات مدلولات حسية شمية، مثل العطر الفواح، وهبات النسيم المحملة الأزهار الجميلة، ويبدو ذلك جلياًفي مقطوعات عديدة لشعراء عصر الخلافة، فهذه مقطوعة قصيرة للشاعر أحمد بن فرج الجياني قالها في إهداء باقة من السوسن النضر الغض، إذ يقول:

بعثت بسوسنٍ نضرٍ ... ينم كحونة العطْر

كأكؤس فضةٍ فيها ... بقايا شهلة الخمر [2]

وهذه مقطوعة أخرى فيها ألفاظ ذات مدلولات حسية شمية، وهي للشاعر جفعر بن عثمان المصحفي الذي يصف سوسنة رائعة الجمال، طيبة الرائحة، قائلاً:

يا ربّ سوسنةٍ قد بت ألثمُها ... وما لها غير طعم المسك من ريق

مصفرة الوسط مبيض جوانبها ... كأنها عاشق في حجر معشوق [3]

وأخرى ذات مدلولات حسية سمعية مثل نوح الحمام أو تغريد الطير أو صهيل الخيل أو خرير الماء، كقول الرمادي في صوت حمامة:

تلثم الأوتار منه بناناً ... يعدل الأفواه إلا الرضابا

تسبق الأبصار من وحي صوتٍ ... تحسب الترجيع منه انتهابا

---

(١) الحميري، المصدر السابق، ص١٣١، ١٣٢.

(٢) نفسه، ص١٣٠.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص ٢٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثلما تطرف الجفون اختلاجاً أو كما شقت بروق سحابا[١]

وخلاصة القول أن للطبيعة ألفاظها الخاصة بها التي تميزت بالسهولة والوضوح والعذوبة والرقة، حيث تتضح هذه المميزات إذا وصف الأندلسيون الأزهار والورود والبساتين، وتميل الألفاظ إلى الغرابة في الوصف والبناء، لكن دون إفراط أو مبالغة توصلها إلى حد الخشونة والوعورة والوحشية، فهم حريصون كل الحرص على الموسيقى الشعرية فهي (عصب حيوي في بناء الأسلوب وتلاحم أجزائه)[٢]، إذ الصعوبة بمكان أن تفصل بين الكلمة وما تحمله وما تشتمل عليه من قيمة صوتية، لذا حرص الشعراء الأندلسيون في عصر الخلافة -مثلهم في ذلك مثل كل الشعراء الأندلسيين- على تحقيق الموسيقى الشعرية في أشعارهم بتقسيم عباراتهم وألفاظهم إلى جملٍ متموجة، تكاد كل موجة منها تعادل زميلتها، وترتبط بها أوثق ارتباط.

ثانيا: الصورة الفنية :

إذا درسنا الصور الفنية لمجموعة (من الشعراء في عصر محدد، يمكننا بسهولة تبين ذوق العصر وطبيعته وخصوصيته، فالشعر رؤية للحياة وموقف من أشيائها، والصورة الشعرية الفنية وسيلة من وسائل التعبير عن التجربة الشعرية، ولأجل تحقيق غايتها تلك تتطلب تضافر وتآلف الصور الجزئية في القصيدة فيما بينها لتكوين الصورة الكلية التي هي التجربة الشعرية).[٣]

وسوف ندرس مجموعة من الصور الشعرية حتى يكون باستطاعتنا تبين الذوق العام لعصر الخلافة الأموية في الأندلس، وقد وجدت أن أُقسم دراستي لهذه

---

(١) شعر الرمادي، ص٥٢.

(٢) د. محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص٣٦٤.

(٣) د. محمد مجيد السعيد، المرجع السابق، ص٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجزئية إلى عدة عناصر تميزت بها الصورة الشعرية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس وهي :

١- التصوير الحسي.

٢- النظرة التجزيئية.

٣- الاندماج العاطفي.

٤- الإشارات الدينية.

٥- التأثر بالمشارقة.

٦- الابتكار والتجديد.

أولاً : التصوير الحسي :

لقد شغف الأندلسيون بطبيعة بلادهم إلا أن تحضرهم وسكناهم المدن وانشغالهم بالحياة الاجتماعية المرفهة المنعّمة أمور حدّت من معاشرتهم للطبيعة الأم وتأملهم لها، وهذا بسبب اهتمامهم البالغ بالناحية المادية مما أدى إلى شيوع التصنع في شؤون حياتهم، وبدا ذلك واضحاً كل الوضوح في مظاهر حياتهم، فطغت عليها ملامح الزخرفة والبعد عن البساطة، وكان طبيعيا جداً أن يتأثر الشعر والنثر بهذه النزعة المادية فدواعي الحياة كانت تتطلب من الشعراء بالذات أن يستجيبوا لمؤثرات الظروف الاجتماعية المحيطة بهم.

لقد صور الأندلسيون الطبيعة لمن حولهم واقتنصوا تشبيهاتهم منها بكل براعة وإتقان وسعوا إلى أن تكون صورهم منطقية ودقيقة وجميلة في نفس الوقت وحاولوا جهدهم جعلها موازية ومطابقة تضمن اعتباراتهم التقابل والتناظر وهذا ما سيظهر لنا أثناء عرضنا لنماذج من الشعر والصور الشعرية في هذا الفصل.

كما ركز الشعراء اهتمامهم على تصوير الطبيعة بطريقة حسية، وهي نمط تسجيلي من التصوير البياني ويعتمد على استيفاء الأطراف المحددة والعناصر المتقابلة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول الشاعر سعيد بن عمرون الذي يتخيل البدر المنطوي الطرفين زورق انطوى طرفاه:

والبدرُ في جو السماء قد انطوى طرفاه حتى عاد مثل الزورق
فتراه من تحت المحاق كأنما غرق الجميع وبعضه لم يغرق(١)

إن هذه الصورة تنم عن تشابه سطحي بعض الشيء بين الطرفين المصورين بطريقة حسية، فالمشبه هو البدر والمشبه به هو الزورق، وفي عرف البلاغيين على المشبه به أن يكون أقوى وأبهى من المشبه الذي يراد تصويره ولكن البدر في هذه الصورة أبهى من الزورق.

إن التصوير الحسي -اذا كان موفقاً- يبهر الذهن ويعجب الفكر، إذا ما انطوى على الدقة واتسم بالبراعة، لكنه يعجز عن إثارة النفس وهز شعور المتلقي. وهذه أبيات للشاعر أحمد بن عبد ربه يشبه فيها الصباح كغرة فرس، فيقول:

حتى إذا ما الليل قو وض راحلاً عند الغلس
وبدا الصباح كغرةٍ تبدو على وجه الفرس(٢)

لقد رسم لنا الشاعر بهذا التشبيه صورة منطقية وقريبة إلى الذهن فهو لم يباعد بين صورة المشبه وصورة المشبه به، لكن عناصر التشبيه في هذه الصورة ليست سوى عناصر طافية على السطح، غير جانحة إلى العمق، وبالرغم من ذلك، فالتصوير الحسي في هذه الفترة لم يكن كله بهذه السطحية مما يدفع الكاتب غارسيا غومس إلى القول بأن الشاعر الأندلسي ينتقل بذهنه انتقالات سريعة يلم فيها بالمتباعدات، فتجده يشبه شيئاً صغيراً بشيء صغير، كتشبيه مجاديف القارب بأهداب

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٥٤، وانظر الكتاني، ص١٩.

(٢) ديوان محمد بن عبد ربه، حققه وطبعه محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٧، ص١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العين،[١] وقد تكون هذه المقولة صحيحة نسبياً، إذا إننا قد نجد تصويراً غير منطقي في بعض الصور الفنية، وهذا شيء طبيعي فالشعراء ليسوا كلهم بنفس المستوى من قرض الشعر، ولكن هذه الشواهد ربما لا تسوغ لنا أبداً أن نحكم على الشعر في عصر الخلافة بهذه الأحكام الجائرة، فلدينا من الشواهد أيضا ما يدل على أن هناك صوراً حسية. تتسم بالبراعة والدقة، ومنها أبيات للشاعر يوسف بن هارون الرمادي يشبه فيها المطر المتساقط من السحاب دموعاً تعيد الحياة للأرض فتحيلها رياضاً موشاة بأجمل الورود والأزهار، وتستوقفنا الصورة الجميلة التي يرصدها الشاعر بمعادلة بسيطة لكنها بالغة التعبير حيث عادل فيها بين سرور الأرض باخضرارها وبين حزن السحاب بتساقط المطر فكأنه دموع أحالت اليابس أخضر، وقد جاءت الصورة حسية، ومعتمدة على الربط النظري بين عناصر الطبيعة حيث قال الشاعر في مقطوعته :

كأن السحاب الجود أعرس بالثرى ... فلاح شوار الأرض في كل موضع

رياض يضاحكن الغزالة بعدما ... بكت فوقها عين السماء بأربع

كأن سرور الأرض حزن سحابها ... إذا ما بكت لاحت لنا في تصنع[٢]

وهذه صور حسية أخرى يرسمها لنا ابن هذيل حين عبر عن البياض الموجود في صدر فرسه الأصيلة وقد تواردت الصور إلى ذهنه بعدة أشكال، فهذا البياض كأنه ليل شقّهُ الصبح و لم يلتئم، أو كأنه قينان أسودان يصلحان سيفاً لامعاً، أو كأنه بدر حاولت الغيوم حجبه لكنه أطل مضيئاً، فنلاحظ هنا أن هذه الصور كلها جاءت مرتكزة على عناصر حسية فكلها متشابهة لأنها عبارة عن شيء أسود يبرز فيه شيء أبيض، حيث يعبر ابن هذيل عن تلك الصور بقوله:

فترى الليل على مقدمه ... شطره فيه وشطراً في الكفل

---

(١) غارسيا غومس، الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس ص٩٦.

(٢) شعر الرمادي يوسف بن هارون، ص٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكأن الصبح فاجاه فلـــم يستطع من كده أن يتصـــل
أو كأن السيف في موسطه بين قينين لإصلاح الفـــلل
أو كأن البدر فيــه أطبقـت فوقـــه مظلمـــة ثم أطـل[1]

ثانياً: النظرة التجزيئية :

سعى الشعراء العرب منذ القدم إلى تحقيق وحدة البيت الشعري، وكثيراً ما رفع متذوقو الشعر في نزعتهم التأثرية شأن الشاعر وحكموا له بالتقدم من خلال بيت واحد أطربهم وانتزع إعجابهم، وهكذا غدت القصيدة في عرفهم بمثابة وحدات مجتمعة في هذه الأبيات [2] ونلاحظ أن هذه الظاهرة كانت محور اهتمام شعراء عصر الخلافة في كثير من مقطوعات وصف الطبيعة في الأندلس.

إننا إذا درسنا كل بيت على حدة في مقطوعات الأندلسيين في هذه الفترة وجدنا صوره محكمة ومعبرة تحظى باهتمام الشاعر وتجتذب القارئ لها بحسن سبكها، فإذا ما نظر إلى المقطوعة ككل ليرى مدى تماسكها وتآلف أجزائها شعر أحياناً بقلة الانسجام والتماسك فيها، وكأن الشاعر لم يحفل بالرؤية الشاملة للمقطوعة لأن اهتمامه بصياغة البيت الواحد شغله عن ذلك.

ومما يدل على ذلك مقطوعة للشاعر الوزير الكاتب أبي مروان بن الجزيري فله وصف جميل للسوسان يقول فيه :

وملسن الطاقات أبيـــض ناصـــع يزهي بأصفر من جنـاه فاقـــع
أعداد زهرتــه إذا أحصيتهـــــا ست سوى عدد الرقيب الساهع
سكنت قرارة حجره كلفاً بـــــه كالأم تكلف بالصغير الراضـــع
صافي الأديم إذا تخلق صـــــدره بخلوق أرؤسهـا الذكـي المـائع

---

(١) الكتاني، التشبيهات، ص١٩٣.

(٢) د. عمر الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، ص٢٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهدى الصبابة والهوى بنسيمـه وبديـع منظـره الأنيق الرائـع
سموه بالسوسان ظلماً واسمـه في ما خلا ساسان غير مدافـع
لما استذاع بفارس كلفت بـه أملاكـه فدعتـه باسم شائـع [1]

إن المتأمل في الأبيات السابقة يدرك جمال السوسان، فقد استطاع الشاعر ببراعة أن يرسم بكلماته لوحة جميلة لهذا النوع من الورود فمنه الناصع البياض، ومنه الفاقع الصفرة، وتبلغ دقة الوصف ذكره لعدد وريقات هذه الزهرة، التي سكنت في قرارة حجره، فكأنه أم تحنو على رضيعها وتحتضنه.

ونحن لا نستطيع أن ننكر براعة الشاعر في تصوير المشهد، فالألوان واضحة ومعبرة وتشخيص المنظر مفعم بالحيوية والدقة، إلا أن أية محاولة منا لتبديل أماكن بعض أبيات القصيدة أو حتى إسقاط بعضها الآخر لن يضيرها، فهي غير قائمة على عنصر التسلسل والتدرج، فكل بيتٍ مستقل بنفسه، ولا حاجة بنا لنربطه بأي بيتٍ يسبقه أو يلحق به لندرك معناه، فهو بيت جديد له مذاقه الخاص، وكأن الشاعر صاغه مفرداً ثم انطلق منه ليصوغ بيتا أخر جديداً ..

هذه مقطوعة ليحيى بن هذيل في وصف حديقة فيها العديد من النواوير، يبعث منظرها البهجة في النفوس، فهي الممتلئة بالنرجس والجلنار والسوسن والخيري وسنلاحظ في هذه المقطوعة أن سبك الصورة في البيت الواحد وتماسكها أكبر بكثير من تماسك أبيات المقطوعة مع بعضها البعض، فلو أننا وضعنا وصف ينابيع المياه قبل وصف نواوير السوسان، أو وصف عيون النرجس قبل جني الجلنار لما حدث أي تغيير في المعنى الإجمالي للمقطوعة الشعرية حيث يقول الشاعر :

حديقـة نفس تملأ النفس بهجـةً وتثنى عيون الناظرين بها حسرى
كأن جنـي الجلنـار ووردهـا عشيقان لما استجمعا أظهرا خفرا
كأن جني سوسانها في سنا الضحى كؤوس من البلور قد حشيت تبرا

---

(١) الحميري، البديع في وصف الربيع ، ص١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأن عيون النرجس الغض بالنـــدى عيون تداري الدمع خيفة أن يدرى
كأن جني الخيري في غبش الدجـــى نسيم حبيب زار عاشقــه ســـراً
كـــأن ينابيــع الميـــاه مراجـــل تفور وقد أذكت لهن الحصى جمرا (١)

وقد يتسبب اهتمام الشـاعر بـالبيت الشعري كوحـدة منفصلـة في أن تفقـد المقطوعة الشعرية تأثيرها في نفوس المتلقين، لأن الـتركيز علـى البيـت الواحـد لفظـا وصورة ومعنى بدرجة كبيرة، يفقد البيت حيويته وعاطفته بشكل خاص، مما يسلب القصيدة أو المقطوعة روح الصدق والبساطة، فهذه مقطوعة لابن هـانيء الأندلسي في وصف جلنارة تفنن في وصفها أيما تفنن، فهو لم يدع تقريباً أية صورة في الطبيعة تشبه صورة الجلنار إلا واستخدمها، ولكن ذلك في المحصلة لم يُسـفر إلا عـن لوحـة ملطخة باللون الأحمر بشكل مبالغ فيه مما طغى على رونق العاطفة، وطلاوة الروح، ورواء الطبع، حيث يقول:

وبنت أيكٍ كالشباب النضـــر كأنها بين الغصـون الخضـــــر
جنان بازٍ أو جنان صقـــــر قد خلفتــــه لقــوة بوكــــــر
كأنما مجت دمـــا مـــن نحـــر أو نشأت فـي تربة مـــن حجـــر
أو رويت بجدول مـــن خمـــر لو كف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت بمثل النهد فـوق الصـدر تفـــتر عــن مثـــل اللثـات الحمر
في مثل طعــــم الوصـــل بعـد الهجـــر (٢)

ثالثاً: الاندماج العاطفي:

عد الشاعر الأندلسي نفسه جزءا من الطبيعة، وكثيراً ما كـان يضفـي عليهـا من نفسه ومشاعره، ورؤية الشاعر للطبيعة مرآة تعكس حالته النفسية، فـإذا كـانت

---

(١) الحميري، البديع في وصف الربيع، ص٣٥.

(٢) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص٣٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنبض بالفرح والسرور تراقصت عناصر الطبيعة له ومعه طربا وفرحاً، أما إذا ما أصابها الملل والكآبة بدت في ناظريه حزينة باهتة الألوان، ولسمع صوت حمائمها نواحاً على حاله، ولرأى من البحر غدره ومن الشمس لهيبها، ومن الغيوم سوادها، في حين كان يراها هو نفسه لما كان سعيداً بصورة أخرى، فالبحر رمز عطاء بلا مقابل، والشمس سبب الدفء وفيها روعة الضياء، والغيوم بشائر المطر والخير العميم.

لقد ناجى شعراء عصر الخلافة الطبيعة، وبثوها فرحتهم تارة، وحزنهم تارة أخرى، ولدينا قطعة متميزة للشاعر جعفر بن عثمان المصحفي في وصف سفرجلة أصبحت في ناظريه كياناً يشاركه أحزانه وآلامه، فكأنها المحبوب في رائحته وجماله وقساوة قلبه، وكأن صفرتها من صفرة الشاعر التي علت وجهه بسبب ما أصابه من سقمٍ وحزن على فراق محبوبه حيث يقول :

ومصفرة تختال في ثوب نرجس ... وتعبق عن مسك ذكي التنفس

لها ريح محبوب وقسوة قلبه ... ولون محب حلة السقم مكتسي

فصفرتها من صفرتي مستعارة ... وأنفاسها في الطيب أنفاس مونس[١]

وها هو ذا الرمادي قدم له طبق ورد عندما نزل على بني الأرقم بوادي آش، وكان الفصل شتاء، فاستغرب وجود الورد حينئذ وأخذ واحدة ثم قال بديهة.[٢]

يا خدود الحور في إخجالها ... قد علتها حمرة مكتسبهْ

واغتربنا أنت من "بجانة" ... وأنا مغترب من قرطبهْ

واجتمعنا عند إخوان صفا ... بالندى أموالهم منتهبهْ

إن لثمي لك قدامهم ... ليس فيه فعلة مستغربهْ

لاجتماع في اغتراب بيننا ... قبل المغترب المغتربهْ[٣]

---

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص٢٦١.

(٢) ابن الأبار، المصدر السابق، ج١، ص٢٦١.

(٣) شعر الرمادي، ص٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نرى أن موقفاً قد يكون عادياً جداً من وجهة نظر شخص، قد لا يكون عاديا أبداً من وجهة نظر شخص آخر، فلو لم يكن الرمادي مكتوياً بنار الغربة وقدمت له وردة في غير أوانها، لما قال تلك المقطوعة، ولكن ما حدث كان العكس فقد رأى في هذه الوردة نفسه، فكلاهما تحرقه الغربة وكلاهما في حال شعورية واحدة دفعته دون تفكير لقرض تلك الأبيات التي تكشف عن مشاركة عاطفية عفوية، ترجمها لنا الشاعر في مقطوعته السابقة.

وهذا هو أبو مروان عبدالملك بن جهور يقف أمام النرجس الأصفر، ويحاول أن يبرر الاصفرار الذي يتلون به النرجس هو اصفرار محب هجره إلفه، ويبدو منظر النرجس الأصفر مبعثاً للحزن في نفس الشاعر، فقد هيج أحزاناً كادت تنساه وينساها. وذكره بها، وبذلك امتزج ما كان في الطبيعة مع الطبيعة، وحاول أن يبلغ درجة التوحد معها، فكأنها هو، وكأنه هي، وفي ذلك يقول عبدالملك بن جهور :

واصفر حتى كأن الإلف يهجره ... وطاب حتى كأن المسك ينشره

يا نرجساً ظل قدامي تنم لـه ... ريح تذكرُني شوقي فأذكره

هيجت لي شجناً قد كان فارقني ... ذكرتني بالذي مازلت أؤثره[1]

ويتأثر الشاعر أحمد بن عبدربه بالغ الأثر بصوت الحمامة التي تسجع في جنح الليل، لأنها هيجت مواجعه وآلامه وعذاباته، وأجرت الدمع في عينيه بفعل صوتها الذي لم يصمد أمامه، فقال :

لقد سجعت في جنح ليل حمامة ... فأي أسى هاجت على الهائم الصب

لك الويل كم هيجت شجواً بلا جوى ... وشكوى بلا شكوى وكرباً بلا كرب

وأسكبت دمعاً من جفون مسهد ... وما رقرقت منك المدامع بالسكب[2]

---

(١) الحميري، البديع في وصف الربيع،ص١١٥.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وها هي مقطوعة أخرى للشاعر نفسه وقد تسللت إلى مسامعه سجعات الحمائم مرة أخرى فأثارت كوامن مشاعره، فبثها حزنه وكربه بقوله :

ويهتاج منه كلُّ ما كان ساكناً ... دعاء حمام لم يبت بوكون[١]

وإن ارتياحي من بكاء حمامة ... كذي شجن داويته بشجون

كأن حمام الأيك حين تجاوبت ... حزين بكى من رحمة لحزين[٢]

ولما عانق عبدالملك بن جهور محبوبته، لم يجد صورة تعبر عن طيب عناقه لمحبوبته أجمل من عناق الأغصان لبعضها في مسرح الطبيعة، إذ يقول :

حتى اعتنقتك مشتاقاً إليك كما ... يعانق الغصن غصناً ناعم الورق[٣]

وتحت أضلاعنا قلبان قد خفقا ... لما التقينا، من الأشفاق والغرق

وتضطرب أحاسيس علي بن أبي الحسن، فيحاول أن يصور لنا نفسه المضطربة، فلم يجد أبلغ من أن يشبه فؤاده بطائر يحاول الفرار مراراً وتكراراً، ولكنه يفشل لأن جناحيه مطبقان، فكأن عذابه شرك لهذا الطائر الذي يخفق خوفاً وقلقاً يقول :

كأن فؤادي طائر بين أضلعي ... يريد فراراً والجوانح مطبق

كأن عذابي حوله شرك له ... تنشب فيه فهو للخوف يخفق [٤]

كل المقطوعات السابقة هي أنماط محببة من الشعر، لأن مشاعر الشاعر تتعانق فيها مع مشاهد الطبيعة فيشكلان معاً اندماجاً عاطفياً.

---

(١) الوكون والأوكن مفردها وكن وهو عش الطائر، مفردها وكنة انظر لسان العرب مادة وكن.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ص١٨٥، ١٨٦.

(٣) الكتاني، التشبيهات، ص١٤٨.

(٤) نفسه ، ص١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً : الإشارات الدينية

وكان للثقافة الدينية عند شعراء الطبيعة في عصر الخلافة أثرٌ واضح، فجاءت بعض أشعارهم مرآة تعكس هذا التأثر، ومن ذلك أبيات للرمادي يصف فيها البازي، فيقول:

متدرع بالوشي إلا أن مـــد ... رعه يحاك عليه غير طويل
فكأن بلقيساً عليـــه إذ دنت ... في الصرح رافعة لفضل ذيول
متلفـــت كتلفت المرتاع يقـ ... ـسم لحظه في الجول بعد الجول
حتى إذا ما السرب عن للحظه ... أومى بقادمتيه خل سبيلـي[1]

فالأبيات : الثاني والثالث والرابع مستمدة من قوله تعالى: ﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال: إنه صرح ممرد من قوارير، قالت: رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين﴾[2]

وفي مدح ابن هانيء المعز لدين الله إشارات دينية عديدة، تدل على تأثر الشاعر بالقرآن الكريم إذ يقول:

من صفو ماء الوحي وهو مجاجـة ... من حوضه الينبوع وهو شفاء
من أيكة الفردوس حيث تفتقـت ... ثمراتهـا وتفيـأ الأفيـاء
من شعلة القبس التي عرضت على ... موسى وقد حارت به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالـة ... من جوهر الملكوت وهو ضياء
مـن حيث يقتبس النهار لمبصـر ... وتشق عن مكنونها الأنبـاء[3]

فالشاعر في البيت الأول يرى أن وجود ممدوحه من ماء الوحي الصافي الذي هو مجاجة، ومن حوضه المتفجر ماؤه الذي هو شفاء، وفي قوله شفاء إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[4]. أما البيت الثاني

---

(١) شعر الرمادي، ص١١٤.

(٢) سورة النمل، الآية ٤٤.

(٣) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص١٥-١٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيرى الشاعر فيه أن وجود ممدوحه من شجرة الخلد التي انشقت ظلالها وانبسطت. وفي قوله تلميح إلى ما جاء في الخبر الذي ينص على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تناول التفاحة ليلة الإسراء، فكانت منها فاطمة رضي الله عنها، وكان يشمها إذا اشتاق إليها[١]، أما البيت الثالث، ففيه إشارة إلى شعلة النار التي عرضت على موسى حين أوقعته الظلمة ومحيطةً به، كأنها جعلته في حيزها، إذ يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾.[٢]

وهذان بيتان للرمادي يصف فيها انبلاج الصبح فيقول :

وكم ليلة قد جمعتنا وأدبرت تنوح على تفريقنا وتلهف.

إلى أن بدا وجه الصباح كأنما تحمل لقمان وأقبل يوسف[٣]

ونستدل من البيتين، أن للرمادي ثقافة دينية مكنته من التعبير عن مراده، لقد شبه الليل الطويل المظلم بلقمان لطول عمره، أما طلوع الفجر فهو منظر جميل كجمال سيدنا يوسف رضي الله عنه.

وفي تشبيه الرمادي صوت الخطافة بأنه تسبيح لله عز وجل، ثم تشبيهه لصوتها حين يصدر مديداً بالقاريء الذي يرتل القرآن فإذا ما عرضت له وقفة مد بها الصوت وجلاها، إن في هذا كله دلالات واضحة على ما تمتع به الشاعر من ثقافة دينية حول كيفية ترتيل القرآن الكريم، إذ يقول:

خطافة سبحت الله بعجمة يفهم معناها

مديدة الصوت إذا ما انتهت لكنها تدمج مبداها

كقاريء إن تأته وقفة مد بها الصوت وجلاها [٤]

---

(١) انظر د. زاهد علي، تبين المعاني، ص ١٦، الحاشية.

(٢) سورة القصص، الآية ٢٩.

(٣) شعر الرمادي، ص٦٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٤، والظر الكتاني ص ٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامساً : التأثر بالمشارقة:

لقد تأثر شعراء الأندلس بشعراء المشرق، وكان الواحد منهم يرحل من الأندلس إلى المشرق ويتزود بالزاد الدسم من الثقافة والعلم والأدب ويعود حاملاً نفائس المصنفات والمؤلفات، وهم يحنون إلى الشرق حتى إن الشخص كان (يعاب بأنه لم يرحل إلى الشرق)[١]، فقد رأوا في المشرق أستاذيتهم التي يتكئون عليها في ثقافتهم ويستلهمونها في أدبهم، ويستوحونها في قصائدهم.

فالمشرق قبلة الشعراء، ومحط أنظار الأدباء، وشعراؤه هم المثل الأعلى لشعراء الأندلس الذين سعوا له مقلدين ومتأثرين.

لقد علّق ابن بسام الشنتريني في ذخيرته على تقليد شعراء الأندلس لإخوانهم المشارقة، واعتبارهم المشرق قبلتهم الأدبية، بقوله: (إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لحنّوا على هذا حتماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً).[٢]

إن من الطبيعي أن يكون هناك تقليد عند شعراء العصر لإخوانهم المشارقة في بعض الصور الفنية والتشبيهات والاستعارات، لكنهم عبروا مع ذلك عن طبيعة بلادهم بأحاسيسهم وعقولهم التي امتزجت بتلك البيئة الجميلة.

وكان لابد لنا أن نتساءل ونحن ندرس شعر الطبيعة في عصر الخلافة، إلى أي مدى قلد شعراء هذا العصر إخوانهم المشارقة؟ وهل يعد تقليدهم لهم دليل قوة أم دليل ضعف وعجز؟

إن التقليد (يدل على إيجابية الأديب ونمو شخصيته، فهناك فرق بين من يتأثرون ويقلدون، وبين من يقفون مكتوفي الأيدي ينظرون في ذهول ودهشة إلى

---

(١) د. أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج٣، مكتبة النهضة المصرية مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٩٦٢، ج٣، ص٢٤.

(٢) ابن بسام الشنتيري، الذخيرة، القسم الأول، ج١، ص١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النماذج الأدبية الرائعة، يكتفون بالتصفيق لها والتهليل، ومن هنا يجب ألا نقلل من شأن أخذ الأندلسيين من المشارقة، أو نسجهم على منوالهم، أو نبالغ فندعي ألا شخصية لهم).[١]

وقد يكون التأثر بالمشارقة وتقليدهم، سببه التداعيات التي تتسلل إلى كتابات شعراء الأندلس وبخاصة أشعارهم فمخزونهم الفكري به الكثير من الأفكار والمعاني التي يستمدونها من ثقافتهم اللغوية والأدبية والدينية والتاريخية، وكلها من المشرق دون شك، فالأولى بهم أن يتأثروا، فهذا وضع طبيعي، والغريب ألا نلمس تأثراً مثل هذا التأثر بالمشارقة، وقد جمعتهم بالأندلسيين وحدة اللغة والتراث والعقيدة من ناحية، كثرة الرحلة والنقلة من الغرب إلى الشرق أو العكس، ودخول بعض مصنفات المشارقة إلى الأندلس في وقت مبكر، بل أحياناً قبل أن تنشر في الشرق، من ناحية أخرى.

وتأثر شعراء الطبيعة في عصر الخلافة واضحٌ كل الوضوح في مقطوعاتهم وأبياتهم الشعرية فقول الشاعر سعيد بن عمرون في الهلال:

والبدر في جو السماء قد انطوى ... طرفاه حتى عاد مثل الزورق

فتراه من تحت المحاق كأنما ... غرق الجميع وبعضه لم يغرق[٢]

مأخوذ من قول ابن المعتز العباسي :

وانظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر [٣]

وقد تأثر أبو بكر الزبيدي بابن المعتز أيضاً لما رأى في زهرة النيلوفر عاشقاً يقضي نهاره متأملاً وجه محبوبته، ويطبق جفنيه ليلاً متخيلاً إياها، فصورة تفتح النيلوفر نهاراً وإطباق أجفانه ليلاً صورة أحس بها شعراء المشرق فقول أبي بكر الزبيدي:

---

(١) د. اسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية، ص٢٠٨.

(٢) الثعالبي، اليتيمة، ج٢، ص٥٤.

(٣) ابن المعتز، الديوان، ص٢٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبركة أحيا بها ماؤهـــا   من زهرها كل نبات عجيـــب
كأن نيلوفرها عاشـــق   نهاره يرقب وجه الحبيـــب
حتى إذا الليل بـدا نجمـه   وانصرف المحبوب خوف الرقيب
أطبق جفنيه عسى بالكرى   يبصـــر من فارقه عن قريـب(١)

مأخوذ من قول ابن المعتز:

وبركة تزهو نيلوفـر   ألوانه بالحسن منعوتـة
نهاره ينظر من مقلة   شاخصة الأجفان مبهوتة
كأن كل قضيب لـه   يحمل في أعلاه ياقوتـة (٢)

أما تلك الصورة الجميلة التي عبّر فيها الرمادي، عن ضحك النباتات والأزهار لبكاء السحب وهطول المطر في قوله:

كأن السحاب الجون أعرس بالثرى   فلاح شوار الأرض في كل موضع
رياض يضاحكن الغزالة بعدمـا   بكت فوقها عين السماء بأربـع
كأن سرور الأرض حزن سحابها   إذا ما بكت لاحت لنا في تصنـع(٣)

فهي متأثرة بقول الشاعر المشرقي كشاجم الرملي في قوله :

إلى الروض الذي قد زينته   شآبيب السحائب بالبكـاء
بكين عليه فابتهجت رباه   تباهي في زخارف نسج مـاء
كأن الأقحوان بجانبيـه   عذارى يتبسمن من الحيـاء(٤)

وكما ابهجت الطبيعة نفوس الشعراء في عصر الخلافة فجاءوا بأشعار رقيقة عذبة، أبهجت نفوس شعراء المشرق من قبلهم، فلم يكن المصحفي مثلا هو وحده الذي وصف الروض حين قال :

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج١١، ص٢٢١، ٢٢٢.

(٢) ديوان ابن المعتز، ص٤٨٠.

(٣) شعر الرمادي، ص٨٥.

(٤) كشاجم الرملي، الديوان، تحقيق وشرح خيرية أحمد محفوظ، مطبعة دار الجمهورية، ١٩٧٠، ص٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انظر إلى الروض الأريض تخاله كالوشي نمّق أحسن التنميق
وكأنما السوسان صب مرتـف لعبت يداه بجيبه المشقـوق
والنرجس الغض الطري محاجر تعبت من التسهيد والتأريق [١]

فقد بعث منظر الروض الجميل الحياة في نفس البحتري من قبله حين عبر عما أحس بقوله:

وروضٍ كساه الطل وشياً مجدداً فأضحى مقيماً للنفوس ومقعـدا
إذا ما انسكب الماء عاينت ملته وقد كسرته راحة الريح بـرّدا
وإن سكنت عنه حسب صفاءه حساماً صقيلاً صافي المتن جردا[٢]

وتشبيه الشعراء الأندلسيين للربيع بإنسـان يقبـل متخـتراً ومختـالاً بجمالـه تـأثر واضح بالمشارقة.

فالمتأمل في قوله ابن عبد ربه في وصف الربيع :

وجه ربيع أتاك باكـره يرفل في حلبه وفي حلله.
كأن أيامه ملبـــــةً أثواب عض الشباب مقتبلة[٣]

يتذكر قول البحتري في الربيع حين قال :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما [٤]

وفي وصف محمد بن ظاهر لرحلته الشاقة التي قضاها في الصحراء علـى ظهـر ناقته أبيات فيها تأثر واضح بشعراء المشارقة، ففي تشبيهه لناقته بالذعامة في قوله :

كأني بها في ظهر فتخاء كاسرٍ تؤيدها في الخبّ نكب سوامك.[٥]

تأثر بقول الشاعر الحارث بن حلزة اليشكري :

---

(١) الحميري، البديع في وصف الربيع، ٣٢.
(٢) ديوان البحتري، ج٢، ص٧٤٠.
(٣) الكتاني، التشبيهات، ص٢٦، لم يردا في ديوانه.
(٤) الديوان، ج٤، ٢٠٩٠-٢٠٩١.
(٥) الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ج٢، ص ٤٥، ٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير أني قد أستعين على الهمـ م إذا خف بالثوى النجاء
بزفوف كأنها هقلـــــة أم رئالٍ دوية سقفـــــاء[١]

وفي مساقه قول محمد بن طاهر في نفس المقطوعـة تـأثر بقـول البحـتري فهـو حين يقول عن ناقته :

إلى أن أتت كالقوس أشلاء أعظم يجمعها مسك بها متماسك[٢]

يتبادر إلى ذهننا قول البحتري :

طواه الطوى حتى استمر جريره فما فيه إلا العظم والروح والجلد[٣]

وقد سبق شعراء المشارقة شعراء الطبيعة في عصر الخلافة، في تشـبيههم تـدور الثمرة بنهد الكاعب، أو العكس، فهـذا عبدالملـك بـن جهـور يقـول مشـبها النهـد بالرمان:

وأجتني لك نهدا لا نظير له كأنما هو رمان على طبق. [٤]

وقد شبه كشاجم من قبله التين الأسود بنهود نبات الزنج مستفيداً من تـدور ثمر التين ولونه، ليعبّر عما يريد حيث قال:

أمرجنا المرجي أي مـــــرج في تينة البالغ غير الفـج
مثل رؤوس العلق سود نسج أو كثدايا ناهدات الزنج [٥]

وكما سبق أن طلب المشارقة من الطبيعة أن تشاركهم أفراحهـم وأحزانهـم، فقد كرر شعراء الطبيعة في عصر الخلافة ذلـك، فنحـن لا ننسـى أبيـات أبـي فـراس الحمداني حين وقع في الأسر، وألقي في السجن فسـمع حمامـة تنـوح علـى غصنهـا باكية، مما أثار شجونه ولواجع قلبه فقال:

---

(١) الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ج٢، ص٤٥، ٤٦.
(٢) الكتاني، التشبيهات، ص١٧٥.
(٣) ديوان البحتري، المجلد الثاني، ص٧٤٣.
(٤) التشبيهات، ص ١٤١.
(٥) الديوان، ص٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا هل تشعرين بحالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي [١]

وقد كرر الشاعر أحمد بن عبد ربه الطلب ذاته حين قال :

لقد سجعت في جنح ليل حمامـــــة فأي أسيً هاجت على الهائم الصب
لك الويل كم هيجت شجواً بلا جوى وشكوى بلا شكوى وكرباً بلا كرب
وأسكبت دمعا من جفون مسهـــــدٍ وما رقرقت منك المدامع بالسكب[٢]

وفي وصف ابن هانيء لخيول المعركة تأثر واضح بوصف المتنبي لها، يقول ابن هانيء :

حيث الحمام وما لهن قوادم وعلى الريود وما لهن وكون[٣]

وفي هذا تأثر بقول المتنبي في وصفه معركة قلعة الحدث الحمراء :

أتوك يجرون الحديد كأنمـــا سروا بجياد مالهن قوائـــــم[٤]

من ذلك كله، نستنتج أن شعراء عصر الخلافة متأثرون بمن سبقهم من الشعراء المشارقة، فالكثير من معانيهم موجودة في دواوينهم، والكثير من صورهم وتشبيهاتهم ما هو إلا محاكاة لصورهم الفنية، وما عرضناه يشكل جزءا بسيطاً للدلالة على ذلك، وليس حصراً لكل مواضع التأثر بالمشارقة في عصر الخلافة.

سادساً : الابتكار والتجديد :

ربما كان السؤال الذي يطرح نفسه في هذه الدراسة هو هل استطاع شعراء الطبيعة في عصر الخلافة أن يكونوا لأنفسهم شخصية واضحة الملامح أثناء تناولهم لوصف الطبيعة؟

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ص٢٣٨.

(٢) ديوان ابن عبد ربه ، ص٢٠.

(٣) د. زاهد علي، تبيين المعاني، ص٧٣٦.

(٤) المتنبي، أحمد بن الحسين، ديوانه، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة الحلبي القاهرة، ج٤، ١٩٣٦.ص٣٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد نستطيع الإجابة عن هذا السؤال، بموضوعية لا تبالغ في إعطاء شعراء هذا العصر أكثر من حقهم، فقد تأثروا بالمشارقة وقلّدوهم، ونحن لا نأخذ ذلك مأخذاً سلبياً، فقد ضمنوا لأنفسهم بذلك، أرضية صلبة مستندة على قاعدة عريضة من الثقافة الأدبية والتراث العريق، ومع ذلك فقد حاولوا أن يبتكروا ويجددوا في صورهم وتشبيهاتهم أثناء وصفهم للطبيعة، لكن ما استطاعوه لم يكن في الإتيان بصور لم يطرحها المشارقة قبلهم، بل كان في معظم الأحيان بكيفية عرض الصورة وأسلوب تناولها، لذا فنحن نشعر بأنهم أنشدوا شعرهم بصدقٍ ينبع من أعماقهم، وصفاءٍ تفيض به نفوسهم، لأنهم يعيشون بين أحضان طبيعة استطاعت أن تحوز على إعجابهم وهيامهم، فحركت مشاعرهم من الأعماق، فكانوا دون شك أكثر تجاوباً مع بيئتهم الرائعة التي تكتنفهم.

ونستطيع أن نضع أيدينا على عدة مظاهر تبين الابتكار والتجديد، ومن مظاهر هذا الابتكار، تفاعل الشاعر في هذا العصر مع الطبيعة بصورة تبلغ أحياناً درجة انصهاره فيها وامتزاجه معها، ليصبحان معاً شيئاً واحداً، ومن ذلك قول جعفر بن عثمان المصحفي في وصف سفرجلة :

ومصفرة تختال في ثوب نرجسٍ ... وتعبق عن مسكٍ ذكي التنفس

لها ريح محبوب وقسوة قلبه ... ولون محب حلة السقم مكتسي

فصفرتها من صفرتي مستعارة ... وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنسي[1]

فالشاعر في الأبيات السابقة، يشعرنا بأن تلك السفرجلة كياناً يشاركه ما يحس به من ألم سبّبته له محبوبته، بل يشعرنا أن تلك السفرجلة بصفرتها هي نفسه وقد غدا أصغر من هجران حبيبه.

ومن مظاهر التجديد في هذا العصر، ظهور شعر الطبيعة كغرض مستقل بذاته فلا يندرج ضمن قصائد تعالج في موضوعها غرضاً غير وصف الطبيعة، فقد

---

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص٢٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصف شاعر عصر الخلافة النجوم والكواكب في مقطوعات مستقلة، كما وصف السحب، والأمطار، والريح، والبرق، والرعد، والربيع، والورود، والرياض، ومن ذلك مثلا قول يحيى بن هذيل في السحابة:

وحنانة في الجو كدراء أقبلت تبسم عن ومض من البرق خاطف
تزف بها ريح الصبا، غير أنها تهادى تهادي الحور بين الوصائف[١]

ومما يذكر لشعراء الطبيعة في عصر الخلافة، اهتمامهم بالنوريات بشكل واضح، فقد خصصوا لها مقطوعات مستقلة، فللسوسن معجبوه له معجبيه الذين يسحرهم بجمال صفرته، ومن أكثر المعجبين به الشعراء العاشقين الذين أضناهم العشق ولوعهم لتغدوا صفرتهم من صفرة السوسن، ومن هؤلاء المصحفي الذي يقول :

يا ربّ سوسنةٍ قد بت ألثمها وما لها غير طعم المسك من ريق.
مصفرة الوسط مبيض جوانبها كأنها عاشق في حجر معشوق.[٢]

كما وصفوا البهار والنيلوفر والخيري الأصفر والخيري التمام والنرجس والياسمين..[٣].

ومن الجميل في أشعار الأندلسيين في هذه الفترة تصويرهم الشيء الواحد أكثر من مرة، فهذا يحيى بن هذيل يشبه الريح في عدة مقطوعات شعرية، فمرة يقول :

ومرنةٍ بعد الرواح كأنما في نحرها صوت القريع الهادر
قربت من الأسماع وهي بعيدة منها وغابت في الهبوب الحاضر
فإذا التقى جمهورها في دوحة فكأن فيها كل ليث هاصر
وإذا استقل قتامها فكأنما فيه التفاف عساكر بعساكر[٤]

(١) الكتاني، التشبيهات، ص٣٧، ٣٨.
(٢) ابن الأبار، الحلة السيرا، ج١، ص٢٦١.
(٣) انظر الرسالة "وصف النوريات".
(٤) الكتاني، التشبيهات، ص٢٨، ٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومرة أخرى يقول :

للصبا منة على الروض هادتـ ـه بطيب الحبيب أي ذمـــام
وجرت بينه رواحاً ليرتـــــا ح ويبقى على رضىً والتئـام
كالشفيق الذي يؤلف ما بيـ ـن حبيبين بعد قطع الكلام[١]

ويقول فيها أيضاً :

ودنت في هبوبها مشية النشـــ ـوان حيران بالمدام الشمـول
لصقت بالثرى كما يخضع العا شق ذلاً إلى الحبيب المطـول
ولقد خلت أن بينهما عشـــــ قاً فصارا للضم والتقبيـــل
واختفت عن فواطن الخلق حتى شبهوها ضآلة بنحـــــول[٢]

وقد وصف الرمادي السحابة عدة مرات ايضاً :

نوء وغيث مسبـل وقهوة تسلســل
فالغيث من سحابة طلّ ضعيف ينزل
كأنه بـــــرادة من فضة تغربـل[٣]

ويقول أيضاً :

ومشتمةٍ للأرض حتى كأنهـــا تقصّ محولاً في البطاح المواحل
فجنّت كما جن الظلام وأفرغت علينا كإفراغ الدلاء الحوافـــل[٤]

ويقول أيضاً :

وجارية جرى السفين تسوقها الر رياح ولكن في الهواء غديرهـــا
رأيت بأحشاء البحور سفينهـــا وتلك سفين في حشاها بحورها[٥]

وله عدة مقطوعات أخرى في وصفها وقد رأينا أن نكتفي بما ذكر.

---

(١) الكتاني، المرجع السابق، ص٢٨.
(٢) نفسه ، ص ٢٢٨.
(٣) شعر الرمادي، ص١٠١.
(٤) المرجع السابق، ص٩٩.
(٥) نفسه، ص٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعد مقدمة وصف الطبيعة في القصائد التي كتبت في عصر الخلافة، مظهراً من مظاهر الابتكار والتجديد، وقد ذكرنا سابقاً أن يد الطبيعة امتدت لتمسك بمقدمات القصائد، وخاصة قصائد المدح، وقد تحدثت عن ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني.

إن مثل هذا الابتكار والتجديد يوضح لنا مدى تأثير الطبيعة على شعراء عصر الخلافة، واستحواذها على اهتمامهم، حتى أصبحت مدخلا مألوفاً لهم يؤدي بهم بسلالة إلى غرض المدح الذي يقصدون.

كانت هذه مظاهر التجديد، التي استرعت انتباهنا في أثناء دراستنا لشعر الطبيعة في عصر الخلافة، ولعل من الجدير أن نذكر بأن قضية التمييز بين ما هو تقليد وما هو مستحدث مبتكر، قضية شائكة قد لا يستيطع أي إنسان خوض غمارها، فكما يقول غارسيا غومس: (لا يمكن أن نحلل هذا الشعر إلى مواده الأولى لنقول: هذا أخذه من تراث أجداده العرب القدماء، وذلك ابتكره بنفسه، واستوفى فيه طبيعة الأندلس، لأن العنصرين متداخلان متشابكان تشابك اللحمة مع السدى).[1]

(١) غارسية غومس، الشعر الأندلسي، ص٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــــة

كانت الأوراق السابقة جولة بين أحضان الطبيعة، فالأندلس بلاد جميلة، فيها من مظاهر الطبيعة ما يؤهلها لتحظى باهتمـام الأندلسيين، خاصة الشعراء منهم، ليصبحوا شعراء وصف لها، يهيمون بها، ويترجمون ما تراه عيونهم إلى لوحات شعرية رائعة.

وقد اقتصر هذا البحث على دراسة شعر الطبيعة في عصر الخلافة فقط، لنتمكن من دراسة جوانبه بصورة أكثر دقة.

إن الفكرة السائدة عند معظم الأدباء هي أن شعر الطبيعة قد تبلور في القرن الخامس، وهذا صحيح إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن شعر الطبيعة في القرن الرابع كان رفيع المستوى، غزيراً، يغري الباحث بدراسته، وإلقاء الضوء عليه، لتجلية جوانبه، وتوضيح مكانته الكبيرة في ازدهار شعر الطبيعة في القرن الخامس.

إن شعر الطبيعة في هذا العصر، كان محور اهتمام هذا البحث الذي اشتمل دراسة الطبيعة الصامتة، والصائتة بكل مظاهرها.

لقد اتضح في هذا البحث، مدى ارتباط شعر الطبيعة بفنون الشعر المختلفة كالمرأة، والغزل، والمدح، ومجالس الأنس، والخمر.

كما اتضح اهتمام الشعراء الأندلسيين بتشخيص عناصر الطبيعة، وإضفاء الحياة عليها، فقد حاوروها وبادلوها الشكوى، وبثوها أحزانهم، وطلبوا منها مشاركتهم أفراحهم، فرسموا لنا بكل ذلك لوحات إذا ما قرأناها علقت بأذهاننا، لما فيها من صدق ودقة تعبير.

واهتم البحث بدراسة الخصائص اللغوية والفنية لشعر الطبيعة في هذا العصر، وقد تبين لنا أن شعر الطبيعة، شعر عذب له ألفاظه الخاصة به، والمعبرة عنه، وقد عبر عنه شعراء الطبيعة بصورة جاء بعضها متأثراً بالمشارقة، وبعضها الآخر مبتكراً، فيه تجديد، ومن مظاهر التجديد فيه توحد الشاعر مع الطبيعة، وظهور شعر الطبيعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كغرض مستقل بذاته، واهتمامهم بالنوريات بشكل خاص، وصياغتهم للمشهد أو العنصر الواحد أكثر من مرة، واحتلال وصف الطبيعة مقدمات قصائد المدح.

وفي النهاية، أرجو أن تكون هذه الدراسة قد أتت بما يُرجى منها، وأن تكون عوناً لدارس هذا الأدب، وأرجو أن لا ينسى القاري أن البحث عن العلم طريقه صعبة، فعذراً إن أخطأنا، فما زلنا في أول الطريق.

الباحثة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع :

- ابن الآبار، محمد بن عبدا لله بن أبي بكـر القضـاعي، إعتـاب الكتـاب، تحقيـق صالح الأشقر، دمشق، مجمع اللّغة العربيّة، ١٩٦١م.
- ابن الآبار، محمد بن عبدا لله بن أبي بكـر القضـاعي، التكملـة لكتـاب الصلـة، عنيت بنشرة عزّت العطّار، القاهرةن ١٩٥٦م.
- ابن الآبار، محمد بن عبـدا لله بـن أبـي بكـر القضـاعي، الحلّـة السـيراء، تحقيـق الدكتور حسين مؤنس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦٣م.
- إحسـان عبّـاس، تـاريخ الأدب الأندلسـي عصـر سـيادة قرطبـة، دار الثقافـة، بيروت، ط٧، ١٩٨٥م.
- أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج٣، مكتبة النهضة المصرية، مطبعـة لجنـة التـأليف والنشر والترجمة، ط٣، ١٩٦٢م.
- أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتهـا مـن الفتـح حتـى الخلافـة، دمشق، ط٢، ١٩٧٢.
- أحمـد ضيـف، بلاغـة العـرب في الأندلـس، مطبعـة الاعتمـاد، مصـر، ط٢، ١٩٣٨م.
- إدريس، صفوان بن إدريس التجيبي المرسي (أبو بحـر). زاد المسـافر وغـرة محيـا الأدب السافر، إعداد وتعليق عبدالقـادر مهـدار، دار الرائـد العربـي، بـيروت، ١٩٨٠م، ص٢١٢.
- الإشبيلي، أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج، المقنع في الفلاحة، تحقيق إبراهيم حمد مهاوش الدليمي، ١٩٨١م.
- الأصمعـي، أبـو سـعيد عبدالملـك بـن قريـب، ت (٢١٦هـ)، النبـات، تحقيـق عبدا لله يوسف الغنيم – مطبعة المدنى، ط١، ١٩٧٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- إميليو غارسية غومس، الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ترجمه عن الإسبانية الدكتور حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٦٩م,
- أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.
- البحتري، الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ط٣.
- البخاري، صحيح البخاري، مصر للطباعة، المطبعة المنيريّة، بدون تاريخ.
- ابن بسام الشنتريني (علي أبو الحسن)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥م.
- ابن بشكوال، خلف بن عبدالله بن بشكوال. الصلة / تحقيق عزت العطار، مصر، ١٩٥٥ م.
- بطرس البستاني، آداب العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار المكشوف، دار الثقافة، بيروت، ط٦، ١٩٦٨م.
- البغدادي، صاعد بن الحسن الربعي (أبو العلاء). طبقات الأمم، تحقيق عزت العطار، مصر، ١٩٥٥ م.
- البكري، أبي عبيد البكري، ت (٤٨٧ هـ). جغرافية الأندلس وأوروبا في كتاب المسالك والممالك، تحقيق الدكتور عبدالرحمن الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨م.
- التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، ص٣٢٨-٣٢٩.
- الثعالبي، عبدالله بن محمد بن إسماعيل، ت (٤٢٩هـ). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد مُحيي الدّين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن حزم، وابن سعيد، والشقندي. فضائل الأندلس وأهلها، نشرها وقدم لها الدكتور صلاح الدّين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.
- الحميدي، محمّد بن فتوح بن عبدا لله (أبو عبدا لله). جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق محمد بن تساويت الطبخي الدّار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجلّ العرب، القاهرة، ١٩٦٦م.
- الحميري، إسماعيل بن عامر الحميري (أبو الوليد) ت(٤٤٠هـ). البديع في وصف الربيع، نشره وصححه عن النسخة الوحيدة بمكتبة الإسكوريال الأستاذ هنري بيرس، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربيّة، الرباط، ١٩٤٠م.
- الحميري، محمد بن عبدا لله بن عبدالمنعم (أبو عبدالله) ت (٧٢٧هـ). الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار القلم للطباعة، لبنان، ١٩٧٥م.
- الحميري، محمد بن عبدا لله بن عبدالمنعم (أبو عبدالله) ت (٧٢٧هـ). صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الرّوض المعطار، تحقيق لافي بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧ م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت، ت (٦٢٦ هـ). معجم الأدباء، نشره الدكتور أحمد فريد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٣٨م.
- الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العمار، ت (١٠٨٩ هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٠ هـ.
- أبو حيّان، أبو مروان القرطبي، ت (٤٦٩هـ). المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن الخطيب، محمّد بن عبداللّه السلماني (أبو عبداللّه لسان الدين، ت (٧٧٦هـ). الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧٣م.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق لافي بروفنسال، دار الكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (أبو العباس) ت (٦٨١هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- ابن خير الإشبيلي ت (٥٧٥هـ) فهرسة ابن خير، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ط٢، ١٩٦٣م، المجلد الأول.
- ابن دراج القسطلي، الديوان، تحقيق د. محمود علي مكي، ط٢، المكتب الإسلامي، ١٣٨٩هـ.
- ابن دمياطي، عمر بن حسين (أبو الخطاب) ت (٦٣٣هـ). المطرب في أشعار المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، والدكتور حامد عبدالمجيد، والدكتور أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥م.
- الدينوري، ت (٢٨٢هـ). كتاب النبات، تحقيق برنهار دلفين، دار القلم، بيروت، ١٩٧٤م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبداللّه محمد بن أحمد بن عثمان ت (٧٤٨هـ). سير أعلام النبلاء، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧م - ١٩٦٢م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبداللّه محمد بن أحمد بن عثمان ت (٧٤٨هـ). تهذيب سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الرعني، علي بن محمد بن علي الإشبيلي (أبو الحسن) ت (٦٦٦ هـ). برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق إبراهيم شبّوح، وزارة الأوقاف للإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٢م.
- الرمادي، يوسفف بن هارون، شعر يوسف بن هارون الرمادي، جمعه وحققه ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨١م.
- زاهد علي، تبين المعاني في شرح ديوان ابن هاني، مطبعة المعارف، القاهرة ط١، ١٣٥٢هـ.
- الزركلي، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٨٠م.
- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي السبكي، (٧٧١هـ). طبقات الشافعية الكبرى، ط١، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٤ هـ.
- سعد إسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، "عصر ملوك الطوائف"، دار النهضة، القاهرة، ١٩٧٨ م.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع ت (٧٣٠ هـ). الطبقات الكبرى، طبع دار صادر، بيروت، ١٩٥٨م.
- ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ج١، ١٩٥٣م، ج٢، ١٩٥٥م.
- السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ت(٩١١ هـ). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م.
- الشنتمري، الأعلم يوسف بن سليمان، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، اختيارات من الشعر الجاهلي، ج٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٨١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الصفدي، صلاح الدين، خليل بن أيبك. نكت الهميان في نكت العميان، المكتبة الجماليّة، القاهرة، ١٩١١م.
- الصفدي، صلاح الدين، خليل بن أيبك. الوافي بالوفيات، باعتناء مختلفين ومطابع مختلفة.
- الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، ت (٥٩٩هـ). بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، مطبعة سجل العرب القاهرة، ١٩٥٧م.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق وتقديم طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ابن عبد ربه الأندلسي. العقد، شرح وضبط وتصحيح أحمد أمين، وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٦٥م. الديوان، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٧م.
- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٦م.
- عبدالغني النابلسي، علم الملاحة في علم الفلاحة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.
- عبدالكريم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مطبعة لجنة الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٧٥م.
- عبده بدوي، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، وزارة الثقافة والأعلام، مصر، ١٩٧٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن عذاري المراكشي، محمد و أحمد بن عذاري المراكشي، ت (٣٩٥هـ). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج- س-كولان ليفي بروفنسال، مطبعة دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.
- العسكري، الحسن بن عبدا لله بن سهل العسكري، ت (٣٩٥هـ). الصناعتين، تحقيق محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طه عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٨١م.
- عمر الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٧٥.
- أبو فراس الحمداني، الديوان، رواية أبي عبد ا لله الحسن بن خالويه، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١م.
- ابن الفرضي، عبد بن محمد بن يوسف الأذري الحافظ (أبو الوليد). تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس. الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦م.
- ابن قتيبة، عبدا لله بن محمد بن مسلم، ت (٢٧٦هـ). الشعر والشعراء، دار الثقافة، ط٢، بيروت، ١٩٦٩م.
- كشاجم الرملي، الديوان، تحقيق وشرح وتقديم خيرية محمد محفوظ، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٩٧٠.
- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أجزائها والحروب الواقعة فيما بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.
- المبرد، للكامل، تحقيق محمد أبو الفضل وسيد شحاتة، ج١، القاهرة، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٥٦.
- المتنبي، الديوان، تحقيق مصطفى السقّاف وآخرين، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٣.
- محمد عبدا لله عنان، الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية باللغتين العربية والإسبانية، مطبعة المعهد المصري، للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.
- محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر في القرن الثاني، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
- محمد منتصر الريسوني، الشعر النسوي في الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م.
- مراكشي، محمد بن عبدا لله المراكشي (أبو عبدا لله) ت (٧٠٣هـ). الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، المخطوطة المطبوعة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٧٣م.
- مراكشي، عبدالواحد بن علي، ت (٦٤٧هـ). المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط١، ١٩٤٩م.
- المسعودي، علي بن الحسين بن علي (أبو الحسن) ت (٣٣٦هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م، ج١.
- مقدار رحيم، النوريات في الشعر الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
- المقري، التلمساني، أحمد بن محمد ت (١٠٤١هـ). نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعي بإشراف ومراجعة الناشر ودار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م.
- المقريزي، تقي ا لله أحمد بن علي. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨.

النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدوريـــات :

- بتول سليمان، الأزهار ومدلولاتها عند العامة، مجلة التراث الشعبي، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، مجلد ٣-٤، ١٩٨٤.
- د. مصطفى بهجت، البحر في شعر الأندلس والمغرب، في عصري الطوائف والمرابطين، الرسالة الأربعين من حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨٦، ص١٣ وما بعدها.

٤٥٧١٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

DESCRIPTION OF THE NATURE IN THE ANDALUSIAN VERSE DURING THE PERIOD - 316-399

BY : NADYAH SALEH SALEH RASHID ABU ODEH
SUPERVISED : PROF. DR. ABDEL KARIM KHALIFEH

SINCE THE VERY BEGINNING NATURE POETRY HAS BEEN RECEIVED AS A CONSPICUOUS ART IN ARABIC POETRY. NATURE, THE MOTHER OF INSPIRATION, HAS ALWAYS INFLUENCED THE POETS. BEING OVERWHEL-DURING THE CALIFF PERIOD - COMPOSE THE MOST BEAUTIFUL VERSE EVER WRITTEN IN NATURE DESCRIPTION.

THE POETRY OF THE THAT PERIOD WAS CHARACTERIZED BY BEING INDEPENDENT FROM OTHER TYPES. COMPLETE POEMS WERE EMPLOYED TO DESCRIBE NATURE, HOWEVER, NATURE DESCRIPTION CONTINUED TO SHOE ITSELF IN THE OTHER TYPES OF POEMS AT THE SAME TIME.

THIS PIECE OF RESEARCH IS AN ATTEMPT TO INVESTIGATE THE VARIOUS NATURAL ELEMENTS THAT HAVE CALOURED THE ANDALUSIAN POETRY IN NATURE DESCRIPTION TAKING INTO CONSIDERATION THE LUXURIOUS LIFE ANDALUSIANS EXPERIENCE AND ITS IMPACT IN THE DEVELOPMENT OF NATURE POETRY DESCRIPTION.

STRANGELY ENOUGH. IT HAS BEEN FOUND THAT NATURE POETRY CREEP SMOOTHLY INTO THE OTHER TYPES LIKE WAS AND PRAISING VERSE. THIS PHENOMENON HAS BEEN STUDIED AND ANALYSED LINGUISTICALLY AND STYLISTICALLY. AS A RESULT, IT HAS BEEN FOUND THAT THIS TYPE OF POETRY IS A MARK STONE IN THE HISTORY OF ARAB LITERATURE. THAT IS DUE TO THE ANDALUSIAN POETS' TALENT IN CREATING NEW RELATIONS BETWEEN THINGS AND INTRODUCING UNIQUE SIMILIES AND IMAGES THAT WAS, IN CONTRARY TO THE TOUGH BEDIONS POETRY, FILLED WITH SENSITIVE FEEDINGS AND DELICATE WORDING THAT SPOING FROM AN OPTIMISTIC VIEW OF LIFE.

FINALLY, THE RESEARCHER HOPE THAT HER WORK WOULD BE FOUND TO BE USEFUL AND INTERESTING BY ALL CONCERNED PARTIES.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit